المرأة بين التحرير والمسؤولية

رياض الزغل (*)

إن الحديث عما تحقق للمرأة التونسية من تشريعات تنهض بها وبحقوقها أصبح من الأشياء التي تبدو مبتذلة قي عيون البعض، غير أن تطوير مكانة المرأة في المجتمع هو مشروع وصيرورة طويلة المدى تتوجه نحو العقليات والسلوكيات لتغييرها، الشيء الذي يحرك وربما يزعج تراكمات تاريخية ويثير مقاومة تدخل بطءا على عملية التغيير نفسها. من أجل هذا تبدو عملية تطوير التصورات والسلوكيات التي تهم العلاقة بين الجنسين صعبة ولا ينجح فيها من المصلحين إلا من كانت له رؤية واضحة وعزيمة صادقة لتسخير الأداة السياسية والتشريعية لهذا الغرض. ومن حسن حظ المرأة التونسية أن حكم البلاد رئيسا دولة يتصفان بهذه الرؤية وهذا الاستعداد، وساعد على ذلك مجتمع متفتح ومتعطش للحداثة، غير أنه اليوم وفي ظل التقلبات العميقة التي يشهدها العالم وتعقد عملية التنمية المتزايد، تبدلت المعطيات وصار من المطلوب التركيز على دور المرأة بنفس القدر الذي يركز على مكانتها، أعني التركيز على ما هو مطلوب أن تقوم به، أي نضالها لفائدة المجموعة الوطنية ومساهمتها في صيرورة التنمية الشاملة.

لقد تحقق تقدم كبير في تطور مكانة المرأة ودورها في المجتمع لكن الدرب مازال طويلا نظرا لأن تغيير المجتمع بعد أن تتطور القوانين يتطلب ردحا من الزمن حتى تستوعب مؤسساته و أفراده التشريعات وتحولها إلى فعل على أرض الواقع.

ننطلق في تحليلنا للإشكاليات المستحدثة التي تواجهها المرأة من الفرضيات التالية:

1 ـ المرأة هي فاعل اجتماعي بمعنى أنها قادرة على التغيير.

2 ـ لا يغير القانون المجتمع إذا غابت قدرة هذا الأخير بمؤسساته ومختلف مكوناته على تفعيله.

3 ـ لا يمكن للمرأة تفعيل القوانين والإجراءات التي تستهدفها إذا كانت غائبة عن الحياة العامة وعن مواقع القرار.

4 ـ ليس هناك استدامة لتحرير المرأة والرفع من مكانتها إذا لم تقم بدورها كاملا، ولم تساهم في النهوض بالمجتمع من خلال مساهمتها في العمل الجمعياتي.

5 ـ ليس هناك استدامة لتحرير المرأة والرفع من مكانتها إذا ما لم تساهم في تنمية الاقتصاد الوطني.

وإذا اعتمدنا هذه الفرضيات يتبين أن قضية المرأة التونسية اليوم، انتقلت من التحرير إلى المسؤولية في عديد المجالات، وهذا لا يعني أن كل النساء تحررن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* أستاذة متميزة بجامعة صفاقس وعضو مجلس المستشارين.

من قيود التقاليد البالية، وإنما هناك فئات منهن تسع رقعتهن باطراد معنيات بمسؤوليات متجددة في مجالات كالتربية في محيط متطور، تختلط فيه القيم المتعددة والمتضاربة، والمسؤولية الاقتصادية سواء في مستوى الأسرة أو في مستوى التنمية المحلية والجهوية وحتى الوطنية، وكذلك المسؤولية السياسية لما فتح الباب للمرأة للمشاركة في الهياكل السياسية والدستورية.

1 - المقاربة التونسية في تعزيز مكانة المرأة ودورها الاجتماعي

تمثل نقطة القوة في السياسة التونسية للنهوض بالمرأة **اعتمادها مقاربة شمولية**، إذ اعتبر المشرع التونسي منذ الاستقلال قضية المرأة بوصفها إنسانا ومواطنة وفاعلا اجتماعيا:

- **هي كإنسان** تتمتع بحق التصرف في مسار حياتها، وحق اتخاذ القرار فيما يتعلق بالزواج، والطلاق، والإنجاب، والعمل، والدراسة، والسفر إلى الخارج.

- **وكمواطنة** تتمتع بحق الترشح والانتخاب، ونقل جنسيتها إلى أطفالها إذا كانت متزوجة من أجنبي، وحق الوصاية على أطفالها في حالتي وفاة الزوج والطلاق.

- **وكفاعل اجتماعي** لها الحق في تأسيس الجمعيات، وإدارة الأعمال، وتستفيد بالإضافة إلى ذلك من مزايا التمييز الإيجابي لتثبت وجودها في مختلف المؤسسات السياسية.

إن اعتبار هذه المجالات مشتركة يعطي الفاعلية الحقيقية لمشروع النهوض بالمرأة نظرا لارتباطها بعضها ببعض. فمثلا لا تكون الأسر متحمسة للاستثمار في تعليم بناتهن إذا لم تلغ أسباب التمييز بين الجنسين في مجال الشغل، كما لا يمكن ضمان حق المرأة في الشغل إذا ظلت حريتها مقيدة فيما يتعلق بالزواج والإنجاب والتنقل داخل وخارج الوطن والتصرف في مواردها الذاتية.

بالإضافة إلى هذا المدخل الشمولي تعددت الإصلاحات القانونية التي ابتدأت من مجلة الأحوال الشخصية سنة 1956 وتواصلت إلى اليوم من خلال عديد الإجراءات التشريعية والآليات التي تدفع بالمرأة نحو التقدم والمساواة مع الرجل.

إذا كان الرئيس بورقيبة سابقا قد وضع أسس سياسة متينة وإستراتيجية بعيدة المدى بهدف تحرير المرأة والنهوض بها، اعترافا بمساهمتها في الحركة التحريرية واعتبارا لدورها في المشروع التحديثي للمجتمع التونسي، فإن الرئيس بن علي اعتمد نفس المبادئ ولكنه توسع في المشروع وأسس لاستمراريته لما أدرج تحرير المرأة في مشروع تنموي شامل وجعل منه صيرورة مستمرة وليست إجراءات حينية، حمّل فيها المرأة مسؤوليتها كاملة. ثم إنه من مميزات مقاربته هو ذلك الارتباط الوثيق بين دعم المرأة ودعم الأسرة الذي اعتمده بصفة جلية في برنامجه الانتخابي سنة 2004.

وقد عبر في خطب عديدة عن إيمان راسخ بأهمية حقوق المرأة وإرادة فعلية لتكريس هذه الحقوق خاصة تلك التي تضمن مساهمتها في الحياة العامة، وكذلك تعبيرا عن الثقة بالمرأة ودعوة إلى مساهمتها في عملية التنمية. عبر الرئيس بن علي عن هذا التوجه صراحة في عديد الخطب منذ 1987 إلى اليوم.

إن ماتحقق للمرأة وما حققته لنفسها تجسمه الإحصائيات التي تبرهن على أنه ليس هناك من مجال غابت عنه المرأة التونسية، بل إن تواجدها يزداد يوما بعد يوم. ومن أهم المؤشرات التي تفتح أبواب المستقبل في وجه المرأة هو وصول نسبة الإناث في التعليم العالي كدارسات إلى 57٪ وكمدرسات إلى 40٪ في ظرف موات يتحرك فيه الاقتصاد بفعل المعرفة.

لكن رغم كل هذا فإن ارتقاء المرأة إلى مستوى الرجل في مجالات المشاركة في الحياة العامة وفي مجال التشغيل ما زال لم يتحقق بعد. هذه الملاحظة ليست من باب الإيديولوجية أو عدم الإقرار بأنه مهما تحررت المرأة من قيود التقاليد البالية، ومهما بلغت من درجات عالية من التكوين ومن التعليم فإن المجتمع -أي مجتمع- يفرق بين الجنسين في تحديده وتوزيعه للأدوار الاجتماعية و لو بنسب متفاوتة، وإنما نقول هذا لأن ممارسة دور المرأة حتى ولو كان تقليديا، أصبح مختلفا وأكثر تعقيدا وبالتالي يتطلب قدرات وتمكينا أكثر. والسبب هو التغيير العميق والسريع الذي يشهده المحيط الاجتماعي والاقتصادي الذي يطرح قضايا غير مألوفة، يتطلب حلها إبداعا ومخاطرة. فإذا كانت النساء يمثلن قرابة ربع السكان النشيطين وأكثر من نصف المربين في مختلف مراحل التعليم و40 بالمائة من المدرسين بالجامعة مع وجود ما يزيد عن 10.000 صاحبة مشروع اقتصادي، هذا على سبيل الذكر لا الحصر، يظهر مدى أهمية مساهمة المرأة في اشتغال المنظومة الاقتصادية والاجتماعية الوطنية زيادة على الأدوار التقليدية الخاصة بإعادة إنتاج المجتمع (الإنجاب والتنشئة الاجتماعية للأطفال، وأشغال البيت المتعددة...)

2 ـ مساهمة المرأة الفاعلة في عملية التنمية والعوائق المتبقية

إن ما تحقق للمرأة وما حققته لنفسها لشيء كبير لو نظرنا لقطاع التعليم وتفوق الفتيات فيه، أو لقطاع الشغل حيث انتقلت نسبة العمالة النسوية من 6٪ سنة 1966 إلى أكثر من 24٪ في الوقت الحاضر، أو إلى القطاع السياسي حيث ارتفعت نسبة النساء في مجلس النواب إلى قرابة 23٪ سنة 2004 ونسبتهن في أول مجلس تشريعي وصلت إلى 16٪. اقتحمت المرأة مجالات وظيفية واقتصادية عدة وتواجدت في الحياة العامة وهي تتحمل مسؤوليات شتى، بعضها تقليدي وبعضها حديث ولا زالت الطريق أمامها طويلة. ذلك أن نسق التطور الاجتماعي أحيانا يكون بطيئا مقارنة بتغيير الإطار التشريعي، والتراكمات التاريخية لا تنمحي بصماتها من العقلية بسهولة وتبقى آليات السلوك مستقرة أحيانا تحت تأثير الضغوط الاجتماعية المحلية.

إن ولوج الحياة العامة هو أساس تحرير المرأة لأنه يخرجها من بوتقة الدور التقليدي الذي يقتصر على إعادة إنتاج المجتمع (إنجاب وتنشئة الأطفال و شؤون منزلية وأشغال فلاحية وغيرها من الأعمال التي تبقى خارج إطار التبادل التجاري) هذا الدور التقليدي رغم أهميته بالنسبة للأسرة والمجتمع فهو لا يجلب مالا وفيرا ولا جاها مرموقا ولا يعتبر مهنة يستثمر المجتمع في التكوين المختص لمن يقومون به. وهذا بخلاف أدوار الإنتاج مقابل أجر أو ربح وأدوار التسيير التي يصحبها أجر ونفوذ وتقدير اجتماعي.

توجد أربعة مسالك يمكن عن طريقها دخول الحياة العامة ولكن التوجه نحوها لا يثير اهتمام كل النساء أو لا يسمح لبعضهن بالتقدم نحوه بحكم التصورات الاجتماعية. هذه المسالك هي : **الشغل وبعث المشاريع والنشاط الجمعياتي والنشاط السياسي.**

الشغل : ليست كل النساء متمسكات بحقهن في الشغل، و من بين المؤشرات على ذلك نسب البطالة، ولا بد من التذكير هنا بأن إحصاء البطالة يعتمد على إعلان من طرف المرأة بأنها طالبة شغل وإلا فإنها لا تحتسب كعاطلة عن العمل أو طالبة شغل. وتتأثر نسبة البطالة كذلك بقابلية المؤسسات المخلية لتشغيل المرأة. وفي هذا المجال نجد فوارق بين النساء باختلاف حالتهن المدنية وباختلاف الجهات، وهاذان العاملان هما محط قيم اجتماعية صلبة إما وطنيا وإما محليا. هذا ما نجده في نتائج الاستمارة الوطنية لسنة 1999 :

ARCHIVE
archivebeta.Sakhrit.com

العاطلات عن العمل : العازبات 5،26٪، المتزوجات 3،5٪، الأرامل 8،7٪، المطلقات 5،14٪. يظهر جليا من خلال هذه الأرقام أن طلب الشغل من طرف المرأة يزداد في غياب ارتباطها بالزواج ولهذا سببان محتملان : الأول هو تعويل المرأة اقتصاديا على الرجل، والثاني هو القيم الاجتماعية التي لا تشجع المرأة المتزوجة على الشغل أو تلك التي تتجسم أحيانا في التمييز المؤسساتي لما يرفض انتداب المرشحة للوظيفة بسبب جنسها.

ومن الملاحظ أيضا اختلاف نسب البطالة النسوية حسب الجهات حيث ترتفع في إقليم تونس إلى 17,7٪ وفي الوسط الشرقي إلى 11,9٪ وفي الشمال الغربي إلى 22,8 ٪ وفي الجنوب الغربي إلى 27,1 ٪. وقد تدل هذه الأرقام على الفرق من حيث كثافة النشاط الاقتصادي بالجهات لكنها تدل أيضا على مدى استعداد المشغلين لانتداب يدا عاملة نسوية.

بعث المشاريع : عرفت المرأة بإنتاجها منذ العصور القديمة (نسيج وزربية وتحويل مواد غذائية وفلاحة وتربية حيوانات...)، لكن إنتاجها بقي منحصرا في الفضاء العائلي. واليوم هناك عديد النساء اللاتي يتعاطين مهنة في قطاع الخدمات أو في قطاع الصناعة لكنهن لم يقدمن على الانتقال من القطاع غير المنظم إلى القطاع المنظم. هذه الظاهرة لها علاقة بتخوف المرأة من ولوج الحياة العامة، أو بسيطرة القيم الاجتماعية التي تمنع من ذلك. وربما يفسر أيضا بعدم وعي المرأة بفوائد النشاط الاقتصادي في إطار منظم وشفاف وما يتبعه من حوافز مالية وجبائية، وتطوير للتقنيات المستعملة، وانتقال من المهارات اليدوية التقليدية إلى المهنية الصناعية...

النشاط الجمعياتي : إن العمل الجمعياتي مجال واسع ومتشعب لكن تواجد المرأة به لا يزال ضعيفا نسبيا حسب دراسة قام بها مركز إفادة، إذ تمثل النساء قرابة ثلث المنخرطين من بين مليون منخرط، و قرابة 12٪ من بين أعضاء الهيئات المديرة للجمعيات. وهناك 200 جمعية تسيرها نساء.

وبقدر ما يتطور المجتمع بقدر ما تتشعب حاجياته وتبرز ميادين جديدة يمكن للمرأة اقتحامها في مجال العلم والثقافة والترفيه والعمل الخيري والتكوين...

النشاط السياسي : إن المرأة لا تتوجه بصفة طبيعية إلى أدوارالتسيير الاجتماعي وبخاصة العمل السياسي لأسباب عدة منها القيم الاجتماعية التقليدية، وضغوط متطلبات الدور الأسري الذي لا يبقي للمرأة متسعا من الوقت لتعاطي أنشطة إضافية خاصة عندما يكون لها شغل. لكن تواجد المرأة في المجال السياسي ومواقع القرار مطلوب أكثر من أي وقت مضى نظرا لما تحصلت عليه من علم وتكوين ونظرا لتعقد قضايا المجتمع المتقدم ونظرا أيضا لما يمكن للمرأة أن تقدمة من رؤية متميزة للأشياء بسبب موقعها المتميز في المجتمع كأم وربة أسرة ومرجع لعديد القيم الاجتماعية، وفي نفس الوقت أحد المحركات الرئيسية للتنمية و تحديث المجتمع.

ولضمان حد أدنى من تواجد المرأة في الحقل السياسي اعتمد الرئيس بن علي سياسة التمييز الايجابي في كل مناسبة انتخابية سواء للتمثيل في هياكل الدولة أوفي هياكل التجمع الدستوري الديمقراطي. وهذا يضع مسؤولية حيال النساء المقتدرات من حيث استجابتهن لهذا التوجه ذلك أن عدمه خطير. والخطورة لا تقتصر على غيابهن فحسب، وإنما تتمثل في ملء الفراغ بعناصر ليست لها الكفاءة والخصائص المتميزة فلا تعطي صورة إيجابية عن المرأة من شأنها أن تدعم مكانتها في مختلف المجالات.

وعلى كل حال، يوجد حراك سياسي واجتماعي يطرح أسئلة جديدة وقضايا مستحدثة تتطلب ابتكار وسائل وآليات جديدة لمعالجتها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

3. القضايا المتجددة

إن التحولات الاجتماعية المتسارعة وكذلك التحولات التي توجه الاقتصاد تدريجيا إلى اقتصاد يعتمد على المعرفة تعطي بعدا جديدا للأدوار الاجتماعية التي تقوم بها المرأة، وحتى الرجل، سواء كانت تقليدية أو أكثر حداثة، وتجعلها أكثر تشعبا وتعقيدا فيتطلب تحقيق هذه الأدوار خيالا ومبادرة ومخاطرة ومسؤولية أكثر مما كانت عليه في السابق. ولتصور هذه الصعوبة سنتطرق إلى ثلاث مجالات تتحمل فيها المرأة مسؤوليات كبيرة إما بحكم النوع أو بحكم التطور الذي تحقق لها وأدخلها إلى ميادين كانت غائبة عنها : التربية والأخلاق والحس المدني، البحث العلمي، وتسيير المؤسسات.

الأخلاق والحس المدني

إن الأخلاق قيما ومثلا وأرضية ثقافية مشتركة توجه سلوك الأفراد وهي التي تمثل الرابط الذي يشد أعضاء المجتمع لبعضهم البعض وهي أساس الانتماء إلى نفس الثقافة بمختلف مكوناتها. لذا للأخلاق موقع هام في التنشئة الاجتماعية التي تؤسس للحس المدني والوعي بمصلحة الآخر وبمصلحة المجموعة والمجتمع ككل.

وإذا كان المجتمع في حالة من الاستقرار تكون القيم الأخلاقية هي كذلك مستقرة وعملية تربية النشء سهلة نسبيا، ذلك أن الضغط الاجتماعي المتعدد المصادر يضمن احترام القيم الأخلاقية المشتركة بين الجميع ويكون الانحراف محدودا جدا نظرا لاشتراك جميع المؤسسات في سلم قيم واحد، والعملية التربوية ميسرة بحكم تكامل وتناسق المؤسسات الاجتماعية.

أما إذا كان المجتمع في حالة تطور وكان نسق هذا التطور سريعا، تعددت المؤسسات الاجتماعية والمراجع الأخلاقية، وتعقد نسق اشتغال المجتمع وتعددت واختلفت فئاته. وينتج عن ذلك تشتت القيم الأخلاقية التي لم تعد مشتركة بين الجميع، وأيضا ضعف في الضغط الاجتماعي بهدف احترام هذه القيم. ثم إن تقييم الانحراف لا يخضع دوما إلى نفس المعايير فتختلط السبل على من يريد توجيه سلوك النشء. وبما أن المرأة هي المعنية الأولى بالتربية في مختلف المؤسسات الاجتماعية فهي التي تواجه كل يوم انعكاسات هذا التطور مع أنها لا تجد المرجع التربوي في تجارب الأجيال السابقة، فتحتاج إذن إلى البحث والابتكار والمبادرة بما يحتوي عليه كل ذلك من مخاطرة. وهذا مثال من القضايا المستحدثة التي تعالجها المرأة سواء كانت أماً أو مروضة أو معلمة أو أستاذة أو أي ناشطة حتى وإن كانت مساعدة منزلية.

البحث العلمي

إن تواجد المرأة في التعليم العالي بعدد وافر (40٪ من جملة المدرسين بالقطاع) يحملها مسؤولية كبرى من حيث أنها مطالبة، زيادة على التدريس، بالبحث العلمي وإنتاج المعرفة، الشيء الذي يتطلب وقتا كثيرا وتنقلات وسفرا في الداخل والخارج ويحتاج أيضا إلى قدر من التفرغ يسمح بالتعلم المستمر. لكن كل ذلك يتعارض مع الإبقاء على الأدوار التقليدية التي تلتهم أوقات الفراغ ولا تبقي مجالا للعمل الجدي في ميدان البحث العلمي. وتدل الإحصائيات فعلا على ضعف تواجد المرأة في مواقع المسؤولية بمؤسسات البحث العلمي كما يبدو في الجدول التالي:

المرأة في هياكل البحث العلمي (2003)

هياكل البحث	النساء	النسبة	الرجال
المعاهد الوطنية	2	6٪	30
المخابـــر	14	1٪	131
وحدات البحث	53	12٪	417
الجملــة	**69**		**578**

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يمكن تفسير الانخفاض النسبي لعدد الباحثات والمسيّرات لمؤسسات البحث العلمي بتحمل المرأة المدرسة بالتعليم العالي عديد الأدوار الاجتماعية وبافتقارها للحرية في التنقل والسفر خاصة إذا كانت متزوجة وكان النموذج المسيطر على عقلية الزوج هو نموذج المرأة المطيعة حتى وإن كانت متعلمة ومفكرة.

المسؤولية الاقتصادية

كعنصر اجتماعي يساهم في التنمية، المطلوب من المرأة، زيادة عن الشغل، أن تبعث مشاريع اقتصادية، ولا يكفي أن تقرر الدولة حوافز مالية وجبائية حتى يقدم الفرد على بعث مشروع وإنما الأمر هو ظاهرة اجتماعية وثقافية وله علاقة بالموروث الثقافي والتنشئة الاجتماعية للبنت وقدرة المجتمع على استيعاب التغيير.

في دراسة حول المرأة الباعثة أنجزها الكريديف سنة 2001 تبين بوضوح مدى تأثير المحيط الاجتماعي على الدوافع التي تحث المرأة على بعث مشروع اقتصادي، بعض هذه الدوافع هي نفسية في ظاهرها ولكن لها علاقة وطيدة بدرجة تحرر المرأة وطموحاتها لأن الطموح له محتوى وهو ليس بمنأى عن الفكر والإطلاع على الفرص المتاحة، وليست هذه الأخيرة بمعزل عما يسمح به المحيط الاجتماعي من تحرك ومبادرة وسلوكيات واختيارات ذاتية للمرأة. يمكن تقسيم هذه الدوافع إلى صنفين: عوامل الجلب التي تخلق الرغبة في المبادرة، وعوامل الدفع التي تجعل من بعث المشروع مخرجا من وضعية غير مرضية.

ويستنتج من الاستبيانات المعتمدة في الدراسة المذكورة سابقا عوامل الجلب هذه: البحث عن الاستقلالية، تحقيق الذات، روح المبادرة، تنمية الدخل، الايمان برسالة اجتماعية، البحث عن الرقي الاجتماعي والرغبة في ممارسة السلطة.

أما عوامل الدفع فهي: ضعف الدخل العائلي، عدم الرضا عن الوضعية في الشغل، صعوبة الحصول عن شغل، فقدان الشغل، وصعوبة التوفيق بين الدور الاجتماعي والدور المهني.

وللعائلة دور شديد التأثير على ممارسة المرأة لدورها الاقتصادي ونعني بالعائلة الوالدين والإخوة والزوج والأولاد. فالأسرة تؤسس لروح المبادرة من خلال التربية ومكانة البنت، وتقدم المساعدة المادية والمعنوية لباعثة المشروع وتشجعها على ذلك، وهي تلعب بالأساس دور الوسيط الذي يحدد مدى استعداد المرأة لبعث مشروع اقتصادي (ما تنجزه من تكوين، وتعليم، وما تسمح به من حرية التنقل والحركة، وتكوين رأس مال اجتماعي بمعنى شبكة من العلاقات المساعدة على تسيير المشروع).

ومن حيث مواقف الأزواج تبين الدراسة مدى اختلاف مواقفهم التي تتأرجح من الايجابية إلى السلبية مرورا بالاستقالة. وهذه هي مواقفهم من صاحبة المشروع: مستقيل أو مشغول فقط بمكانته كرب الأسرة أو قابل فقط لمبادرة الزوجة باعتبارها مصدرا ثانويا للدخل، وإلا يكون الزوج مشجعا وشريكا في الاستثمار وفي أسوإ الحالات يكون ذلك الغريم الذي يعطل المشروع خاصة في بداياته. وهناك حالات أخرى ليس فيها للزوج وجود بسبب الهجرة أو العزوبة أو الترمل أو الطلاق.

الخلاصة:

التحديات التنموية وإضافات المرأة المرتقبة

إن مساهمة المرأة في الحياة العامة يعطي دفعا إضافيا لعجلة التنمية زيادة على أن هذه المساهمة أصبحت ضرورية في الوقت الراهن نظرا للتحولات التي يشهدها العالم اليوم وللدور الجديد للدولة في ظل العولمة ومتطلبات الاندماج في الاقتصاد المعولم والخاضع للمنافسة الشرسة.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن الاقتصاد الحديث يعتمد على المعرفة والتطور التكنولوجي وبالتالي على الموارد البشرية، ومن هذا المنطلق تبدو القدرة التنافسية لأي دولة خاضعة لقدرتها على استغلال مواردها البشرية ومن هنا تظهر خطورة عزوف المرأة ذات التكوين الرفيع عن القيام بدورها في الحياة العامة سواء عن طريق الشغل أومن خلال العمل الجمعياتي أو السياسي، وكذلك خطورة التمييز بين الجنسين سواء تعلق الأمر بالتشغيل أو الترقية المهنية أو توزيع مهام التسيير بالمؤسسات الإدارية أو السياسية أو الجمعياتية.

إن دور الدولة اليوم هو بصدد تغيير عميق لما تحتّمه الضغوطات المالية من خفض في نسبة التداين وتحقيق التوازنات الاقتصادية الكبرى. وهي التي تحد من قدرة الدولة على التدخل في عديد الميادين وبخاصة الاجتماعية منها كالصحة والثقافة والتعليم والاعتناء بالفقراء والمعوزين... كما أن الدور الذي يضطلع به القطاع الخاص في مجال الاستثمار وخلق مواطن الشغل قد ازدادت أهميته. وهكذا يبدو أن مفهوم الدولة يشهد نقلة نوعية من الدولة الآحادية التي تضطلع بكل شؤون المجتمع إلى الدولة الثنائية التي تتقاسم الأدوار مع القطاع الخاص التجاري ثم إلى الدولة الثلاثية التي يتقاسم فيها الأدوار ثلاثة أطراف: القطاع العام، والقطاع الخاص، وقطاع الجمعيات غير الحكومية.

كل هذه التحولات تفتح المجال واسعا أمام كل عناصر المجتمع ومن بينهم المرأة للمساهمة في جميع الأنشطة الحيوية للوطن والمبادرة والابتكار.

واليوم وقد تقدمت المرأة أشواطا عملاقة في جميع المجالات رغم بعض الرواسب الثقافية في مجتمع هو في طريق النمو، فإن طرح قضية النهوض بالمرأة يحتاج إلى اعتماد مبادئ إضافية تهم مسؤولية المرأة والإضافات المطلوب أن تقدمها للمجموعة الوطنية. وتحميل المرأة مسؤولية أكبر يتطلب أيضا إعادة النظر في بعض المسلمات التي تعيق مساهمتها الفعلية في الحياة العامة، من ذلك توقيت العمل والتمييز بين الجنسين الذي يطغى على ممارسات بعض الهياكل والمؤسسات دون مراقبة، وكذلك الفوارق بين الجهات من حيث القيم الاجتماعية التي توجه السلوك داخل الأسرة وفي المحيط الاجتماعي عامة.

إذا كان النهوض بالمرأة في بداياته يطرح قضية مكانة المرأة أي حقوقها المهضومة، فاليوم بعد أن حصل ما حصل من تقدم، فلا بد أن تطرح قضية دور المرأة، أي واجباتها، في المجالات الخارجة عن نطاق الأسرة والتي لها تأثير جسيم على عملية التنمية، ولا بد كذلك أن يشمل الحديث عن التمييز بين الجنسين، زيادة عما يمكن أن تقوم به الدولة من خلال التشريع، مقاومة مظاهر التمييز الاجتماعي والمؤسساتي ضد المرأة، تلك المظاهر الناتجة عن السلوك الفعلي لعناصر المجتمع سواء كانوا رجالا أو نساء.

وتبدو الشراكة بين الجنسين هي الكلمة المفتاح اليوم لأن ما تبقى على درب تحرير المرأة لم يعد انجازه من باب التشريع والقرارات السياسية وحدها وإنما لايكون إلا بتغيير في نمط السلوك الفردي، وفي نمط اشتغال المؤسسات الاجتماعية كالأسرة وكذلك المؤسسات التربوية والإدارية و الاقتصادية. وليس هذا من شأن المرأة وحدها، وإنما إذا كان الهدف هو بناء مجتمع يقترب من المساواة بين الجنسين فإنه لا يتحقق إلا بالشراكة بين كل أعضائه نساء ورجالا.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

- Bouzguenda Marrekchi K. (2001) Gender Leadership: A Perequisite or a Result of Getting Diverse : The Case of Women in Tunisia,*Global Management Conference: Comparative HRM Learning from Diversity*, Proceedings on CD-Rom, CRANET The Cranfield Network on European and Global HRM & ESADE Universitat Ramon Llull - Barcelona.

- Bradley F. & Boles K. (2003) : Ethnic Women in Business: Exploring Motivations and Barriers, Third European Summer University, *Entrepreneurship in Europe: Best practices and Regional Development*, June 26 July 3 Paris Dauphine.

- CREDIF (2001) *Les femmes entrepreneurs en Tunisie, Paroles et portraits*, étude réalisée par Pierre-Noël Denieuil.

- Claude Michel (1989) "Salaires et carrières des ingénieurs diplômés, un classement des grandes écoles" *Economie et Statistique* n° 221, mai pp.33-46.

- Hamza Salma (1992) " La formation des femmes ingénieurs " in *Création, Liberté, Femmes en Méditerranée* CREDIF / L'Or du Temps - Tunis

- Laufer Jacqueline & Fouquet Annie (1998), "Les femmes dans l'entreprise : le plafond de verre est toujours là", *Revue Française de Gestion*, juin-juillet-août pp. 143-144

- Mellakh Kamal (2004) " Femme, ingénieur et fonctionnaire au Maroc " in *L'ingénieur moderne au Maghreb (XIXe-XXe siècles)* sous la direction de Eric Gobe, Institut de Recherche sur le Maghreb contemporain et Maisonneuve & Larose pp. 315-327.

- Meurs Dominique & Ponthieux Sophie (2000) " Une mesure de la discrimination dans l'écart de salaire entre hommes et femmes" *Economie et Statistique* n° 337-338 7/8 pp. 135-158.

- Union Nationale de la Femme Tunisienne (1995) *L'image de la Femme dans la Société Tunisienne*, Tunis.

- Zghal R. (1993) La place et le rôle de la femme dans l'administration publique tunisienne, in *Le rôle des femmes dans les administrations africaines*, Publications du CAFRAD, Tanger.

التمأسس العلمي لحقول الدراسات حول المرأة وظهور مقاربات النوع الاجتماعي

عائشة التايب (*)

المقدمة

من فرط ما قد نقرأ ونسمع ونشاهد من أعمال وكتابات وبحوث ودراسات وبرامج حول المرأة يتبادر إلى أذهان البعض أن موضوع المرأة من المواضيع هينّة التناول والخوض، إلا أنه وبالغوص في عمق هذا الموضوع وثناياه يكتشف الباحث أن الظاهرة النسائيّة تظل من أعسر الظواهر تناولا بالدراسة، نظرا لما تتميّز به من تعقيد، فهي مبحث تتداخل فيه جملة من العوامل وتتقاطع ضمنه مجموعة من المستويات المتعلقة بجوانب التاريخ والاجتماع والسياسة والاقتصاد والدين، مما يجعلها تشكّل ظاهرة اجتماعية كليّة على حد اعتبار مارسال موس [Marcel Mauss]، تتقاطع فيها جملة تلك المستويات الآنفة الذكر بشكل يعسر معه مقاربتها من زاوية دون أخرى. وتبعا لذلك فإن مشكل الحياد العلمي يطرح نفسه بحدة في أغلب الدراسات المتناولة للمرأة إلى حدّ تعسر ضمنه عملية فصل الذات عن الموضوع، التي تمثّل قوام الموضوعية في أي بحث علمي.

وبغضّ النظر عن الجدل الذي أثارته وتثيره إشكاليات فصل الذات عن الموضوع في دراسة الظاهرة الاجتماعية في علم الاجتماع(1)، وعن المواقف المتباعدة من إشكاليّة الحياد واعتبارها ضرورة من قبل بعض علماء الاجتماع ونفي أهميتها من طرف آخرين، يمكن القول إن البحث في موضوع المرأة بحث قلّما ما يُوفّق خائضه في الفصل بين واقع ظاهرة يريد درسها وبين مواقفه الخاصة وآرائه الشخصية والإيديولوجية من تلك الظاهرة.

وبالتأمل في عدد من البحوث والدراسات المنجزة والمقالات المكتوبة حول المرأة، يكتشف المرء بيسر التحيّز وعدم الحياد، الواعي أو ربما غير الواعي، الذي يكتنف عددا منها، والذي غالبا ما ينتهي بالباحث في موضوع من المواضيع المتصلة بالمرأة للحكم لها أو عليها، وتقديم رؤية تصنّف البحث وصاحبه مع المرأة أو ضدّها، وكيفما كان الأمر فكثيرا ما تكون المبالغة والتحمّس طاغية على الموقفين إلى حدّ تضيع فيه حدود الموضوعيّة والتناول النزيه.

هكذا يظلّ موضوع المرأة، إن جاز استعمال اللفظ في صيغته المفردة، مبحثا مترامي الأطراف ممتدا لأكثر من حقل من حقول الواقع والمعرفة المبنية عليه، حتى أن المرء لا يكاد يقف على مبحث من مباحث العلوم الإنسانية والاجتماعية على وجه الخصوص إلاّ ويجد للمرأة حضورا فيه. إن هذا الامتداد المرتبط بتنوّع القضايا والمسائل المتعلقة بالمرأة سواء كجنس بشري في ذاته أو في جملة علاقاته بالجنس الآخر وبالمجتمع

---

* أستاذة علم الاجتماع بالمعهد العالي للعلوم الإنسانية بتونس.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

عموما، جعل منها موضوع بحث إشكالي اختلفت زوايا النظر إليه باختلاف الناظرين والمحللين والدارسين، وتعددت حوله الأطروحات بتعدد المدارس الفكرية وتنوع التيارات الإيديولوجية للمتناولين للموضوع، وهو ما ساهم في إنتاج لوحة فكرية فسيفسائيّة من المقاربات والرؤى والأفكار والمواقف حول المرأة ومجمل قضاياها.

وسنحاول من خلال هذه الورقة الوقوف على البعض من تلك الأطروحات والأفكار التي اجتهدت في مقاربة الظاهرة النسائيّة، والوقوف عند بعض المحطّات المركزية لمسار التطور التاريخي والفكري لدراسة موضوع المرأة، محاولين قبل ذلك قراءة بعض المواقف المجتمعيّة من المرأة انطلاقا من الحفر في بعض مدونات المأثور المجتمعي الشعبي باعتبارها وجها آخر من وجوه النظر للمرأة.

المجتمع والمرأة: المواقف والصور النمطيّة

يظل موضوع المرأة كما أسلفنا من المسائل الشائكة والمواضيع الفخ التي قلّما يتجرّد فيها قلم الباحث من جملة من الرؤى والمواقف الشخصيّة التي تطبع التناول للموضوع. وتعد مراعاة هذا الانشطار في المواقف الشخصية من المرأة بين مناصر و مناهض، سواء في مستوى عامة شرائح المجتمع أو في مستوى الباحثين والدارسين والكتاب حول المرأة، زاوية نظر أساسيّة جديرة بالاهتمام.

وقد مثلت المواقف الشخصيّة من المرأة عبر مختلف حقب التـاريخ ولا تزال محركّا رئيسياّ يفعل فعله في الباحث والمثقف والسياسي بشكل عام رجلا كان أو امرأة فتجعل منه إما داعما لقضايا المرأة أو معارضا لها، ولا ريب في أن المواقف الشخصيّة إزاء قضايا المرأة وتبنّي النضال من أجلها أو معارضتها، ساهمت إلى حدّ كبير في تبلور مسار التطور التاريخي للحقول الدراسية في هذا الاتجاه وظهور المرأة كموضوع بحث أساسي في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

1. الصور النمطيّة المتضاربة للمرأة ودلالتها الاجتماعية

إن محاولة الحفر في بعض ثنايا الذاكرة الجماعيةّ تعدّ زاوية نظر مختلفة يمكن من خلالها مقاربة بعض الجوانب المتصلة بالمرأة، وهي مقاربة للموضوع تبدو على قدر كبير من الأهميةّ، بما أنها غوص في ما تحمله هذه الذاكرة من تجسّدات وإفرازات تعبرّ من خلالها بشكل مختلف عن مواقف ورؤى وتصورات من المرأة قد تبدو لا قيمة لها في حين أنها على قدر كبير من الفعالية بما أنها شئنا أم أبينا تفعل فعلها فينا ونشُبُّ على سماع البعض منها، إلى حد تتحولّ فيه بعض تلك الأمثال والقصص نبراسا يهتدي به الفاعل الاجتماعي في بعض المواقف العسيرة التي يُلتمس ويُستجدى فيه النصح.

وتكمن الأهميةّ السوسيولوجيةّ للأمثال والأقوال الشعبيةّ وغيرها من المأثورات في أنها التعبير والإفراز التلقائي والعفوي الذي يعكس بكل وضوح ما ترشح به نفوس الأفراد وشخصيةّ المجتمع الأساسيةّ من مواقف تجاه المرأة، تجهر بها الذاكرة الجماعية مجتازة كل المعيقات والمكبلّات التي قد تحجب في سياقات أخرى مثل تلك التصورات والرؤى ومختلف أشكال التعبير فردية كانت أو جماعية.

ولن ندعّي عبر هذا الحيزّ الضيقّ مقاربة مختلف تلك الجوانب و ما ترشح به الذاكرة، ولكننّا سنحاول التطرقّ إلى بعض تلك العناصر بشكل عام بهدف الوقوف على بعض الصوّر النمطيةّ التي أفرزتها ذاكرة المجتمع حول المرأة، وارتباط تلك الصوّر باختلاف أدوار المرأة ومواقعها المجتمعيةّ، علنّا بذلك نصل إلى

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

إبراز طبيعة العلاقة بين المرأة ككائن وكجنس بشريّ والوقوف على مختلف الأدوار الاجتماعيّة المتنوعة التي تلعبها في المجتمع.

1-1 : الذاكرة الجماعية وصورة المرأة المشرقة:

إن الحفر في أعماق ما يترسّب في ذاكرتنا الجماعية من أمثال وأقوال ومأثورات حول المرأة يجعلنا نكتشف أن جانبا مهماً منها يرسم للمرأة صورة ناصعة البياض، حيث ينسج المجتمع في بعض خطابه الشفوي حول المرأة أبعادا وتجليات ايجابيّة ترشح بها تلك الصورة المشرقة ذات الأركان البارزة والإطار المذهّب ذي البريق الأخّاذ، فتظهر المرأة ضمن البعض من إفرازات المجتمع القوليّة مثالا للحب والوداعة والسكن والمودّة والرحمة، فهي الحبيبة الغالية ورفيق الدرب وسرّ النجاح وهي "نصف الدين" والأم الحنون والأخت الرحيمة والجدة الغالية والخالة الطيبة بل والملاك المخلّص الذي نستقوي به زمن الشدائد. ومما لا شك فيه أن هذه الصورة المجتمعيّة المشرقة للمرأة التي تجسدّها الكثير من أمثالنا العامية وأهازيجنا وحكاياتنا تتقاطع إلى حدّ كبير مع ملامح صورة ترسمها لها عديد الروايات والقصص والقصائد العربيّة المكتوبة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الصورة المشرقة للمرأة التي تنسجها بعض أركان مأثورنا الشعبي غالبا ما ترتبط بالمرأة في مواقع وأدوار اجتماعية معينة، فهي في أحيان عديدة، خاصة في مستوى الحكم والأمثال الشعبية، تُرسم في ارتباط مباشر بمكانة وبموقع ما تحتله المرأة في المجتمع، إذ أن الذاكرة الجماعية عندما تتحدّث عن المرأة في أبعادها الإيجابية غالبا ما تتجنّب التعميم متحدثة عن صنف معيّن من النّساء، ولعل مثال المرأة في دور الأم أبرز نموذج مجسّد لذلك، حيث لا نكاد نجد مثلا شعبياً واحدا من الأمثال الأكثر تداولا يشكّك في نُبل المرأة الأم أو يشوّه صورة المرأة المتقمّصة لهذا الدور البيولوجي والاجتماعي.

ويمكن الجزم بأن ذاكرة المجتمع لم تنسج صورة للمرأة أبدع وأجمل من صورتها في دور الأم، حتى أنها أضحت تحمل أكثر من رمز وأكثر من دلالة متجاوزة أبعاد وحدود الدور المعهود، لينسحب على كل ما يُراد وصفه بالعطاء والسخاء مثل الوطن والموطن والأرض والدولة والأمّة. ولا يمثّل نموذج دور الأم المثل الوحيد في العلاقة بين صفاء صورة المرأة في المأثور الشعبي وبين الدور الذي تلعبه في هذا الاتجاه، بل يتجسّد كذلك في بعض الأمثلة التي تظهر فيها المرأة بحكم دورها الاجتماعي في أبهى الصور، من ذلك صورة المرأة الطبيبة والمرأة الممرّضة والمرأة الحبيبة والمعشوقة، وتكرّم الذاكرة على المرأة في مثل هذه الأدوار بأجمل وأبهى الأوصاف.

1-2 ـ الذاكرة الجماعية والصورة المشوّشة

بالتوازي مع كل ما تنسجه ذاكرة المجتمع عبر إفرازاتها القولية من معاني إيجابية تجاه المرأة والبعض من أدوارها الاجتماعية، نجد في مقابل تلك الصورة المشرقة صورة أخرى تنسج في اتجاه مخالف للاتجاه الأول مشحونة بكل معاني السلبيّة والعداء للمرأة.

والأمثلة على ذلك عديدة سواء في الروايات والقصص والحكايات الشعبية أو في مستوى الأمثال والحكم، حيث يتم تصوير المرأة وإخراجها في شكل أفعى وعقرب وذئب وما إلى ذلك من صور التشبيه بالحيوانات السامة والمعروفة بدهائها وحيلها أو ببعض النباتات البريّة الموصوفة بالشدّة والغلظة.

ومن الملفت للانتباه أنه على عكس نزعة التخصيص المتجسدة في بعض أركان مدونات المأثور الشعبي، خاصة في المحمول الرمزي ذي الأبعاد الايجابية لصورة المرأة في بعض الأدوار الاجتماعية كدور الأم على سبيل المثال، تتميز صورة المرأة المشوّشة في هذا المأثور بنزعة تعميم غالبا ما تنطق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عن المرأة وكأنها كلّ لا يتجزأ، إذ تميل بعض الأمثال إلى الحديث عنها في المطلق دون ربطها في الغالب بدور اجتماعي معين كدور الأم أو الأخت مثلا. وقد يبقى الاستثناء الأساسي في نزعة التعميم التي يتخذها المأثور في تشكيله للصورة السلبية للمرأة متميّزا ببعض التخصيص وذلك عند تجسيد الخيانة وعدم الوفاء وربطه بالمرأة الحبيبة أو الخليلة الخائنة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن المقارنة بين وجهتي مدونات المأثور الشعبي نحو المرأة أي الوجهة ذات الشحنات الايجابية والوجهة ذات الأبعاد السلبيّة قد لا تستقيم، فيما نعلم، بحكم اتساع وامتداد ما رشحت وترشح به الذاكرة الجماعية من قصص وروايات وأغان وأمثال. وبالرغم من أن الحكم أو تقدير نسبة كل وجهة بالنسبة للأخرى قد يعدّ اعتباطياً فإنه بالإمكان القول انطلاقا مما يتواتر سماعه وترديده في بعض الأوساط وضمن بعض الشرائح الاجتماعية، أن نزعة المأثور نحو تجسيد الأبعاد السلبيّة للمرأة تبدو النزعة الأكثر بروزا ووضوحا، كما يبدو واضحا أن هذه النزعة تتكرّس من يوم لآخر بحكم عوامل عديدة قد تعود أساسا لنمط الحياة المعاصرة الذي فرض فرصا أكثر لتواجد المرأة في فضاءات عديدة كان ولوجها محجّرا عليها في السابق، فضلا عن اعتلائها مراتب ومناصب ومواقع ربما كان من المفترض في رأي البعض أن لا تتواجد فيها، وهو ما نمّى من نزعة المعاداة والحقد لدى البعض على المرأة والتهكّم منها أحيانا بشكل أو بآخر كما يتجلى ذلك في أغلب ما يستجد من نُكت ونوادر وقصص وأغان شعبية.

إن هذه المحاولة العابرة لاستنطاق بعض ما ترشح به ذاكرة المجتمع من مدلولات رمزية عبر الصور التي تنتجها حول المرأة انطلاقا من بعض أشكال المأثور الشعبي وإفرازاته القوليّة الأكثر تداولا في المجتمع، أفضت إلى إبراز صورتين نمطيتين تجسّد كل واحدة منهما موقفا مجتمعياً من المرأة، أحدهما سلبي تمثّله تلك الأمثال والحكم والقصص المحقرّة للمرأة ولشأنها في المجتمع، والمبرزة لخطاياها ولسوء نواياها، في حين يُعلي الاتجاه الثاني من قيمة المرأة ومن شأنها وأهميّتها. وقد تم التأكيد على تلك النزعة التعميميّة التي تتبناها الذاكرة الجماعية وبعض إفرازاتها الشعبية عند محاولات إبرازها للأبعاد السلبية في المرأة، فتأتي الصور- خاصة في مستوى الأمثال - مجسّدة بشكل مطلق يتناول المرأة والنساء بشكل معمّم، في حين تنزع نفس هذه الذاكرة إلى التخصيص عند الحديث عن الأبعاد الايجابيّة للمرأة، حيث تصرّ في السياق الايجابي على التخلّص من شوائب التعميم والحديث المطلق فترُبط المرأة ضمن تلك الصورة المشرقة بأدوار اجتماعيّة معينة تلعبها في المجتمع كما هي الحال في مثال دور الأم.

إن المقابلة بين هذين الوجهتين والموقفين المتناقضين من المرأة في خضم ذاكرة المجتمع، وربطهما بنزعتي التخصيص والتعميم قد يحيلنا إلى أمر قد يبدو غريبا ونأمل أن لا يكون حكما على هذه الذاكرة التي تراءت لنا، وكأن لسان حالها، عبر مقابلة الايجابي بالتخصيص والسلبي بالتعميم، يطمح للقول بان السلبي في المرأة هو القاعدة والأساس والايجابي فيها هو الاستثناء!!.

وهو ما يحيلنا من الحديث عن الذاكرة وتقابل موقفيها من المرأة إلى التأكيد على ذلك التمركز المزدوج لمختلف المواقف من المرأة في ذوات مختلف أفراد المجتمع ذكورا كانوا أو إناثا، فيصبح بذلك الفصل بين موقفين مجتمعيين من المرأة أحدهما مناصر لها وآخر معاد، فصلا منهجيا لا يمكن أن يتجسّد على أرض الواقع إلاّ بشكل نسبي، ورغم التناقض التام الذي قد يبدو بين الموقفين فإن تموضعهما معا وتلازمهما في ذواتنا يظلّ هو الأساس. فمن منّا، ذكرا كان أم أنثى، لم يثُر يوما ساخطا على

امرأة ما في موضع ما، بدت له امرأة غير مناسبة في المكان الذي تتبوأه، ومن منّا في لحظة غضب عنيفة لم يلعن امرأة عكّرت مزاجه في فضاء ما، خاصاً كان أو عاماً. وبنفس حجم ذلك الانفعال أو ربّما بوتيرة أقوى، من منّا لم يعشق يوما امرأة ممجدا خصالها صديقة كانت أو زميلة أو حبيبة أو زوجة أو أمّاً. ومن منا لم يجد نفسه يوما بين هذا وذاك ساخطا ومحبّاً، ثائرا ومستجيبا يلعن ويمجدّ المرأة في مختلف صورها وتجسّداتها الاجتماعية.

ان تلازم تلك المواقف المتنافرة وتموضعها في ذواتنا في نفس الحين، قد يبدو مثيرا للاستغراب وقد يتراءى ويفسّر على أنه تناقض أو ازدواجيّة تجاه المرأة، ولكنه على العكس من ذلك محصلّة ما يُنحت عبر ثقافة المجتمع وقيمه ليخلق نوعا من السلوك والمشاعر تجاه المرأة الإنسان التي هي عصارة مزيج من الخير والشرّ والحبّ والكره وخلاصة جملة من الانفعالات والسلوكات والمشاعر المتولدة عن جملة من القيم المستبطنة التي قد تروق للبعض في حين يستهجنها البعض الآخر.

التطور التاريخي للدراسات حول المرأة:

1- تأخر التساؤل العلمي حول المرأة

لقد بقيت محاولات الكتابة في المواضيع المتصلة بالمرأة محاولات محتشمة ونادرة إلى وقت غير بعيد، وبالرغم من أن أولى تلك المحاولات ظهرت في تواريخ متقدمة نسبياً إذ تعود بعض الكتابات المناصرة لقضايا المرأة والمنادية بالمساواة بين الجنسين في أوروبا إلى مطلع القرن الخامس عشر للميلاد (2) فإن عملية التفكير والبحث العلمي في قضايا المرأة وفي علاقتها بالرجل ظلت معطلّة بحكم عدم طرحهما كموضوع إشكالي إلى فترة متأخرة من تاريخ العلوم مما تسبب في شبه غياب لمبحث المرأة عن دوائر الجدل العلمي والنقاش المجتمعي بشكل عام.

وبالرغم من الاهتمام المبكر للعلوم الإنسانية والاجتماعية وعلم الاجتماع تحديدا بقضايا اجتماعية حسّاسة متّصلة بشرائح اجتماعية معينة مثل الطبقات العمالية وشرائح المهمشّين والمقصيين في المجتمعات الحديثة والمعاصرة، فقد ظل الخوض في قضايا المرأة والظاهرة النسائية بشكل أعم موضوعا لم تجرؤ العلوم الإنسانية على خوضه إلاّ مؤخرا. وتبعا لذلك فقد اتسمت الظاهرة النسائية بنوع من التهميش العلمي والبحثي في جل فروع العلوم الإنسانية والاجتماعية أمام تكثّف الاهتمام بظواهر وإشكاليات مجتمعية أخرى.

ويُعدّ بروز أولى التحركات النسويّة مع بدايات الحداثة الأوروبيّة المحرك التاريخي الأساسي والمثير الأبرز الذي حولّ الأنظار تجاه قضايا النساء، وسوف يكون لتلك التحركّات التي تطورت تدريجياً وتوسّع مداها على نطاق عالمي الفضل في شدّ انتباه السّاسة والمفكّرين والباحثين وإعلاء صوت المرأة كصوت اعتبر إلى حد تلك المرحلة صوتا ملجمّا ومكتوما.

2- ظهور الحركات النسويّة الغربيّة وتصاعد أصوات النساء

بدأت بعض الأصوات النسائية الأوروبيّة المنادية بالمساواة مع الرجل في البروز والتعالي منذ أوائل عصر الثورة الصناعية، وقد مثلّت تلك الأصوات بدايات مساعي لفت الأنظار صوب ما كانت تتعرض له المرأة في المجتمعات الغربيّة آنذاك من ضيم وجور، إلا أن مختلف تلك النداءات والمساعي لم تتحول إلى حركة اجتماعية احتجاجيّة ولم تتخذ شكل التعبير المنظّم الاّ مع القرن التاسع عشر، حيث برزت أولى الحركات النسويّة المهيكلة حول مبادئ تحرير المرأة والمطالبة بمنحها جميع حقوقها المدنيّة والاجتماعيّة، وسوف تشهد هذه الحركات مستوى أعلى من التنظيم خلال القرن العشرين، والذي سوف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يمثّل مهد احتجاجات نسوية ذات أشكال من التعبير أكثر حدّة ومطالبة أشد ضراوة وراديكالية.

ويمكن القول إنّ حصر ولادة المطالبات النسائيّة المنظمة يعود إلى الفرنسيّة هبرتين اكلارك [Auclert Hubertine] التي قامت سنة 1881 بإحياء مصطلح النسويّة(3) (Feminisme) ومنحته معاني المطالبة بحقوق النساء والاستماتة من أجل الدفاع عن ذلك، كما كانت من أوائل الذين تمكّنوا من تعبئة النساء وإخراج أولى الأفواج النسائيّة الغاضبة والمحتجة على أوضاعها إلى شوارع باريس للمطالبة بحقها، تماما كالرجال، في الانتخاب وولوج صفوف الجيش والحرس الوطني. وهو ما خولّ للحركات النسويّة الفرنسيّة تدريجياً من الظهور والنموّ من خلال تزايد عدد المناضلات في صفوفها، بفضل ما عرفته من مساندة ودعم من قبل بعض الرّجال وخاصة من لدن بعض الفلاسفة والمفكرين الذين أيّدوا تلك الحركات بالرغم من كثرة المعارضين لها، والذين اعتبروا في تعالي أصوات النساء وفي مطالبهن الاحتجاجية نوعا من الثورة على طبيعة الحياة ومسارها الاعتيادي.

ومع مطلع القرن العشرين انبثق عن تطور تلك الحركة النسويّة ظهور توجهين أساسيّين اختلفت مقارباتهما النضالية لفائدة المرأة وتباعدت بينهما أشكال الاحتجاج والتعبير وفحوى المطالبات. وقد انسحبت سمة المطالبة النسويّة البورجوازيّة ذات المنحى الإصلاحي على التوجه الأول، في حين اعتبر التوجه الثاني ذا نزعة اشتراكيّة وذا صبغة أكثر أصوليّة وثوريّة.

1-2 - الحركة النسويّة والتوجهات الإصلاحية

اعتبرت الحركة النسوية الناشئة في المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر من أهم الحركات الاجتماعية التي أنتجتها الحداثة الأوروبيّة عبر مختلف ما حملته من تحولات جذرية وهيكليّة في صلب المجتمعات الأوروبية، بما أن تعالي أصوات تلك الحركة مثّل ردة فعل نسائية وتعبير معلن عن رغبتهن في الحضور الفاعل في صلب مجتمع الحداثة الجديد.

وقد انطلقت الموجة الأولى من حركة النساء الاحتجاجية في فرنسا من التأكيد على مفارقة غياب حقوق النساء في بلد أشهر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ولقد توفقّت الحركة في حسن توظيف هذه المفارقة في مطالبها، حيث سيطر على أغلب نشاطها التأكيد على قصور مسارات الحداثة الفرنسيّة التي تبنت مبادئ الثورة وارتكزت على أسس فلسفة الأنوار وشهدت إعلان المواثيق الدولية لحقوق الإنسان في الوقت الذي تُحرم فيه المرأة الفرنسيّة من أبسط حقوقها السياسية والمدنيّة.

ومما لا شك فيه أن الطابع السياسي كان المسيطر الأبرز على جلّ المطالبات النسويّة خلال هذه الحقبة، وقد عملت أغلب التظاهرات وأشكال التعبير الاحتجاجي خلال النصف الأول من القرن العشرين على التركيز على جملة من المطالب السياسية كالمناداة بحق النساء في الانتخاب وإبداء رأيهن في عمليات تسيير هياكل الدولة والمجتمع، فضلا عن المطالبة ببعض الحقوق المدنية والاقتصادية للمرأة والعمل على إخراجها من بوتقة القصور القانوني التي يضعها فيه القانون الفرنسي تحت تصرّف الزوج والأب. كما ذهبت بعض الأصوات النسائيّة للمطالبة بحق المرأة في التعليم والطلاق والتصرّف في الممتلكات الشخصية إلى جانب المناداة بتحسين أوضاع المرأة العاملة، والعمل على مزيد إدماجها في الفضاء العام وتعزيز مشاركتها في المجتمع.

اعتبرت هذه الموجة الأولى من الاحتجاجات النسائيّة بمثابة موجة إصلاحية توفيقيّة بما أنها لم تشكّل ثورة عارمة في وجه أوضاع المرأة ومواقعها في المجتمع، ولم تقطع مع مكانتها ومختلف أدوارها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المجتمعيّة، حيث ظلت جلّ المطالبات الاحتجاجيّة خلال هذه المرحلة من تطوّر الحركة النسائيّة مطالبات لم تعلن إلغاء أدوار المرأة الاجتماعية والأسريّة، كما أنها لم تعمل على إفراغ فحوى المطالبة بتحرير المرأة من محتواها المجتمعي والإنساني، بما أنها وطّنت كل ما تمّت المناداة به ضمن وضعيّة أمومة المرأة وموقعها العائلي كزوجة وربّة بيت.

وتبقى الشواهد التاريخيّة الداّعمة للتوجّه المجتمعي لهذه الحركة والمكرّس للأدوار الأسريّة للمرأة عديدة كعملها على تحويل يوم 8 مارس، المعُلن منذ 1911 كيوم عالمي للمرأة إلى يوم سميّ سنة 1951 بـ "اليوم العالمي للمقاومة من أجل السلم وسعادة الأطفال" (4)، ويبرهن ذلك على الأهميّة المعطاة من قبل هذا الجيل من الحركة النسويّة لحياة المرأة الأسريّة ودورها كأمّ وكربّة بيت، وهو ما سوف يفتقد من قائمة مطالب الجيل الثاني لهذه الحركة والتي سوف تشكّل توجّها مختلفا عن سابقتها منذ بدايات النصف الثاني من القرن العشرين.

2-2. الحركة النسويّة والنزعة الأصوليّة

مثّل النصف الثاني من القرن العشرين مرحلة تاريخيّة ذات خصوصيّة اقتصادية واجتماعيّة وسياسيّة، حيث غلبت على هذه المرحلة تحولات مجتمعيّة كبرى مسّت دولا عديدة في العالم، وقد عرُفت هذه المرحلة بروز ونموّ أصوات حركات احتجاجية مختلفة كحركات التحرّر الوطني ومناهضة الاستعمار الأوروبي وتنامي التيارات الاشتراكية وتصاعد أشكال النضال العمّالي والطلابي وارتفاع الأصوات النقابيّة.

وضمن هذا السيّاق السوسيوتاريخي ترعرعت حركة النساء الاحتجاجيّة لتعرف تناميا عدديا غير مسبوق مع مطلع السبعينات. وتلج بذلك حقبة جديدة من تاريخها سوف تتكاثف ضمنها ولادة الحركات النسائية في جميع أنحاء أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وسائر دول العالم رافعة شعارا مستجداً ميّز هذه المرحلة وهو شعار "تحرير المرأة".

وقد كان لحركة الاحتجاجات الطلابيّة في فرنسا خلال سنة 1968 والتيارات الماركسيّة ومدارس التحليل النفسي وكتابات الأديبة الفرنسيّة سيمون دي بوفوار (Simone de Bouvoir) (1908-1986) الأثر البارز في إذكاء جذوة تلك الحركة الاحتجاجيّة وإبراز روافدها إلى حدّ أضحت فيه بمثابة ثقافة مضادة (5) تهيكلت حول أجواء التمرّد التي أنتجها النصف الثاني من القرن العشرين. وهو ما كان له بالغ الأثر على هذه المرحلة من النضال النسوي التي سوف تتخذ وجها مختلفا اصطبغت ضمنه التحرّكات النسائيّة بجرأة غير مسبوقة، وانبثقت عنها جملة من المطالب ذات صبغة جنسانيّة قطعت جذرياً مع مطالب المرحلة الأولى من الاحتجاجات النسويّة.

ومن زاوية نظر مختلفة لقضايا المرأة، وخارج أطر الأمومة ومكانة المرأة الاجتماعية كأمّ وزوجة، نادى الجيل الثاني من الحركات النسويّة بحقّة في التحكم في الخصوبة، وحقّه في الإجهاض رافضا كلّ الاعتبارات التي من شأنها تكريس النظرة الدونيّة للمرأة. وقد تمّت المطالبة بحريّة المرأة الجنسيّة، وحقّ تمتّعها اللامشروط بشهواتها، كما تمّ إشهار تحدي المرأة للجنس الآخر وإعلان الرفض والاحتجاج على بطرياركيّة الرجل وهيمنته الذكوريّة من خلال المناداة بحرية تعاطي المرأة مع جسدها.

وسوف تكتسب مطالب وشعارات الجيل الثاني من الحركات النسويّة صبغة فكريّة ونوعا من المشروعيّة عبر نشر بعض الأعمال الفكريّة والأدبيّة في فرنسا والولايات المتحدة الأمريكيّة، وسوف يمثّل البعض منها مراجع رئيسية ونبراسا فكرياً للحركات النسويّة الأصوليّة في النصف الثاني من القرن العشرين.

ويعتبر كتاب "الجنس الثاني" للأديبة الفرنسية

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

سيمون دي بوفوار Simone de Bouvoir، المنشور بفرنسا سنة 1949 وفي الولايات المتحدة الأمريكيّة سنة 1953 أحد أهم تلك المراجع التي شكلت محركًا تاريخيا وفكريا ساهم في تأسيس أصوليّة الحركة النسويّة خلال تلك المرحلة، كما ساهم كذلك في تدشين مراحل التفكير وإعادة النظر في طبائع العلاقة بين الجنسين.

وقد اجتهدت سيمون دي بوفوار ضمن كتاب "الجنس الثاني" في تحليل الأوجه السوسيولوجية والنفسية والاقتصادية لإشكالية التميز بين الجنسين كما عملت ضمنه الى بيان انعدام وجود قدر بيولوجي أو نفسي أو اقتصادي محتوم يرسم الصورة التي تتبناها المجتمعات البشريّة للأنثى، محاولة بذلك نفي وجود طبيعة أنثويّة ما قبليّة تسوّغ التفرقة بين الجنسين. وكان هدفها في مقابل ذلك السعي لإبراز الدور الذي تلعبه الثقافات والحضارات في صنع وتشكيل ذلك المنتوج الوسيط بين الذكر والجنس الآخر الذي يسمى أنثى، وقد حوصلت دي بوفوار جملة أفكارها في عبارتها الشهيرة " لا نولد نساء ولكننا نصبح كذلك " والتي أضحت فيما بعد شعار الحركات النسويّة لتلك الحقبة التاريخيّة.

وعموما يمكن القول إن رؤية دي بوفوار حول إشكالية التمييز الجنسي، كان لها عميق الأثر في تأجيج الساحة الفكريّة والسياسيّة وإثارة جدل واسع النطاق اشتعل لهيبه في أوساط وبلدان عديدة من العالم، وتراوحت ردود الأفعال حوله بين القبول والمناصرة والرفض والتصدي. وفي الوقت الذي أحدثت أفكار "الجنس الثاني" نشوة عارمة لدى ناشطات الحركة النسوية العالمية، ولاسيما النخبة النسائيّة المثقفة في أوروبا وفي الجامعات الأمريكيّة، حيث بيع من الكتاب مليون نسخة في الولايات المتحدة الأمريكية و22000 نسخة في فرنسا منذ الأسبوع الأول (6)، أفقد مثّل الكتاب فضيحة في نظر الكثير من الفرنسيين خاصة من قبل بعض رجالات السياسة الذين عارضوا بشدّة نشر الكتاب وحاولوا جاهدين تعطيل عمليات بيعه وتسويقه.

لقد شكلّت أفكار سيمون دي بوفوار رافدا مركزياً للتوجه الراديكالي للحركات النسويّة التي ستنشط بشكل بارز خلال عقد السبعينات، حيث ستشهد هذه الحقبة كبرى التحركات النسائيّة الحاشدة المتّسمة بموجة عنيفة من التصعيد اعتبر من قبل الكثيرين ثورة عارمة ضد الأنوثة والأمومة، بما أنه بلغ حد إحراق المتظاهرات الأوروبيات لكل رموز الأنوثة من ملابس وغيرها (7) كإشهار لرفضهن لكل ما يكرّس أمومة المرأة وارتباطها بحياتها الأسريّة.

وخلاصة القول، أنّه وبغضّ النظر عمّا أثارته توجهات الحركات النسويّة ومختلف أشكالها النضاليّة لفائدة المرأة من مواقف وردود أفعال سواء على المستوى السياسي أو الديني أو الفكري، فان أصوات هذه الحركات يعود لها الفضل في شدّ أنظار الباحثين والساسة والمفكرين صوب قضايا المرأة ومختلف المواضيع المتصلة بها، وقد مكّن تعالي صوت احتجاجات النساء في أماكن مختلفة من العالم من سريان نوع من الاعتراف المؤسساتي بهنّ، واكتساب مسائل المرأة حيزًا من الشرعيّة الفكريّة (8) التي مهّدت للتطارح العلمي لموضوع المرأة وما اتّصل به من مباحث متعلّقة بمكانتها ومواقعها وأدوارها المجتمعيّة، وهو ما سوف يُفضي لاحقا للمأسسة العلميّة الفعليّة وظهور الدراسات الأكاديميّة حول المرأة.

ومن المهمّ الإشارة إلى أنّه على إثر موجات التصعيد العنيف الذي أثارته الحركات النسويّة الأصوليّة خلال سبعينات القرن العشرين، سوف تشهد الحركة تجديدا لأطروحاتها ومقارباتها على إثر ذلك، لتبنّي قضايا أكثر نضجا مثل: المرأة والفقر، التحرش الجنسي ،العنف ضد المرأة، وغير ذلك من قضايا النساء تحديدا في المجتمعات النامية. كما سوف تُشدّ

أنظار جهات رسميّة عديدة منذ الثمانينات لمثل تلك القضايا، ليتمّ تبنّيها من قبل اغلب الهيئات والمؤسسات العالميّة وخاصة من لدن منظمة الأمم المتحدة التي ساهمت بقدر كبير في تعزيز توجّه عالمي يشجّع على مزيد تشريك المرأة والاهتمام بمختلف قضاياها والتركيز على أهمية موقعها في البرامج والمخططات التنمويّة.

3 ـ البروز الأكاديمي لدراسات المرأة والنوع الاجتماعي:

3-1 ـ بدايات الظهور العلمي لدراسات المرأة

انطلقت أولى محاولات التأسيس العلمي للدراسات حول المرأة منذ مطلع السبعينات من القرن العشرين أي تقريبا بالتوازي مع موجة التحركات والاحتجاجات النسويّة المطالبة بالاعتراف بحقوق المرأة وقضاياها، والتي كما سبقت الإشارة إليه، كانت إحدى أهمّ محرّكات الدفع باتجاه الاهتمام العلمي بالمرأة. ويمثّل ظهور "الدراسات النسويّة" أول خطوة في مسار اقتحام موضوع المرأة لساحات العلم، حيث اعتبرت هذه التسمية، التي سوف تتغير فيما بعد، انعكاسا مباشرا لأثر الحركات النسويّة التي عملت على إثارة موجة نقد لاذع اتهم فيها العلم في الغرب بالذكوريّة وأحاديّة التمركز الجنسي حول الرجال، كما اعتبر غياب موضوع المرأة عن ساحة العلوم الإنسانية من قبل البعض ترجمة واضحة لعلاقات الهيمنة والخضوع التي تميّز العلاقة بين الجنسين.

وفي هذا الإطار يمكن اعتبار مسار التأسيس العلمي للدراسات حول المرأة إنجازا ساهم فيه بقدر كبير تعالي أصوات النساء حيث مثّل ذلك المسار حسب البعض "نتائج نظريّة لغضب الفئات المحرومة" كما اعتبر بروز المرأة كموضوع للبحث وكحقل للمعرفة نتيجة أملاها تحولّها إلى فاعل مؤثّر في حركة التاريخ (9). وهو ما كان له الأثر الفعال في ارتفاع نسق ولوج النساء لمختلف تخصصات العلوم الإنسانية بالجامعات، ومطالبة البعض منهنّ بضرورة ابتكار حقول معرفيّة وأجهزة مفاهيميّة علمية جديدة ومناهج بحث وأدوات تحليل مجرّدة من التحيّز للذكور على حساب النساء (10).

ومن المفيد الإشارة إلى أسبقيّة الولايات المتحدة الأمريكيّة وكندا في تركيز ذلك التوجه والتأخّر النسبي في مستوى الدول الأوروبيّة وفرنسا تحديدا وبقيّة الدول الأخرى. وقد شهدت الولايات المتحدة الأمريكيّة أولى محاولات التركيز العلمي للدراسات حول المرأة عبر مسار إنشاء أقسام دراسات المرأة [Women's Studies] في الجامعات الأمريكية مع بداية عقد السبعينات، والتي حاولت فرض نفسها كأقسام علميّة أكاديميّة متخصصة من خلال بعث مراكز بحث خاصة ونشر دوريات جامعيّة متعلقة بشكل أساسي بقضايا ودراسات المرأة، والتي تمّ تطويرها فيما بعد لتصبح أقسام دراسات المرأة والنوع الاجتماعي [Gender Studies].

أمّا في فرنسا، وبالرغم من أهميّة وحجم التحركات النسويّة بها، فإن مسار التمأسس العلمي والأكاديمي للدراسات حول المرأة ظل متعثّرا وبطيئا، ولم يواكب أجيج أصوات نسائها المتظاهرات، إذ ظلت المبادرات العمليّة لإنشاء وإقحام دراسات المرأة والنوع الاجتماعي في الحقول العلميّة محدودة إلى عهد قريب، ولم تتبلور دراسات النوع الاجتماعي خاصة كحقل علمي قائم الذات إلاّ مع نهاية التسعينات.

ولا شك أن لذلك عوامل عديدة ربّما يبقى من أهمّها تأثير احتجاج النسويّة الأصوليّة التي أثارت تحركاتها العنيفة ومطالبها الجنسانيّة حفيظة بعض الأوساط الفاعلة في الساحة الفرنسيّة، فعملت على تعطيل مشاريع مختلفة ارتبطت بقضايا المرأة سواء في المستوى التشريعي والسياسي بشكل عام أو في

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

المستوى الجامعي والأكاديمي. ويمكن اعتبار مجمل المعارضات التي عرفها مفهوم النوع الاجتماعي ومحاولات تركيزه في المجال العلمي والبحثي جزءا من ذلك، حيث لاقت أغلب محاولات إقحام هذا المفهوم في الجامعات الفرنسيّة مقاومة وتصديّا شديدين بشكل شكّك إلى حد كبير في مصداقية المفهوم العلميّة، معتبرة إياه مجرد رجع صدى لأصوات الحركة النسويّة (11) أكثر من اعتباره نضجا فكريا في التعامل مع قضايا المرأة، وقد تمّ ذلك خاصة ضمن بعض فروع العلوم الإنسانية كالتاريخ.

وجدير بالذكر أنه و بالرغم من الظهور المتأخر نسبيّاً للدراسات حول المرأة والنوع الاجتماعي بفرنسا وأوروبا بشكل عام على خلاف الولايات المتحدة الأمريكيّة وكندا، فإن ذلك التوجه قد تدعّم بشكل تدريجي منذ التسعينات خاصة مع تعزّز مسار اقتحام الفتيات للجامعة ولمختلف أقسام العلوم الإنسانية تحديداً، وبلوغهن مراحلها العليا وتبوئهن مواقع مركزيّة في مستوى البحث والتدريس الجامعي، وهو ما سيكون له عميق الأثر في تكثّف الدراسات العلميّة حول المرأة لاسيما ذات الصبغة التاريخيّة.

ومن المعلوم أن أغلب تلك الدراسات سعت إلى الاهتمام أكثر بالتأريخ للحركة النسويّة (12) وتناول أوضاع المرأة عبر التاريخ، أكثر من اهتمامها بقضايا المراة الراهنة، وهو ما تمّ التوجه إليه عند توسّع مدى الدراسات والبحوث المتعلّقة بالمرأة نحو مختلف حقول العلوم الإنسانية والاجتماعيّة لاسيما علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، حيث تطورت ضمنهما جملة من التساؤلات المختلفة حول قضايا النساء ومسائل التمدرس والشغل والصحة وغيرها من المواضيع التي توازى تطارحها مع تطور وانبثاق حقول معرفية جديدة مثل علم اجتماع الأسرة وأنثروبولوجيا الأسرة، ودراسات علم اجتماع الشغل والمؤسسات.

وقد نبّه أنصار مقاربات النوع الاجتماعي إلى ما شهده علم اجتماع الشغل في فرنسا من تغييب للمرأة في مختلف مدارسه ونظرياته وعبر أبرز أعماله ودراساته، إذ بالرغم من الكثافة العدديّة للمرأة العاملة في المصانع المدروسة من قبل روّاد علم اجتماع الشغل في منتصف الخمسينات فإن الاشارة للمرأة العاملة ظلّت غائبة في أغلب تلك الدراسات. وقد احتجت بعض الباحثات على مسار إهمال الإشارة إلى المرأة في قطاع العمل ضمن أهمّ دراسات علم اجتماع الشغل في الخمسينات والستينات كدراسات جورج فريدمان ودراسات ميشال كروزيي لمصانع التبغ في 1960، والتي كان حجم اليد العاملة النسائيّة بها على درجة كبيرة من الأهمية بالرغم من أن النسبة العامة لليد العاملة النسائية في تلك الفترة كانت تعتبر محدودة نسبياً حيث لم تتجاوز في تلك الفترة 32 ٪ من مجمل اليد العاملة النشيطة بفرنسا (13).

وعموما يمكن القول إن حقول دراسات المرأة والنوع الاجتماعي على اختلاف تسمياتها تكاد تنتشر اليوم في أغلب جامعات العالم من آسيا إلى أستراليا ونيوزلاندا وفي بعض الجامعات العربيّة والإفريقية. ويشار إلى أن بعض الدول الافريقية عرفت دعوات مبكّرة بعض الشيء، مقارنة ببعض الدول النامية الأخرى، لإرساء حقول دراسة جامعية حول المرأة،وكان ذلك منذ الثمانينات (14) ولكن تلك المناداة كانت مدفوعة أساسا باهتمامات تنمويّة للمرأة الإفريقية،أكثر من ارتباطها بدوافع علميّة أو فكريّة، وقد تمّ ضمن بعض الدول المطالبة بإعلاء خصوصيّة الدراسات النسائيّة الإفريقية المنجزة من قبل باحثي وباحثات القارة الإفريقية وليس من قبل من هم من خارجها.

3-2- ظهور مفهوم النوع الاجتماعي

إن الاهتمام العلمي بمفهوم النوع الاجتماعي كمفهوم إجرائي وكأداة لتحليل الواقع الاجتماعي لم

يتبلور بشكل بارز إلاّ مع العقدين الأخيرين من الألفيّة الثانية، وقد تأخّر الاهتمام بالعلاقات الاجتماعية بين الجنسين على خلاف الدراسات المتعلقة بالمرأة.

ويمكن القول بأن مقاربات النوع الاجتماعي تمكنّت من فرض نفسها مؤخرا كحقل علمي وبحثي قائم الذات إلى جانب حقل الدراسات حول المرأة. وبالرغم من صعوبة التمييز الموضوعي والمنهجي بين الاختصاصين وبالتحديد في علاقتهما بالمرأة، يذهب البعض إلى اعتبار مقاربات النوع الاجتماعي إفرازا منطقيا لتطور الدراسات حول المرأة، بما أن كلاهما يُعتبر وليد الحركات النسويّة الأمريكيّة التي سعت في مرحلة متقدمة من تطورها إلى إنتاج مفهوم النوع لإبراز البعد الاجتماعي المحض للتمييز بين الرجال والنساء.

وعلى عكس هذا القول يذهب البعض الآخر إلى اعتبار ظهور مفهوم النوع الاجتماعي قطعا مع مجمل توجهات الحركات النسويّة التي تختزل نظرتها أحاديّة الجانب الواقع الاجتماعي في جنس معين وهو النساء لتلغي بذلك أيّ حضور للجنس الآخر، وتنفي عبر ذلك أهميّة فعل الروابط الاجتماعية الجامعة بين الرجال والنساء الذي هو جوهر اهتمام مقاربات النوع الاجتماعي.

إن عمليّة البحث في جينيولوجيا مفهوم النوع الاجتماعي قد تحيلنا إلى جذعين مركزيين له ينغرسان بعمق في أبرز نتائج الأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيا الثقافويّة لاسيما مدرسة الثقافة والشخصيّة المنحدرة منها وبعض دراسات علماء النفس الأمريكان.

و تتحوصل مجمل أفكار مدرسة الثقافة والشخصيّة في محاولة فهم مدى تأثير ثقافة ما على شخصية عناصرها وأفرادها، وتأكيدها على تنوع الثقافات وعلى خصوصية كل واحدة منها. وقد أولت هذه المدرسة أهمية مركزيّة لدور الطفولة والتنشئة الاجتماعية في صوغ شخصية ثقافية تضفي على جميع العناصر هوية محدّدة، كما تميّزت أبرز مقاربات هذه المدرسة باعتمادها على علم النفس كوسيلة للبحث عن الشخصية الثقافية التي تختص بها جماعة من الجماعات. وقد تمّ من خلال ذلك تطوير جملة من المفاهيم كالثقافة والسمات الثقافيّة من قبل عدد من روّاد الأنثروبولوجيا الثقافويّة الأمريكيّة كروث بنديكت (Ruth Benedict (1887-1948)) ومرغريت ميد (Margaret Mead (1901-1978)) .

واعتبرت الثقافة من طرف هؤلاء أولّ معطى مهيكل للوجود الإنساني، كما نظروا إليها باعتبارها نظاما من السلوك المكتسب والمنتقل في المحيط الاجتماعي عبر قنوات التربية والتقليد. وعلى هذا الأساس حاولت مرغريت ميد تطوير أطروحة أساسيّة سوف يكون لها عميق الأثر في تبلور مفهوم النوع الاجتماعي فيما بعد، وهي مسألة التمييز بين الطبيعي والثقافي التي أرادت ميد تبيان ارتباطها بشكل جوهري بالتمييز بين ما هو بيولوجي وفطري وبالتالي بين ما هو مشترك بين الناس وبين ما هو مكتسب في الوجود الاجتماعي ويمثّل محور اختلاف المجتمعات والثقافات.

وقد ارتبطت الاهتمامات الأنثروبولوجية لميد في هذا السياق بنضاليتها في صفوف الحركة النسويّة الأمريكيّة، وهو ما سوف يوجّه بقدر كبير مجمل دراساتها الحقليّة المنجزة في منتصف الثلاثينات في أماكن مختلفة من العالم، والتي آلت، من خلالها على نفسها اختبار أطروحتها التي نفت ضمنها وجود ميول طبيعية في السلوك، ذاهبة إلى ردّ السلوك، حتّى ذلك المرتبط بالعلاقة بين الجنسين، إلى أسباب ثقافية(15).

وجدير بالملاحظة الإشارة إلى ما كان لمختلف دراسات ميد ونتائجها النظريّة وسائر دراسات الانثروبولوجيا الثقافويّة الأمريكيّة المتواصلة مع ما سبقت إليه أفكار سيمون دي بوفوار، وغير ذلك من مختلف الأفكار المطورة منذ نهاية الستينات من قبل بعض علماء النفس المستخدمين للفظة "النوع" للتمييز بين البيولوجي والنفسي، من بالغ الأثر في ظهور أولى

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

محاولات التطبيع العلمي والنظري لمفهوم النوع.

وقد تمّت أولى محاولات الضبط العلمي لمفهوم النوع عبر عالمة الاجتماع النسويّة آن أواكلي [Ann Oakley] التي صرّحت بأن "الجنس" يمثّل مفردة تشير إلى الفوارق البيولوجيّة بين الذكر والأنثى، في حين تحمل لفظة "النوع" على العكس من ذلك، إحالة إلى الثقافة، إنها تشمل على حد تعبيرها "التصنيف الاجتماعي للذكوري والأنثوي، وعلينا تبنّي الإقرار بثبات الجنس مثلما علينا اعتبار تغيّر النوع " (16). وهكذا فقد أصبحت قضايا النوع الاجتماعي أكثر ارتباطا بالمكانة والدور الاجتماعي للمرأة والرجل في الوقت الذي ظل الجنس مؤشّرا يحيل إلى الفروق البيولوجيّة بين الذكور والإناث، وحمل مفهوم النوع في دلالاته الإجرائيّة إشارة للخصائص والصفات المرتبطة بالجنس كما تترجم عنها وتفرزها ثقافة المجتمع وقنواته التنشيئية.

لقد كان لهذه الخطوة الفكريّة المتجسّدة في التمييز بين الجنس والنوع الأثر البارز في الانحراف عن تناول ودراسة المرأة بشكل منفصل، ليتعزّز التوجه نحو البحث ودراسة العلاقات الرابطة بين الجنسين، وهو ما دعت له أغلب الأفكار المتبنية لمفهوم النوع فيما بعد.

وتمثّل أفكار المؤرخة الأمريكيّة جوان سكوت [Joan W.Scott] أبرز الأمثلة على ذلك، حيث نادت بضرورة تجاوز الحديث عن التعارض بين الرجل والمرأة، والنظر إلى ذلك التعارض باعتباره يمثّل "إشكالا " في حدّ ذاته، يمكن أن يكون محور بحث ودراسة بشكل منفصل، لأنّ تعارض الذكوري والأنثوي يترجم عن وجود روابط وعلاقات قوّة يهيمن فيها أحد الطرفين على الآخر(17). و يبقى الإشكال الرئيسي حسب سكوت على غير ذي علاقة بالمرأة أو بالرجل في حدّ ذاتهما ولكن في طبيعة الروابط المؤلفة بينهما.

وخلاصة القول إن محاولات التقنين العلمي لمفهوم النوع تواصلت على إثر هذا عبر زوايا نظر مختلفة من طرف جملة من الباحثين والباحثات من ذوي الاختصاصات العلميّة المختلفة،و التي سوف تشكّل جملة أفكارهم وأطروحاتهم قاعدة تركّز عبرها هذا المفهوم، وتطورت من خلالها جملة أدواته التحليليّة والإجرائية، ليصبح مفهوما علمياً على قدر كبير من الأهميّة يتم عبرها اليوم الاشتغال والتعاطي مع الواقع الاجتماعي من قبل العديد من الدارسين والباحثين. وقد استطاعت مجمل المقاربات المنبثقة عن مفهوم النوع رسم ملامح حقل معرفة ذاع صيته وفاقت شهرته حلبات الجامعة ومراكزها البحثيّة ليتمّ تبنيه واعتماده من قبل كبرى الهيئات والمنظمات العالميّة.

3-3 ـ مفهوم ومقاربات النوع الاجتماعي وردود الأفعال حولهما

كنا قد أشرنا فيما سبق إلى بدايات التمأسس العلمي لمفهوم النوع، وما برز من معارضات أعاقت بسط المفهوم في الساحة العلميّة الفرنسيّة بالتحديد، كما تمّت الإشارة إلى ما صاحب المفهوم من صخب شكّك في علميته وأرجعه إلى نضالية الحركة النسويّة الأصوليّة. وربّما يصبح ذلك الموقف الفرنسي المعارض لاقتحام مفهوم النوع باحات أقسام العلوم الانسانيّة بالجامعة الفرنسيّة مبررًا إذا ما ربطناه بسياقه السوسيوتاريخي الذي تميزت ضمنه أجواء تلك الجامعة بنزعة تحفظ شديد (18) حرصت على تحصين العلم من شوائب ومتاهات الصراع السياسي. ولعلّ لذلك أثره في تعطيل توجه الدراسات حول المرأة بفرنسا نحو التمأسس العلمي إلى حدود مطلع التسعينات، باعتبارها دراسات ارتبطت بنوع من نضالية سياسيّة نسويّة.

هذا ومن المهم التأكيد على أن مفهوم النوع الاجتماعي لم يتمكّن من فرض نفسه في ساحات العلوم الإنسانية الفرنسيّة حتى بعد ترجمة مقال جوان سكوت في سنة 1988 وما لقيه من ذائع صيت في

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أوساط عديدة، حيث ظلّ استخدام المفهوم غير مستساغ إلى وقت قريب كما بقي الاستعمال الفرنسي يتّسم باستعمال ألفاظ بديلة مثل "الفروق بين الجنسين" "العلاقة بين الذكور والإناث" و"الروابط الاجتماعية بين الجنسين" (19). وباستثناء بعض الحالات فإن مفهوم النوع في فرنسا خاصة لم ينتشر بين المتحدثين عن تاريخ المرأة إلاّ في منتصف التسعينات وبداية الألفية الثالثة.

ومما تجدر الإشارة إليه في معرض الحديث عن المعارضات التي شهدها مفهوم النوع، التعرض لمواقف بعض الباحثات النسويات من هذا المفهوم، الذي بالرغم من أن عددا كبيرا من الدارسين يعتبر انبثاقه وتطوره محسوبا لصالح الحركة النسويّة، فإن بعض النسويات الأكثر تشدّدا وراديكالية يعتبرنه تراجعا عن الدفاع عن قضايا المرأة وخطوة إلى الوراء، ولا يمثّل تطور مفهوم النوع الاجتماعي بالنسبة لهن مكسبا يحسب لصالح النضال النسوي، بل اعتبر من طرف بعض علماء الاجتماع ذوي التوجه النسوي الأصولي مفهوما غامضا غير قابل للتفكيك، ويخفي وراءه نسقا متحركا من الهيمنة الخفيّة بما أنّه يدعو إلى تجاهل الهيمنة الذكوريّة عبر تغييب أدوار المرأة ضمن عمليات التوالد البيولوجي والاجتماعي التي تحفّ بخضوعها وتبعيتها (20).

وعلى العموم وبغض النظر عن جملة ما أثاره ويثيره المفهوم إلى اليوم من جدل في أوساط وحلبات عديدة، فمن الأكيد أن هذا المفهوم ومجمل المقاربات المنبثقة عنه قد تمكّنت من فرض نفسها في الساحة العلمية وغيرها من الساحات الأخرى، إلى درجة انّه أضحى من المفاهيم رائجة الصيت، يتهافت عدد كبير من الباحثين والدارسين على تناوله واستخدامه في مناطق عديدة من العالم مدفوعين بأغراض وغايات متنوّعة ومتعددة.

هذا ولا يفوتنا في هذا السياق التعريج على الدور الأساسي الذي لعبته منظمة الأمم المتحدة ومجمل الهيئات التابعة لها في نشر المفهوم، وتعميم استخدامه على نطاق عالمي لاسيما فيما يتعلّق بالمجال التنموي خاصة في الدول الناميّة، إذ عملت مختلف التقارير الأمميّة على اعتماد مفهوم النوع بشكل مباشر منذ سنة 2000 حيث تضمّن تقرير الأمم المتحدة حول السكان لنفس السنة إشارة واضحة له، أكدّت على أنه في الوقت الذي تكون الفوارق الجنسيّة بين الذكور والإناث عامة وعالمية وثابتة فإن التفريق على أساس النوع الاجتماعي من المسائل المفروضة بحكم الثقافة وتبعا لعوامل اجتماعية واقتصادية تختلف وتتنوع بحسب اختلاف المجتمعات وتنوع الثقافات وتعاقب الأزمنة، وهي بكل هذا مسائل مكتسبة اجتماعيا بحكم التنشئة الاجتماعية والتطبيع الاجتماعي والتربية والتعليم (21).

4 - واقع دراسات المرأة والنوع الاجتماعي في البلاد العربيّة :

إن التمعّن في مسار تمأسس دراسات المرأة والنوع الاجتماعي في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكيّة يكشف تلازم ذلك مع صيرورة تاريخيّة طويلة اقترنت فيه جهود التأسيس بنضال حركاتها النسويّة بمختلف تيّاراتها وتوجهاتها وارتبطت كذلك بتعالي أصوات ونداءات الجامعيين والمفكرين المناصرين لتلك الحركات بضرورة إرساء حقل علمي خاص بدراسات المرأة وأهميّة تطويره لجهاز مفاهيمي ولأدوات نظريّة وتحليليّة خاصة به.

وقد فصّلنا القول سابقا في الدور الذي لعبته الحركات النسوية في الغرب بشقيها الفرنسي والأمريكي في تأسيس حقول معرفيّة خاصة بالمرأة، وربّما تمّ ذلك بنوع من الإسهاب في تناول مسيرة تلك الحركات وتطورها التاريخي وتدرّجها نحو الإرساء الفعلي لجملة من المكاسب التي نعمت بها المرأة

الغربيّة، ولا بدّ من التأكيد في هذا المستوى أن ذلك كان ضرورة فرضت نفسها وواقعا نطق عن ذاته إذ أن وزن الحركات النسوية الغربيّة وحجم فعلها التاريخي وحدة نضالها ذي الأوجه والأصعدة المتنوعة، مسائل لا يمكن القفز عليها في سياق الحديث عن مسار تمأسس الدراسات العلمية حول المرأة والنوع الاجتماعي. إلا أن الملفت للنظر أن كل ذلك تمّ مقابل غياب شبه كامل للحديث عن الحركة النسويّة العربيّة، فأي دور لعبته أو تلعبه هذه الحركة في مسيرة تأسيس حقول معرفيّة خاصة بالدراسات حول المرأة في العالم العربي ؟

يبدو من المتأكد، قبل ذلك، الإشارة إلى أنّنا لن نفصّل القول في ما يتعلّق بتاريخ الحركة النسويّة العربيّة ومسيرتها وتطوّرها، فذلك من الأمور التي قد لا تسمح لنا بها حدود هذا البحث وإشكاليته المركزيّة التي تحاول تلمّس مسار التطور التاريخي لتمأسس الدراسات العلمية حول المرأة دون البحث في تاريخ الحركات النسويّة، ولكن ما يستحق الذكر في هذا المقام هو أن العالم العربي لم يتمكّن من إنتاج حركات نسويّة ذات طابع عربيّ بقدر ما أنتج نسخا متناثرة من الحركة النسويّة الغربيّة، كانت في مجملها رجع صدى للحركات الغربيّة، لم تتمكن من التأصّل في سياقها المجتمعي بخصوصيته وتفرّده.

وربّما يفسّر ذلك إلى حد كبير ما شاب مسيرة تلك الحركات من تعثّر ومحدودية الدورالمجتمعي الذي كان من الممكن أن تلعبه بشكل رائد ورسمي مثل نظيرتها في فرنسا والولايات المتحدة الأمريكيّة. ولعلّ لذلك بعض الأسباب الأخرى التي لا يمكن إغفالها مثل التصدي القوي الذي أبدته بعض قوى الرفض العربيّة وما كان لها من دور بارز في مناهضة تعالي أصوات النساء، والتي لم تكن بأي حال من الأحوال أشدّ ضراوة من القوى المناهضة للمرأة في الغرب، ولكن ذلك لا ينسي في السياق ذاته ما أنتجه العالم العربي من أصوات فكرية ذائعة الصيت ناصرت قضايا المرأة العربيّة، ودعت إلى تحريرها وتعليمها وتعزيز مسار اندماجها في العالم الخارجي، وهو مناخ كان بإمكان الحركة النسويّة العربيّة تطويره في اتجاه يخدم قضاياها وشواغلها.

ومن الملفت للنظر أننا عند التطرّق لإشكاليّة التأسيس العلمي للدراسات حول المرأة في العالم العربي لا نكاد نعثر على أثر يذكر للحركة النسويّة ودروها في ذلك. صحيح أن الاجتهادات والكتابات والدراسات حول واقع المرأة العربيّة قد تناثرت هنا وهناك في البلاد العربيّة منذ عقود إلا أن المطالبة الرسميّة من قبل صاحبات التوجه النسوي في البلاد العربيّة أو الاجتهاد في إرساء حقول معرفيّة قائمة الذات ومتصلة بالمرأة لم يحدث.

وفي مقابل ذلك نشهد اليوم مسارا يحاول في سياق إقليمي وعالمي تعزيز التوجه نحو المأسسة العلميّة والفكريّة للدراسات حول المرأة وحول النوع الاجتماعي، ولئن كان هذا المسار يسير بوتيرة متعثرة وبنسق بطيء فانّه على الرغم من ذلك أصبح يتجذّر من يوم إلى آخر، علما أن الفاعل الرئيسي في ذلك يتمثل في السلطات الرسميّة وبعض الهيئات والمنظمات الإقليمية العربيّة المعنيّة بشأن المرأة.

لقد بدأ العالم العربي يشهد منذ فترة بداية انتشار تخصّصات المرأة والنوع الاجتماعي كتخصّصات معرفيّة قائمة الذات تُدرس وتُدرّس في بعض الجامعات العربيّة، ولئن كانت هذه المبادرات لا تزال محدودة للغاية، فإنها على الرغم من ذلك تتعزّز من وقت للآخر بحكم الدعم الرسمي المحليّ والإقليمي والدولي الذي تلقاه، إذ من المعلوم أن المعاهد العليا والمراكز البحثيّة المختصة والشهائد الجامعيّة في دراسات المرأة والنوع الاجتماعي قائمة الذات حالياً في عدد من الدول العربيّة مثل فلسطين والأردن والسودان ولبنان ومصر(22) إلى جانب تونس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والمغرب الأقصى. وتختلف درجات الشهائد المسندة من قبل هذه المؤسسات العربيّة بين المراحل النهائيّة في مستوى التخرّج في بعض تخصصات العلوم الإنسانية وبين المراحل العليا في مستوى دراسات الماجستير والدكتوراه، كما تختلف تسميات هذه التخصصات وطبيعة التكوين المتلقّى ضمنها متراوحة في عمومها بين الاتصال المباشر بدراسات المرأة وبين مقاربات ونظريات ومناهج النوع الاجتماعي.

ولا بدّ لنا في هذا المقام من التأكيد على أن وضع دراسات المرأة والنوع الاجتماعي في البلاد العربية ما يزال بحاجة ماسة إلى الدّعم والتطوير خاصة من قبل المختصين في العلوم الإنسانية والاجتماعيّة، الذين بالرغم من اهتمام بعضهم الشديد بقضايا وشواغل المرأة، فإن ذلك لم يتواز مع مسار بعث وتأسيس هياكل مؤسساتيّة بحثيّة وأكاديمية تتبنّى جهودهم وتطوّر دراساتهم بشكل رسمي.

4-1. وضع الدراسات والبحوث المتعلّقة بالمرأة والنوع الاجتماعي في تونس

إن الاهتمام الرسمي في تونس بقضايا وشواغل المرأة على أكثر من صعيد وخاصة فيما يتعلّق بالجوانب التشريعيّة والقانونيّة، يُعتبر مسارا انطلق منذ السنوات الأولى لاستقلال البلاد، ليتعزّز بشكل بارز في العقود الأخيرة بفضل ما وقع سنّه من قوانين وتمّ رسمه من برامج ووضعه من مخطّطات ساعية في مجموعها لتعزيز مكانة المرأة في مختلف المواقع وجعلها محورا مفصليّاً لمسيرة البلاد التنموية.

أمّا في ما يتعلّق بمسار الاهتمام المؤسساتي بالمرأة في تونس فيُعد مطلع التسعينات و ما شهده من إنشاء وزارة خاصة بالمرأة، وتأسيس مركز الدراسات والبحوث والإعلام والتوثيق حول المرأة كهيئة علمية تابعة للوزارة، الانطلاقة المؤسساتية الأولى التي جعلت من المرأة محورا لتوجه بحثي ودراسي. وقد أوكلت الوزارة المستحدثة للكريديف مهام تطوير الدراسات والبحوث حول المرأة وجمع البيانات والمعطيات حولها، ونشر كل المعلومات المتعلقة بها، إلى جانب إعداد تقارير دورية حول تطور وضعيتها. ويذكر أن الكريديف، على حداثة عهده، أنجز كهيكل بحثي متخصص في شؤون المرأة عددا مهماً من الدراسات النوعيّة والكميّة التي قامت بتشخيص واقع المرأة التونسيّة في مجالات عديدة كالريف والمدينة والشغل والثقافة والابداع والصناعات التقليديّة وغيرها.

أما في ما يتعلّق بمقاربات النوع الاجتماعي فيعتبر الكريديف من أوائل المبادرين باستخدام هذه المقاربات في بحوثه ودراساته وقواعد بياناته. إلا أنه وبالرغم من هذا الاهتمام الرسمي بالبحوث والدراسات حول المرأة والنوع الاجتماعي ولاسيما في علاقتها بالتنمية فإن مسار التمأسس العلمي في مستوى برامج التدريس الجامعي والدراسات العليا بقي دون ذلك، إذ لم تشهد الجامعة التونسيّة ولاسيما أقسام العلوم الإنسانية والاجتماعية بروز تخصصات معرفيّة مرتبطة بشكل مباشر بالدراسات حول المرأة إلاّ مؤخرا وذلك في سنة 2003 من خلال بعث ماجستير متخصص في الدراسات النسويّة بالمعهد العالي للعلوم الإنسانية بتونس، علما أن حجم الدراسات والبحوث الجامعيّة سواء في مستوى رسائل التخرّج أو الماجستير أو الدكتوراه المتعلّقة بالمرأة خاصة في أقسام علم الاجتماع الثلاثة تبقى على قدر كبير من الأهميّة من حيث الكمّ.

وكمحاولة لتقريب حجم هذا الاهتمام قمنا بجرد لمختلف رسائل الماجستير وما كان يسمّى بشهادة الكفاءة في البحث المعادلة لها ورسائل الدكتوراه المناقشة بقسم علم الاجتماع بكليّة الآداب والعلوم الإنسانية والمتعلّقة بشكل مباشر بالمرأة، فقد تمّ حصر خمسين رسالة بدءا من سنة 1970 و الى سنة 2004، وهو ما يبرزه بكل وضوح الرسم البياني التالي:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رسم بياني : تطور البحوث الجامعيّة حول المرأة بكلية الآداب والعلوم الانسانية بتونس
- قسم علم الاجتماع- 1970 ـ 2004

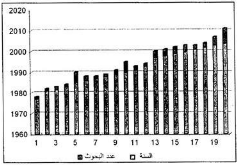

المصدر : بحث شخصي ـ ماي 2006

* تمثل سنة 2004 السنة التي تقف عندها عملية الضبط الرسمي للرسائل والبحوث الجامعية المناقشة بالكليّة خلال فترة انجاز بحثنا (شهر ماي 2006).

وتجدر الإشارة إلى أن عددا من هذه الدراسات المنجزة حديثا والمتصلة بشكل أو بآخر بالمرأة سواء في مستوى كليّة 9 أفريل أو رسائل الماجستير المتخصص بالمعهد العالي للعلوم الإنسانية، أخذ في التوجه نحو استخدام مقاربات النوع الاجتماعي كأطر نظرية يتم توظيفها في البحث، وهو مؤشّر هام برأينا يعزّز مسار التبنّي الأكاديمي لمثل هذه المقاربات بجامعتنا، ويزكّي ما تم تحقيقه من خطوات في هذا المجال.

ولا بدّ من التذكير بأنّ تأخر مسار الإرساء الأكاديمي والجامعي لدراسات المرأة والنوع الاجتماعي في تونس مقارنة بوتيرتهما في المراكز البحثيّة الرسميّة وعلى الصعيد التنموي، يعود برأينا إلى انعدام المبادرات من قبل المختصين والمهتمين بشأن العلوم الإنسانية والاجتماعية والمنشغلين بقضايا المرأة، ولا يعود كما هو الشأن في بعض البلدان العربيّة إلى موجة التصدّي المناهضة لتركيز مقاربات النوع الاجتماعي بحجة تعارضها مع النصّ القرآني (23) ومع التقاليد العربيّة الإسلامية، ولعل الجدل الدائر في أكثر من موقع على شبكة المعلومات الدولية يبرز لنا حجم ذلك في بعض الدول العربيّة. ولئن كنّا لسنا بالمختصين القادرين على خوض متاهات ذلك الجدل فانّه بإمكاننا الجزم بأن النص القرآني أسمى من أن يقارن بأيّ نظريّة أو مقاربة مهما كان شأنها وحجمها، ولا يمكن بأي حال من الأحوال التشكيك في درجة تكريم الإسلام لـ"شقائق الرجال" وفي سموّه بطبيعة العلاقة بين الطرفين

الخاتمة

لأن المرأة موضوع حمّال أوجه، شائك ومعقد، لم يكن من الهيّن، شأنه شأن كل المواضيع ذات الحساسيات المفرطة، تبلوره كحقل بحث ودراسة، وبالرغم من التطور الكمّي والنوعي لمختلف مباحث العلوم الإنسانية والاجتماعية منذ لحظات بروزها، فقد بقي مبحث الدراسات حول المرأة بعيدا عن حلبات الفكر والمعرفة إلى وقت قريب جدا، كما ظلّ الخوض في متاهات موضوع المرأة والمطالبة بحقوقها لصيقا بأجواء السياسة والتمرّد التي نسجتها حوله أصوات الحركات النسويّة في كل من الولايات المتحدة الأمريكيّة وفرنسا منذ مطلع النصف الثاني من القرن العشرين، أكثر من ارتباطه بساحات العلم والبحث.

ومنذ السبعينات خلقت أصداء مناضلات الحركة النسويّة الأمريكيّة أجواء ملائمة فُتحت فيها أقسام الجامعات الأمريكيّة أمام ما سمي بالدراسات النسويّة التي دشنّت مسار التمأسس العلمي للدراسات الأكاديميّة حول المرأة، وقد ساهم ذلك في بدايات تركّز تراكمات معرفيّة حولها، توسّع مداها باتجاه فرنسا ثم مختلف دول العالم لتؤول فيما بعد إلى بروز حقل دراسات النوع الاجتماعي باعتبارها تتأسس حول مفهوم ومقاربات جامعة تحيط بشواغل كل من الرجال والنساء معاً.

ويمكن القول بأن هذا التطور والتحوّل الفكري من معالجة قضايا المرأة كإشكالية منفردة، كانت في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حالات عديدة تقارب في إطار حقل "الدراسات حول المرأة" وكأنها طرف نقيض للرجل، إلى تناولهما كعنصرين أساسين في إشكالية واحدة ضمن مقاربات النوع الاجتماعي، يعتبر تحولا عبقريا نسجته المرأة بذكاء ملفت لتزكيّه وتتبناه المنظمات والهيئات الدوليّة، فتتأسّس له بذلك مشروعيّة فكريّة وسياسيّة لم يعد بالإمكان القدح فيها أو التراجع عنها رغم بعض المعارضات التي تطفو على السطح من هنا وهناك.

إن المرونة الفكرية لمفهوم النوع وتجاوزه لمنطق التضاد بين الرجل والمرأة ونضجه في التعاطي مع مسألة الذكر والأنثى، خولت له تطوير نفسه ومقارباته وجملة شواغله واهتماماته، ومكنته تدريجيا من اقتحام عدد من فروع العلوم الانسانيّة ليتدعّم من يوم لآخر مسار حضوره كحقل معرفي قائم الذات.

وقد يسّرت ولادة مفهوم النوع الاجتماعي اختصار مسيرة مأسسة الدراسات العلمية المتعلقة بموضوع المرأة من خلال إعادة إنتاج الموضوع في صيغة جديدة اعتبرت المرأة في علاقتها التكامليّة بالرجل جزءا من ظواهر النوع الاجتماعي كما مثّل ذلك عمليّة "سحب بساط "ذكيّة من تحت أقدام الرافضين والمناهضين لحضور المرأة في باحات العلم والمعرفة.

ومع تسليمنا في نهاية المطاف باعتبار مقاربات النوع الاجتماعي ضربا من ضروب المعرفة المرتبطة بسياق سوسيوتاريخي اصطلح على تسميته بالعولمة أفلا يمكن للمتتبع أن يستجلي خيوطا رابطة بين هذه وتلك؟ ألا يمكن أن يتحسّس ذلك في تلك النزعة التجزيئيّة الجامعة التي تتأكد في كل منهما، والمتمثّلة أساسا في اهتمام بالأجزاء وبالأطراف يسير بالتوازي مع مقاربة شموليّة تحاول التأليف بين مختلف تلك الأجزاء وصهرها في محور واحد؟

إن مقاربات النوع الاجتماعي تمثّل تأكيدا على ضرورة الاهتمام بالمرأة وتعزيز اندماجها في المجتمع، ولكنها في ذات الوقت تهتم بالرجل باعتبار ما يربطهما من علاقة جامعة، ألا يتقاطع ذلك مع أنفاس هذه العولمة التي هي بدورها تجزيئيّة جامعة، فهي دعوة للإحاطة بمختلف دول العالم وبمختلف الشرائح الاجتماعية وبمختلف الثقافات والخصوصيات، وهي في ذات الوقت نزعة لصهر كل ذلك في نمط واحد يشكّل ويصاغ بأسلوب واحد؟ وهل لكلّ ذلك علاقة بازدواجية الطرح وثنائية التفكير التي أصبحت تميّز توجهات هذه العولمة فهي جهر بمساعي الاستقطاب واحتضان لمختلف الشرائح الاجتماعيّة، ولكنها في ذات الوقت مسار لتكريس الإقصاء والتهميش وإعادة انتاج الفقراء والملفوضين؟ إنها جهود لتوحيد الرؤى والتصورات ولكنها في نفس الوقت تأكيد على قيمة الخصوصية والتفرّد؟؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش والإحالات

(1) أثارت كما هو معلوم إشكالية الموضوعية ومسألة فصل الذات الدارسة عن موضوع الدراسة في العلوم الإنسانية والاجتماعية وعلم الاجتماع تحديدا جدلا كبيرا في بدايات تأسيس هذا العلم، وقد انقسم مؤسّسو علم الاجتماع إلى توجهين أساسيين إزاء هذا المشكل : توجه أول ينسب عادة للمدرسة الفرنسيّة في علم الاجتماع ممثلة في أوقست كونت[August Compte] ومن بعده ديركايم [Emile Durkheim]، وتوجه ثان سميّ بالمدرسة الألمانية في علم الاجتماع مثّله في البداية الفيلسوف وليام ديلتاي [Dilthey William] ومن بعده عالم الاجتماع ماكس فيبر[Max Weber] . وقد نزع التوجه الأول في محاكاته للمناهج العلمية المستخدمة في العلوم الطبيعية إلى اعتبار الموضوعية ومبدإ فصل الذات عن الموضوع شرطا لا يمكن لعلم الاجتماع أن يحقق علميته دونه، في حين ذهب التوجه الثاني إلى رفض تبني مناهج علماء الطبيعة في دراسة الظاهرة الاجتماعية والإنسانية ومن ذلك مسألة فصل الذات عن الموضوع واستبعاد الأفكار المسبقة نظرا لاختلاف طبيعة الظواهر المدروسة في كلّ من علوم الطبيعة وعلوم المجتمع.

(2) Riot Sarcey, Histoire du féminisme , La découverte, Paris 2000, p 30
Christine Guionnet, Eric Neveu, Féminins- Masculins, Sociologie de genre.
Armand Colin ,Paris 2004, p 16.

(3) يذكر أن المصطلح ظهر لأول مرّة سنة 1872 على يد ألكسندر دوما الإبن ولكنه لم يتخذ معانيه الحديثة إلا بعد 9 سنوات، انظر:

(4) Christine G, Eric N, Féminins - Masculins, Sociologie de genre. Armand Colin, Paris 2004, P 17.

(5) Fournier Martine, Combats et débats, in Femmes : combats et débats, Revue Sciences Humaines,Hors Série, n 4 -2005,P 7.

(6) Christine G, Eric N, Féminins- Masculins, p 18.

(7) F. Rochefort, Du féminisme des années soixante aux débat contemporains; in Maruani, Femme genre et société; L'état des savoirs; La découverte 2005, p 70 .

(8) Bard. C, Un siècle d'antiféminisme, Fayard 1999, p 549.

(9)Christine G, Eric N, Féminins- Masculins, p19.

(10) نفس المرجع والصفحة

(11) Perrot .M, Dictionnaire critique de féminisme, Puf 200, p 103.

(12) Fournier Martine, Combats et débats p 8,

(13) Maruani, M, Les nouvelles frontières de l'inégalité. Hommes et femmes sur le marché de travail. La découverte. 1998 ,p 45.

(14) أنظر، سلوى جمعة الشعراوي، دراسات المرأة كحقل دراسي في الجامعات العربيّة، ورقة مقدمة لمنظمة المرأة العربيّة، ضمن الدورة التدريبيّة حول إدماج مفهوم النوع الاجتماعي في مناهج البحث، القاهرة 8–11 ماي 2006.

(15) درست ميد كما هو معلوم الشخصية الثقافية لثلاث قبائل من غينيا الجديدة، وهي الأرابيش والموندوغومور والشمبولي، وعبر معاينتها الميدانية لأنماط السلوك المتبعة اكتشفت أنماطا مختلفة من الشخصيات، وقد انتهى بها الأمر إلى استنتاج مفاده أن شخصية المجموعة الأولى يغلب عليها طابع اللطف والهدوء، وأنها أقرب إلى الجانب الأنثوي من السلوك سواء عند الرجل أو المرأة، أمّا المجموعة الثانية فيطغى عليها طابع العدوانية والعنف على سلوكها، وقد بينت ميد عبر دراساتها أهمية التربية في دفع الأفراد إلى العدوانية والعنف منذ مراحل التنشئة الاجتماعية الأولى، كما حاولت إبراز كيفية تأثير ذلك في قضايا التمييز الجنسي بين الذكور والإناث وارتباطه بالثقافة وبعمليات التنشئة، حيث أبرزت من خلال بعض النماذج الميدانيّة المدروسة سيطرة الوداعة واللطف على الرجال، و خصال النشاط البدني الكبير والعمل خارج المنزل بالنسبة لنساء بعض القبائل المدروسة. انظر : Mead, M. Sex and temperament in three primitive societies, 1935.

(16) Christine G, Eric N, Féminins- Masculins, p 23

(17) Scott, JW, Gender and the politics of history .Columbia University Press, 1988, p.60.

(18) Teixido Sandrinine, Les gender studies: Genèse et développement. Revue Sciences Humaines, p36

(19) نفس المرجع السابق والصفحة، وانظر أيضا : M. Mead. in Maruani, (Dir). Femme, genre, société. La découverte Paris 2005, p 60

(20) نفس المرجع السابق، ص 63 .

(21) الدويبي عبد السلام بشير، أبعاد ومضامين التمييز على أساس النوع الاجتماعي، مجلة العلوم الاجتماعيّة والإنسانية. س 11، عدد 11، سنة 2003، الهيئة القوميّة للبحث العلمي، طرابلس، ليبيا، ص 35.

(22) في فلسطين تقدم جامعة بير زيت برنامجا في مستوى الدراسات العليا اسمه النوع الاجتماعي : القانون ودراسات التنمية، كما تقدم جامعة النجاح في نابلس برنامجا في مستوى الإجازة في علم الاجتماع يحمل عنوان المرأة والمجتمع، وتؤمّن كذلك جامعة القدس شهادة جامعيّة في مستوى الإجازة تحمل عنوان التنمية الاجتماعيّة والأسرة. أما في تونس فإن المعهد العالي للعلوم الإنسانية بتونس يمنح شهادة ماجستير متخصصة في الدراسات النسويّة وذلك منذ سنة 2003، كما يتمّ في الأردن تقديم ماجستير متخصص في دراسات المرأة منذ 1998. وتقدّم جامعة أحفاد في السودان برنامجا في مستوى الدراسات العليا بعنوان "النوع الاجتماعي والتنمية" أما في مصر فإن بالجامعية الأمريكيّة تخصصا في دراسات النوع الاجتماعي في مستوى الإجازة في العلوم الإنسانية والاجتماعيّة و كذلك الحال في الجامعة الأمريكية في لبنان ، ولمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع الى البحث الموسوم بـ "دراسات المرأة في الجامعات العربيّة" ورقة مقدمة من طرف سلوى جمعة الشعراوي لمنظمة المرأة العربيّة ضمن الدورة التدريبيّة حول إدماج مفهوم النوع الاجتماعي في مناهج البحث، القاهرة 8–11 ماي 2006.

(23) اجتهد بعض الأساتذة المختصون في تونس في تبيان أهمية علاقة الإسلام بأبعاد النوع الاجتماعي، ويمكن في هذا الصدد الرجوع الى مقال الأستاذة منجيّة السوايحي في الملتقى الإقليمي العربي حول مأسسة النوع الاجتماعي في العالم العربي، 24–21 جانفي 2003.

المرأة التونسية : رحلة عبر الزمان...

حياة قطاط (*)

يتميّز حضور المرأة في البلاد التونسية بأهميّته البالغة وذلك منذ أقدم العصور وهو غنّي بتنوّع مكوّناته من معالم أثرية وفنون ومهارات يدويّة وإبداع علميّ وأدبيّ وقصص وروايات خلدتّها الذّاكرة الشعبية، تنوّه بالخصوص بصمود المرأة الباسل في وجه العدوّ الغازي، تفانيا في حبّ هذا الوطن العزيز والذّود عنه.

كما نستشف هذا الحضور أيضا من خلال مختلف الأعمال الخيريّة التي قامت بها وجوه نسائيّة لامعة، حفظها التّاريخ وصانتها الذّاكرة الجماعية، لتُعرب كأحسن ما يكون عن قيم الخير والتآزر التي لعبت المرأة دورا رئيسياً– عبر مؤسسة الزّواج والأسرة– في غرسها في نفوس الأجيال المتعاقبة وترسيخها في اللاّوعي الجماعي، لتصبح تلك القيم ومن خلال تلك الشخصيات النسائية، الحقيقية منها أو الخيالية، رموزا خالدة، تُحييها العادات والتقاليد الموروثة التي ظلّت –رغم التحولات الكثيرة المتعاقبة– حيّة في الوجدان التونسي.

المرأة في عصور ما قبل التّاريخ : الفترة "القبصيّة" :

تُعتبر الرّماديات مصدر معرفتنا للفترة والحضارة القبصية التي ميزّت عصور ما قبل التّاريخ بالبلاد التونسية، وهي ترسم حدود المجال الذي تطورّ داخله القبصيون والقبصيّات ويمتدّ حسب الاكتشافات الأثرية على شعاع قدره حوالي 150 كلم، انطلاقا من قبصة (قفصة) في اتّجاه الشرق والشمال، قرب مسالك العبور ونقاط المياه والأودية والمرتفعات.

(*) باحثة بالمعهد الوطني للتراث.

وقد حافظت الرّماديات -كمسرح لحياة القبصيين والقبصيّات في فترة ما قبل التاريخ- على بعض الأمتعة والأدوات التي تمكنّت من الصّمود في وجه الدّهر منذ أكثر من سبعة آلاف سنة، ونعدّ من بينها على وجه الخصوص، تلك القطع المصنوعة من الحلزونيّات والعظام وبيض النّعام، الذي كان يُمثل إلى جانب الحجارة، محملا لفنّ بارز لعبت فيه المرأة، على ما يبدو، دورا إبداعياً هاماً مقارنة بالإمكانيّات "البدائية" المتوفّرة.

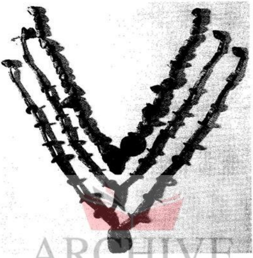

عقد متكون من قطع وحلقات من قشور بيض النعام ومن أصداف.
كاف العقاب (منطقة جندوبة) عصر ما قبل التاريخ المتحف الوطني بباردو

http://Archivebeta.Sakhrit.com

وإضافة إلى هذه الحقائق التي أثبتتها الحفريات نعثر في بعض الدّراسات على أسماء أسطورية، لا شك في أنها مستوحاة من الحقيقة التّاريخية، خلدّتها الأجيال واحتفظت بها الذّاكرة كرموز للمرأة المبدعة، التي تعاملت بذكاء مع المعطيات الطّبيعية والبيئية المتُاحة، لتنتج -بفضل عبقريتها- أثرا فنياً رائعا خلدهّ الزّمن التاريخيّ، ونذكر من بين هذه الأسماء الأسطورية، شخصية "قالة" التي تنتمي إلى جماعة "راقة" القبصيةّ، ويبدو أنّها كانت تُتقن فنّ نقش صور الحيوانات على القطع المصنوعة من قشور بيض النعام، وذلك باستعمال مناقش ومحافر مقطوعة ومنحوتة من حجر الصوّان، وكانت "قالة"، لأسباب ما، تتميزّ بفضل هذه المهارة عن غيرها من النسوة المعاصرات لها، واللاتّي كنّ يكتفين فقط بتزيين ما يصنعن من أمتعة بأشكال هندسية رتيبة، تمثلت في المثلثات والمعينّات. . . التي تواصل وجودها كعنصر للزيّنة لأغلب القطع الفنيةّ التي يزخر بها التراث المحليّ، إلى عهد غير بعيد.

المرأة في الفترة القديمة:

عليّسة والأخريات...

ارتبط تاريخ تونس القديم بشخصية عليّسة مؤسسة قرطاج، التي يتداخل فيها الخيال بنصيب كبير مع الحقيقة التاريخية إلى درجة صعوبة الفصل بينهما.

وارتبطت قرطاج التي تحولّت من مدينة إلى إمبراطورية عظيمة، هيمنت مدّة قرون طويلة على المتوسّط، بعليّسة -المرأة الشجاعة والقويّة، التي تحملّت عناء السفّر والرّحلة البحرية الطّويلة، بعد أن نظمّتها بحنكة وحسن تدبير، من مدينة صور الفنيقيّة، إلى شمال إفريقيا، بحثا عن الأمن والأمان.

وفي الحقيقة يُمكن إدراج هذه الرّحلة، ضمن تلك العلاقات التّاريخية المتذبذبة، التي ربطت منذ القديم بين الشرق والغرب. وعلى غرار البطل الشّرقي الذي بادر بتأسيس مدينة طيبة (Thebes)، كانت عليسة بدورها البطلة التي طمحت إلى التوسّع أكثر منه في اتجاه الغرب، في فترة أصبحت أثناءها صور مهدّدة بالغزو الآشوري، فتقمصّت بذلك دورا أزليّا، تمثل في الاغتراب والهجرة الاضطرارية فرارا من الحرب وانعدام الأمن، والتي لا تتعدّى أن تكون في واقع الأمر سوى رحلة استكشافية يكون فيها البطل- الغريب بالطّبع- سبّاقا ومكتشفا لموقع جديد، يرتبط به شخصيّا إلى حدّ الانصهار.

وكانت عليسة التي خلدّتها الأسطورة، رمزا للمرأة البنت والأخت والزوجة، وسُحب منها دور الأم، لتُقمصّة إيّاها قرطاج، فكانت هي الأمّ- المؤسّسة لها، وأصبحت قرطاج الابنة الشرعية للزّوجين صور وعليسة.

هذا هو الدّور البارز الذي تجلّت من خلاله عليّسة في الذّاكرة التاريخية، وهو دور الأمومة والخصوبة والقدرة على منح الحياة والتّضحية في سبيل التجدّد والخلود.

وهي شخصية أسطورية وميثلوجية، ارتبطت إلى حدّ كبير بتاريخ قرطاج ومنه بتاريخ البلاد التونسية ككلّ، ضمن صيرورة متواترة بين ثلاثة رموز هي: الخصوبة والبراعة والعظمة، بشكل يكون فيها كلّ رمز سببا ونتاجا للآخر في الآن نفسه، كشرط أساسيّ للتجدّد والدّيمومة.

من جهة أخرى وبصفة غير مباشرة، تفيدنا بعض النقائش التي عثُر عليها خلال الحفريات الأثرية والتي يتراوح تاريخها من القرن الخامس إلى أواسط القرن الثاني ق م، ببعض المعلومات بخصوص الدّور الذي لعبته المرأة بصفة عامّة، في الحياة الإجتماعية والإقتصادية والسياسية والدّينية بقرطاج، حيث تُنبئنا النقائش النّدرية بالخصوص، أن نسبة هامّة منها نسائيّة، ممّا من شأنه أن يُثبت عناية المرأة بالكتابة منذ تلك الحقبة الزّمنية، وكذلك احتلالها درجة مرموقة من الحريّة وإرادة إثبات ذاتها بالإعتماد على نفسها، وهذا نستشفة مثلا من خلال مشاركتها للرّجل بصفة مستقلةّ في طقوس التّضحية المقُدّسة، وأيضا من خلال الاقتصار على ذكر نسبها في التّعريف بنفسها، دون اللّجوء إلى نسب زوجها.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

كما تُثبت نفس نوعية الوثائق أنّ بعض النسوة المنتميات إلى الأوساط الأرستقراطية بالخصوص، تولّين بعض المهام والمناصب الدّينية المعتبرة.

ولا تفوتنا الإشارة في السّياق نفسه، إلى حضور المرأة -الإلهة- في مجمع الآلهة المقدسة في الفترة القديمة والذي يبرز ضمن المنحوتات التي تمّ العثور عليها، والرّاجعة لتلك الحقبة التّاريخية بالذّات. ويمكن على سبيل المثال الإشارة إلى منحوتة باجة المعروضة بمتحف باردو والتي تعود إلى القرن الثالث بعد الميلاد، وهي تعرض مشهدا لخمسة آلهة متربعين من بينهم إلاهتين إحداهما إلاهة الولادة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نحت بارز على الحجر الكلسي يمثل مجموعة من الآلهة الإفريقية
يتوسطها الإلاه «بنكور» وقد حف بالإلاهتين «فيهنام» و«فرسيسما»
أحواز باجة القرن الثالث ميلادي المتحف الوطني بباردو

تمثال من الفخار للالهة المرضعة «ديانوتريكس»
بئر بورقيبة (تينسوت) القرن الأول ميلادي متحف نابل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والأهمّ في ذلك هو أنّ تميّز المرأة كان دائما في مثل تلك المجتمعات التقليدية القديمة الرّجالية، قائما على أساس الدّور المقدّس الذي حبتها به الطّبيعة دون الرّجل، والمتمثل كما ذكرنا في الإنجاب والأمومة.

كما تُفيدنا النقائش أنّ بعض النسوة من الأوساط الإجتماعية الأخرى كنّ يتعاطين بعض الأنشطة التجارية ويساهمن إلى جانب الرّجل في الدّورة الإقتصادية، في حين تُمارس شريحة النساء المتألّفة من ربّات البيوت، كلّ الأنشطة الأخرى والمهارات اليدوية المتمثلة بالخصوص في غزل الصّوف ونسج الأردية...

من جهة أخرى، سجلّ التاريخ القديم وجود نساء إفريقيات مارسن إلى حانب الرّجل المهن الطّبّية بمختلف أنواعها، وكذلك المهن المتّصلة بالفنّ كالموسيقى والرّقص، وإن اقتصر هذا الصّنف في غالب الأحيان، على شريحة اجتماعية خاصّة، تألّفت من اللاتّي يُمكن إدراجهنّ في زمرة العبيد والأقنان.

نقش بارز على الرخام يمثل رقصة «البخينات»
توبربومايوس 150 ق. م. المتحف الوطني بباردو

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تمثال من فخار يصور امرأة تنقر على الطبل
مقبرة قرطاج العهد البوني المتحف الوطني بقرطاج

نصب جنائزي من الحجر الكلسي يذكر نصه القابلة «كائليا بونوزا مازيكا» وزوجها موستيس
القرن الثاني ميلادي المتحف الوطني بقرطاج

دبابيس شعر من الذهب
مقبرة قرطاج العهد البوني
المتحف الوطني بقرطاج

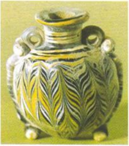

قنينة طيب من عجين الزجاج
مقبرة قرطاج القرن السادس
– الخامس ق. م.
المتحف الوطني بقرطاج

إنّ مشاركة المرأة القرطاجيّة وحضورها البارز في جميع مجالات الحياة بالمدينة لم يمنعها من العناية الدقّيقة بأنوثتها والاعتزاز بها كميزة طبيعية في الأصل، حيث كشفت الحفريات الأثرية على مجموعات ثرية من أمتعة الزيّنة الخاصّة بالمرأة، كأوعية العطور ومساحيق التّجميل ودبابيس الشعّر المصنوعة من الذّهب والعاج ... تمّ العثور عليها خاصّة في القبور الرّاجعة إلى الفترة البونية بقرطاج.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قرطان من ذهب مزخرفة برأس
بخينة لمطة القرن الرابع ق. م. المتحف الوطني بقرطاج

ولا تفوتنا الإشارة -رغم شحّ المصادر الأثرية- إلى أهميّة الدّور الذي لعبته المرأة اللّوبية في مختلف أوجه الحياة بمنطقة شمال إفريقيا، ومساهمتها في إثراء الحضارة الفنيقيّة، وقد أدّى الاختلاط بين الحضارتين إلى نشأة حضارة ثالثة، هي مزيج بينهما، أُطلق عليها حديثا اسم الحضارة البونية.

صورة لإحدى النساء اللوبيات نحتت على الكلس
مكثر العهد البوني الحديث متحف مكثر

المرأة التونسية خلال القرون الوسطى :

العهد الإسلامي

تشكل الأخبار المتعلّقة بالكاهنة وصمودها الباسل في وجه الفاتحين العرب، نهاية للفترة القديمة وبداية القرون الوسطى مع خضوع منطقة شمال افريقيا للسّلطة الإسلامية.

وتاريخيّة الكاهنة- رغم كلّ الأساطير التي تحوم حول شخصها- ثابتة، لا يُمكن الطّعن فيها أو الشكّ في انتمائها إلى قبيلة جراوة الزنّاتية، التي كانت تُمارس عليها، على ما يبدو، سلطة أدبيّة بالخصوص، مبنيّة على ما كانت تتمتّع به من بعد النظر وحدّة الإدراك، الذي خولّ لها بلوغ مرتبة القيادة.

وعلى عكس الفترة القديمة، تتميّز الآثار التي من شأنها أن تُنبئنا على مكانة المرأة في فترة القرون الوسطى بندرتها، وذلك لعدّة أسباب إجتماعية ودينية، حدّت نسبياً من دور المرأة في تلك المجتمعات التقليدية، لكن دون التّقليل من أهميّة وظيفتها الأزليّة التي قمّصها إيّاها المجتمع بثبات، والمتمثلة أساسا في إحداث التّوازن في الخليّة الأساسية للمجتمع وهي البيت والأسرة.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتتمثل أهمّ الآثار التي عثُر عليها بالنسبة لهذه الفترة في تحابيس مصاحف أنيقة، تحمل أسماء بعض النساء وُقّفت على الجامع الأعظم بالقيروان، تعود إلى العهد الأغلبي (184هـ/909م - 296هـ/800م) والعهد الزيري 362 هـ/973م - 555هـ/1060م)، ويبدو أنّ واحدة على الأقل،من الوثائق قد كتُب بخطّ صاحبتها وهي: "فضل مولاة أبي الأيوب أحمد بن محمد (295هـ/907م)، ممّا يدلّ على أنّها كانت تُحسن القراءة والكتابة، والوثيقة محفوظة بمتحف الفنون الإسلامية برقادة.

وتذكر الوثائق التي تعود إلى الفترة الزيّرية، عددا هاماً من النّساء اللاتّي ينتمين أساسا إلى البلاط الملكي في عهد الخليفة المعزّ بن باديس 406هـ/1062م-454هـ/1096م)، من بين أشهرهنّ فاطمة الحاضنة، وهي حاضنة باديس ثمّ إبنه المعز، وتروي المصادر أنّها كانت مسيحية في الأصل، ثمّ اعتنقت الإسلام والتحقت بصفّ الأميرات، ولعبت دورا هاماً في بلاط المعزّ بن باديس كوكيلة. وتذكر وثيقة التّحبيس أنّ إنجاز المصحف الذي حبسته، كان من قبل إمرأة وهي "درّة الكاتبة" وكان ذلك سنة 410هـ/1091م، وفي فترة كانت خلالها مهنة الخطّاط تحظى في جميع المجتمعات العربية الإسلامية، بمكانة مرموقة.

وتذكر تلك الوثائق أيضا أمّ ملال، وهي عمّة المعزّ بن باديس وكانت وصيّة عليه عند اعتلائه العرش في سنّ التّاسعة من عمره، ويبدو أيضا أنها كانت قبل ذلك تشارك أخاها باديس في تسيير شؤون الدّولة. وكلّ هذا من شأنه أن يعكس المكانة المتميّزة التي كانت تتمتّع بها المرأة في السّلالة الزيّرية الحاكمة، والتي يُمكن ربطها على الأرجح، بالأصل الأمازيغيّ المحليّ لهذه العائلة.

من جهة أخرى، تُشير المصادر إلى أنّ عناية المرأة بزينتها تواصل خلال هذه الفترة أيضا، ويُعزى ذلك بالطّبع، إلى تلك الرّغبة الغريزية السّاكنة في أعماق كلّ إمرأة في كلّ مكان وزمان بحكم رقّة ذوقها وحسّها الفنيّ، في البروز دائما في أبهى شكل وأحلى زينة، فنقرأ في المصادر الرّاجعة لتلك الفترة، وصفا لبذاخة لباس المرأة وحليّها، هذا إلى جانب ما تمّ العثور عليه أيضا من معدّات الزينة، كالحليّ النفيس والأمشاط العاجية والأوعية البلّورية لحفظ موادّ التجميل.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مجموعة من الحلي من الذهب تتمثل في عقود وأقراط وأساور ومناجد عثر عليها في جرّة في طربية
(قرب مدينة الكاف) الفترة الفاطمية أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي المتحف الوطني بباردو

لقد برزت المرأة "التونسية" التي تبنّت الثقافة العربيّة والإسلامية في القرون الوسطى في إفريقية، عبر أوجه عديدة ومتنوّعة، تدلّ عليها آثار جمّة في مجالات مختلفة إلى جانب خصال التقوى التّي تميزّت بها تأثّرا بالثقافة الإسلامية، والطريف أنّ نوعا آخر من المصادر يثُبت تمسكّها أيضا بـ"كرامتها" من خلال الدفّاع عن حقهّا في الخيار أن لا تشاركها إمرأة أخرى بصفة شرعية أو عن طريق التسرّي، في زوجها والذّي كان مسموحا به في تلك الفترة. و"الصدّاق القيرواني"، وإن كان يُمثل نموذجا خاصاً يُحفظ ولا يُقاس عليه، فإنّه يقيم الدلّيل على وجود هذا الفكر في شريحة إجتماعية معينّة على الأقل، ظلتّ متمسكة بمبادئ أزليّة موروثة ومتعلقّة بالنزّعة التحرّرية، التي ظلّ ينُميهّا في الإنسان حسّ الكرامة واحترام الذاّت.

وفي فترة لاحقة، وفرّت الحضارة الحفصية (1228م - 1574م)، المبنية على أسس إقتصادية متينة، ظروفا ملائمة للإزدهار الفكري والتألّق الثقافي، الذي كان من شأنه أن يجلب إلى عاصمتها تونس، نخبة نيرّة من رجال العلم والفقه من شرق العالم الإسلامي وغربه.

وزاد هذا الإزدهار التنوّع الكبير الذي ميزّ المجتمع الحفصي، نتيجة الزواج من الأجانب الذي شكلّ عادة متفشيّة في أوساط العائلة الحفصية الحاكمة، ليعُطي ثماره الزكيّة التي أينعت بأولئك الأمراء الحفصيين الذين تولوا عرش تونس، من أمثال أبي زكرياء (625هـ - 1228م / 647 هـ - 1224م) وابنه عبد الله محمدّ المستنصر (647 هـ - 1224م / 675 هـ - 1277م) وغيرهما.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فقرة من العقد تنص على شروط الزواج حسب العادة القيروانية

ونذكر من ألمع الأميرات المنتميات لهذه الأوساط، أميرتين شهيرتين خلّدتهما أعمالهما الخيرية وهنّ على التوالي:

-الأميرة عطف، زوجة مؤسس الدّولة الحفصية أبي زكرياء، التي أسّست في حدود سنة 1252م، المدرسة التوفيقيّة وجامع الهواء بجوار الأسوار الخارجية لربض مدينة تونس الجنوبي، وفي وسط الحي السّلطاني وقرب القصبة، المركز الإداري للدّولة، وأسواق المدينة.

- الأميرة فاطمة (1325 م - 1340 م)، مؤسسة المدرسة العنقية بنهج عنق الجمل.

وإلى جانب الأميرات الحفصيات، لا بدّ من الإشارة إلى فئة أخرى من النساء اللاتّي ينتمين إلى عائلات أندلسية وجيهة، اشتهرت بتألّقها العلمي والفنّي في تلك الفترة، إلى جانب الدّور الذي لعبته في الحياة السياسية بتوليّها المناصب الهامّة في الدولة الحفصية، والتي خلفّت جملة من الفقهاء المشهورين أمثال المؤرخ والعالم الإجتماعي الكبير عبد الرحمان ابن خلدون. ودأبت هذه العائلات على تعليم أبنائها من الجنسين، حيث تذكر المصادر وجود أديبات وعالمات في مثل هذه الأسر وحاذقات لمهارات يدوية وفنيّة رائعة، كالتطريز والخياطة والطّهي، التي تشكل اليوم جانبا هاماً من تراثنا الوطني الذي تناقلته الأجيال منذ القديم. والذي نسعى إلى حمايته من الإندثار، بإعتباره عنصرا رئيسياً من المكونّات الأساسية للهويةّ الوطنيةّ. ونذكر من بين النسوة الشهيرات اللاتّي عُرفن بـ"المعلمات" السيدة العبدرية قريبة الرّحالة العبدري أصيل غرناطة، وكانت هي وبناتها "معلمات" الأميرات والبنات الحفصيات، المنتميات إلى الأوساط الإجتماعية المرموقة.

ولا يفوتنا هنا الاهتمام بشخصية السيّدة المنوبية التي ميزّت مدينة تونس في القرن الثالث عشر من العهد الحفصي، فرغم انتمائها إلى وسط شعبيّ، فقد خولّ لها ذكاؤها كسب المعرفة والعلم مماّ هيأّها إلى التوّق إلى الحريةّ والأمان، وهو ما جعلها تحتلّ إلى يومنا هذا، مكانة خاصةّ في ذاكرة سكان تونس -بصفة خاصةّ- باقتران إسمها مع أسماء أشهر الأولياء الصاّلحين من أمثال أبي الحسن الشاذلي وأبي سعيد الباجي.

المرأة التونسية في الفترتين الحديثة والمعاصرة:

تميزّ وضع المرأة في عهدي الدّولة المرادية والحسينيةّ بالتشابه نسبياً مع الحالة العامةّ التي كانت عليها المرأة في العالم العربي والإسلامي في تلك الفترة، والمتسمّة بمنزلتها الدّونية بالنسبة للرّجل، والتي جعلتها منذ أواسط القرن التاسع عشر محلّ عناية خاصةّ من قبل أهل الفكر والإصلاح كأحمد بن أبي الضياف في كتابه "الإتحاف" و"رسالة في المرأة"، والوزير خير الدين التونسيّ الذي ناهض الخوف من تعليم البنت وفكرّ في تأسيس مدرسة لتعليم البنات، وحسن حسني عبد الوهاب الذي كرمّ المرأة التي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

خلدّتها أعمالها الخيرية في كتابه "شهيرات التونسيات"، وعبد العزيز الثعالبي في مؤلّفه "روح التحرّر في القرآن"... وصولا إلى المصلح الإجتماعي الطاهر الحداد، صاحب كتاب "إمرأتنا في الشريعة والمجتمع" الذي تمّ نشره سنة 1930، والذي سبّب صدوره ضجّة كبيرة في الأوساط الثقافية وخصوصا لدى أنصار التفكير التقليدي المنغلق، ذلك الذي يقلّل من شأن المرأة باعتبارها كائنا ضعيفا وعورة يجب حجبها.

وفي الحقيقة فإنّ طغيان هذا الفكر لم يمنع المرأة التونسيّة في الفترتين الحديثة والمعاصرة من فرض الذات والبروز في بعض المجالات المندرجة داخل "الحدود المعقولة" التي رسمها لها الرّجل، والمتّصلة خاصّة بالعمل الخيري والتضامني والذي لم يكن في الحقيقة إلاّ في متناول شريحة خاصّة من النسوة اللاتّي ينتمين إلى الأوساط الاجتماعية الحضرية الميسورة، ونذكر من أشهرهنّ الأميرة عزيزة عثمانة إبنة أحمد بن عثمان داي، التي عاشت خلال القرن السّابع عشر في وسط عائلي مجيد.

ويبدو حسب المصادر، أنّ أباها قد اعتنى بتربيتها وتعليمها تعليما دينياً وأدبيا، إلى جانب تدريبها بالطّبع كبنات عصرها، على القيام بدورها التقليدي والمتمثّل في العناية بشؤون المنزل. واستغلّت عزيزة عثمانة مؤسّسة الأوقاف التي كانت قائمة في تونس في عهدها، لتحبّس معظم أموالها وأملاكها على مجموعة من الأعمال الخيرية مثل تجهيز اليتامى الفقيرات عند الزواج وختان الأطفال الفقراء وافتداء الأسرى المسلمين وعلاج المرضى...

كما تشير المصادر من جهة أخرى إلى غيرها من الأسماء النسائية الهامّة في تلك الفترة، على غرار الأميرة آمنة أخت حمودة باشا، وبعض النساء اللاتّي لعبن دورا في البلاط الحسيني بتأثيرهن في اتخاذ بعض القرارات الهامّة، بحكم تقربّهن من الأمراء ورجال السّلطة.

ولعلّ الإدراك بأهميّة الدّور الذي لعبته المرأة في تحقيق التوازن في المجتمع من خلال إثبات دورها كركيزة أساسية في خليّته الرّئيسية، كزوجة وأمّ وأخت، والاحتكاك بالحداثة مع انتصاب الحماية الفرنسية على البلاد التونسية منذ سنة 1881، كان من وراء نموّ النّزعة الإصلاحية على يد كوكبة من أصحاب الأفكار النيّرة، التي التحقت بها منذ بداية القرن العشرين، نخبة مثقّفة من الشباب ممّن تلقّوا تعليما عصريا، وسرعان ما أثمرت جهودها بتأسيس أوّل مدرسة عمومية للفتيات المسلمات بتونس العاصمة في غرّة ماي سنة 1900، احتضنها في البداية، قصر كائن بنهج المستيري، ثمّ أسّس لها مبنى آخر بنهج الباشا في حدود سنة 1912، وألحقت بصفة رسمية بالحكومة التونسيّة. ثم عقب ذلك تأسيس مدارس عمومية أخرى على غرارها، في بعض الجهات الدّاخلية بالبلاد.

لقد ساهمت مدرسة نهج الباشا، التي ما فتئت تطوّر منذ نشأتها، بخطوات ثابتة ودون الإنسلاخ عن

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أسس الثقافة التونسية المحلية، وبتوفيق تامّ بين الأصالة والحداثة، في تكوين أولى الفتيات اللواتي رفعن مشعل النّضال السياسي ضدّ الإستعمار، ممّا هيّأ البعض منهنّ إلى بلوغ مراكز القيادة.

وبصفة موازية تجلى نضال المرأة التونسية من خلال مدارج الجامعة وبلوغ أعلى مراحل التّعليم العالي، وتعنّي السفر من أجل الدراسة، ونذكر في هذا المجال حصول الآنسة توحيدة بن الشيخ سنة 1936 على شهادة الإختصاص في طبّ التوليد من كليّة الطب بباريس.

غير أن هذا التطوّر التدريجي والبارز لوضعيّة المرأة التونسية في المجتمع، كان حكرا على الحضريات دون الريّفيات(*)، ممّا أدى إلى تفاقم الفوارق بين الصنّفين من النساء وتدهور وضعية المرأة في الأرياف، خاصّة في فترات البؤس الإقتصادي وما يُرافقه من فقر مدقع وجهل حالك، لم تنجو منه إلا فئات نادرة جداً من النسوة اللاتّي تمكنّ بفضل إتقانهنّ لبعض الحرف، التي قامت بتأطيرها الجمعيات الخيرية المسيحية في بعض الجهات الدآخلية بالبلاد، من المساهمة -وإن كان على حسابهنّ- في الدّورة الإقتصادية لصالح فرنسا.

إنّ مساهمة المرأة الفعالّة في معركة التّحرير التي اندلعت سنة 1952، إلى جانب شريكها الرّجل، لخير دليل على انخراطها التامّ في حركيّة الحياة العامّة في فترة ما قبل الإستقلال، وتهيئّها للمساهمة في بناء دولة الإستقلال التي أرسى أركانها الزعيم الراحل الحبيب بورقيبة.

المرأة التونسية في دولة الإستقلال :

سلكت الدّولة الحديثة المستقلّة من قيود الاستعمار، اتّجاها تقدّميّا برز من خلال إصدار مجلّة الأحوال الشخصيّة يوم 13 أوت 1956، وهي تُعتبر مثالا يُحتذى به في مجال تطويع الفقه الإسلامي لمقتضيات الحداثة، بإقرارها أحكاما هامّة لفائدة المرأة وتوازن الأسرة، مثل إلغاء نظام تعدّد الزوجات وتحديد السنّ الأدنى للزّواج وإلغاء الطّلاق التّعسفيّ وجعله من مشمولات المحاكم المدنية، فكانت المجلّة تتويجا لما تتطلّع إليه في السّابق روّاد الفكر الإصلاحي الحديث، وبادرة عهد جديد زاخر بالإصلاحات التي عزّزت مكانة المرأة في المجتمع إذ بلغت مع صدور الدّستور في غرّة جوان 1959، مرحلة المساواة مع الرّجل في الحقوق والواجبات، والتمتّع بحقّها في التّعليم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والعمل والإنتخاب، ممّا أتاح لها فرصة المشاركة في جميع هياكل الدّولة والمؤسّسات، وتولّي الوظائف السّامية التي كانت حكرا على الرّجل، ونخصّ بالذكر منها القضاء.

أما العهد الجديد فقد ساهم منذ سنة 1987، في تعزيز مكاسب المرأة التونسية والافتخار بها إذ أكّد سيادة الرّئيس زين العابدين بن علي قائلا: "... إنّ مجلّة الأحوال الشخصية، مكسب حضاري نحن أوفياء له ملتزمون به ونتفاخر به، فلا تراجع في ما حقّقته تونس لفائدة المرأة والأسرة، ولا تفريط فيه".

ومن المساواة مع الرّجل، مرّت المرأة التونسية إلى مرحلة الشّراكة والمسؤولية ككائن قائم الذّات، وهو ما جسّدته بالخصوص إجراءات 13 أوت 1992 المتمثّلة في تنقيح وتعديل أحكام هامّة في مجلّة الأحوال الشّخصية، ومجلّة الشغل والمجلّة الجنائية والمجلّة الجنسيّة، ممّا أدّى إلى إرساء فكر جديد قائم على مبدأ التعاون والاحترام المتبادل بين الجنسين تعزيزا لأركان الأسرة، كفضاء أوّل لنموّ الأطفال وتربيتهم على أسس الدّيمقراطيّة والمشاركة في تحمّل المسؤوليات، واتخاذ القرارات دون أيّ تمييز جنسيّ.

وتواصل البناء المتنامي، الهادف إلى ترسيخ مفاهيم المساواة والشراكة بين الرّجل والمرأة من خلال كلّ الإجراءات المتواصلة من سنة إلى أخرى، تعزيزا لمكاسب المرأة ومكانتها الأساسية

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

في المجتمع وإثراء حقوقها في إثبات ذاتها ككائن مستقلّ، ممّا مكنّها من تحمّل المسؤوليات الكبرى والبروز في جميع المجالات وعلى كلّ المستويات، وذلك ما تؤكده المؤشّرات التّالية التّي تدلّ على حضور المرأة التّونسية بالنسب والأرقام التاليّة حضورا وتمثيلا:

* 22،7٪ في مجلس النواب.
* 16٪ أعضاء نسائية في المجلس الإستشاري.
* أكثر من 27٪ في المجالس البلدية.
* 7٪ نساء أعضاء في الحكومة.
* 13،3٪ في المجلس الأعلى للقضاء.
* 34٪ في قطاع الإعلام.
* 12٪ من أعضاء الدواوين الوزارية.
* 32٪ في قطاع الفلاحة والصيد البحري.
* 43٪ في قطاع الصّناعة المعملية.
* 51٪ من المدرسين في التعليم الأساسي.
* 48٪ من المدرسين في التعليم الثانوي.
* 40٪ من المدرسين في التعليم العالي.
* 42٪ في قطاع المهن الطبّية.
* 72٪ في قطاع الصيدلة.
* 31٪ في قطاع المحاماة.
* 27٪ في قطاع القضاء.
* 21٪ في القطاع العموميّ.
* وتبلغ نسبة مشاركة المرأة في مجال الحياة الجمعياتيّة 42 ٪ من مجموع المنخرطين.

* المصدر: وزارة شؤون المرأة
والأسرة والطّفولة والمسنين: سنة 2005-2006

ولا يفوتنا في نهاية رحلتنا مع المرأة التونسية عبر الزمان، التأكيد عن أهميّة مساهمتها في الثقافة كسند للتّنمية الشاملة، والتّي تضرب جذورها قدما في التّاريخ، وهي في الحقيقة نتاج طاقتها الإبداعية المتميّزة في عديد المجالات الفنيّة، وهي طاقة أثرتها على مدى العصور التّاريخية، كل تلك التجارب النّاتجة عن تفاعل المرأة البنّاء مع كلّ المؤثّرات الثقافية الأجنبية، التي طوّعتها بحنكة وذكاء للمقتضيات المحليّة الحاصلة، والتي ساهمت في ترسيخها عبر العصور في الذّاكرة الجماعية الحيّة، فغدا ازدهارا وثراء فنيّا تواصل مع مرور الدّهر، في شكل خيط رفيع لم ينقطع، على الدوام. وهذا يُثبته ذلك التّشابه المذهل الذي يبرز بوضوح بين مختلف القطع والمأثورات الفنيّة، الرّاجعة إلى فترات تاريخية متباينة، والتي تعود - وإن تنوّعت وتطوّرت- إلى أصل ومنشإ واحد ضارب في القدم، كانت المرأة خلاله كائنا حرّا وقائم الذّات ومقدّسا، قادرا على الخلق والإبداع دون أيّة قيود، هذا من قبل أن يحدّد لها المجتمع

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

الرّجالي، في فترات لاحقة، ذلك الدّور الدّوني، ككائن تابع ومرؤوس، يُنسب إلى وليّ ذكر (أب أو إبن أو أخ أو زوج)، وهو دور ثانوي تقمصته المرأة طيلة قرون طويلة، تحولّت خلالها من حالتها الطّبيعية الأولّية، إلى إمرأة خاضعة ومطيعة، فثائرة وعاصية ومناضلة من أجل استرجاع مكانتها الأولّية لتُصبح اليوم، شريكة مستقلّة للرّجل ومسؤولة وصاحبة قرار.

الهوامش والإحالات

* – تعدّدت برامج العناية بالمرأة الرّيفية بعد الإستقلال وأعطت هذه السياسة نتائج باهرة زادت في تدعيمها جمهورية سيادة الرّئيس زين العابدين بن علي منذ سنة 1987 إلى اليوم.

–ابن خلدون (عبد الرّحمان)، المقدّمة، بيروت 1979.

–ابن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تونس 1963.

–حسن حسني عبد الوهاب، شهيرات التونسيّات، تونس 1965.

–الزّركشي (أبو عبد الله محمد)، تاريخ الدّولتين الموحدية والحفصية، تونس 1966.

–برانشفيك (روبار)، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15، بيروت، الطبعة الأولى، 1988.

- Gabriel Camps, L'Afrique du Nord au feminin, France 1992.

–المرأة التونسية عبر العصور، المعهد الوطني للتراث، نوفمبر 1997.

–خزانة الوثائق الفوتوغرافية للمعهد الوطني للتراث.

– مجلة المرأة، الإتحاد الوطني للمرأة التونسية، عدد 142 أوت – سبتمبر 2006.

مجلة الأحوال الشخصيّة : البعد الاجتهادي

منجية النفزي السوايحي (*)

الاجتهاد روح الدين:

إنّ الاجتهاد في الفكر الإسلامي أحد الركائز الأساسية التي يقوم عليها تجديد الدين، لأن النصوص إذا كانت متناهية والوقائع غير متناهية -وما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى- علم قطعا أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد. قال ابن حزم : "ففرض على كل أحد طلب ما يلزمه، على حسب ما يقدر عليه من الاجتهاد لنفسه في تعرف ما ألزمه الله تعالى إياه".

والأصل في حكم الاجتهاد أنه فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن البعض الآخر بدلالة القرآن الكريم: "فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذرون" (التوبة 122).

والمقصود من فرض الكفاية أن تتولى مجموعة من العلماء الأكفاء مسألة الاجتهاد وتتمحض للإستنباط بما أن الاجتهاد عند علماء الأصول "في الإصطلاح هو استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظن بحكم شرعي"(1).

المراد باستفراغ الوسع تمام الطاقة بحيث يحس من نفسه العجز عن المزيد عليه،والقصد من "الفقيه" المختص العالم احترازا عن غيره، وتفسيرٌ لتحصيل ظن"حيث لا اجتهاد في القطعيات، وأما "حكم شرعي"ليخرج ما يدخل في الحسيات والعقليات المحضة فإنه ليس من دور للفقيه في استنباط الأحكام. وهكذا يتضح لنا الأمر، فالاجتهاد يقوم على ركنين وهما المجتهد والمجتهد فيه. فالمجتهد من اتصف بصفة الاجتهاد -على التفسير السابق- والمجتهد فيه حكم ظني شرعي عليه دليل (2) يحتاج إليه الناس "لأن الوقائع في الوجود لا تنحصر، فلا يصح دخولها تحت الأدلة المنحصرة، ولذلك احتيج إلى فتح باب الاجتهاد من القياس وغيره، فلا بد من حدوث وقائع لا تكون منصوصا على حكمها، ولا يوجد للأولين فيها اجتهاد، وعند ذلك فإما أن يترك الناس فيها مع أهوائهم أو ينظر فيها بغير اجتهاد شرعي، وهو أيضا اتباع للهوى وذلك كله فساد، فلا يكون بد من التوقف لا إلى غاية وهو معنى تعطيل التكليف لزوما، وهو مؤدّ إلى تكليف ما لا يطاق، فإذن لا بد من الاجتهاد في كل زمان لأن الوقائع المفروضة لا تختص بزمان دون زمان"(3).

واستقراؤنا لتاريخ الفقه الإسلامي وللتفسير وللمقاصد يثبت أن الاجتهاد لازم الثقافة الإسلامية نصا وعرفا وتقليدا، ونعني بالتقليد هنا حسن القدوة بالأولين من الصحابة والتابعين والسلف الصالح، ومن الفهم المعكوس أن يقال إن الاجتهاد لازم في عصر

* أستاذة بجامعة الزيتونة عضو مجلس المستشارين.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

النبوة والنصوص من الكتاب تتوارد، والسنة من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم حاضرة ثم يقضي ذلك العهد فيحرم الاجتهاد وهو الموئل الوحيد لفهم النصوص وتصحيح العمل بالفرائض والأحكام (4).

فما هو نصيب مجلة الأحوال الشخصية التونسية من الاجتهاد؟

إن رجال الفقه والقانون في تونس استندوا إلى مصادر التشريع الإسلامي في وضع أحكام هذه المجلة وأولها القرآن الكريم ثم الحديث النبوي الشريف ثم الفقه الإسلامي والاجتهاد العقلي. وبما أن موضوع "القرآن الكريم من مصادر مجلة الأحوال الشخصية" مركز اهتمامنا في هذه الدراسة فإني سأقتصر على هذا الجانب منتهجة أسلوب المقارنة للاستدلال على أن أحكام المجلة مستمدة في أصولها من القرآن الكريم، وسأنتقي بعض النماذج للتمثيل والاستدلال.

I - الزواج :

1 - الخطبة في القرآن :

يقول الله تعالى: "ولا جناح عليكم فيما عرّضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم" (البقرة 235) وقد "أتاح الله تعالى أن يعرض الرجل للمرأة في العدة بأمر الزواج تعريضا، وقرن ذلك بما يكون في النية في القلب وألزم المستكن في الضمير"(5)، ونهى عن المواعدة سرا، لأن الخطبة لا تكون في السر فقال عز وجل: "لا تواعدوهن سرا إلا أن تقولوا قولا معروفا ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه، واعلموا أن الله غفور حليم" (البقرة: 235).

واستمدادا من هذه الآيات القرآنية جاء الفصل الأول من مجلة الأحوال الشخصية "كل من الوعد بالزواج والمواعدة به لا يعتبر زواجا ولا يقضى به".

إذا تمت الخطبة وقدم الخاطب هدايا لخطيبته وقد يعقد عليها ولكن لا يحصل الدخول فما هو حكم تلك الهدايا إذا لم يتم الزواج في القرآن الكريم؟ يقول تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسّوهن فما لكم عليهنّ من عدّة تعتدّونها فمتّعوهنّ وسرّحوهنّ سراحا جميلا" (الأحزاب: 49).

ويقول عز وجل: "وإن طلقتموهن من قبل أن تمسّوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير" (البقرة: 237).

والآيتان واضحتان كمصدر أساسي بأحقية الخاطب في استرداد ما قدم لخطيبته من هدايا قبل الزواج (6).

واجتهد علماء تونس من رجال القانون والشريعة في ضوء القرآن وموافقة تطور الزمن ومكنوا البنت أيضا من حقها في استرداد الهدايا التي تقدمها للخطيب بمقتضى القانون عدد 74 لسنة 1993 المؤرخ في 12 جويلية 1993 والمتعلق بتنقيح بعض فصول مجلة الأحوال الشخصية. وقد أقر هذا التنقيح المساواة بين الخطيبين في استرداد الهدايا إلغاء لأشكال التمييز تجاه المرأة، وكان هذا الفصل قبل التنقيح ينصّ على حق الخاطب وحده في استرداد الهدايا مع أن الواقع قد أصبح يفيد خلاف ذلك في عديد الحالات تبعا لاشتغال المرأة واستقلال ذمتها المالية وتغير العقليات والأعراف. ونص الفصل القديم: "يسترد الخاطب الهدايا التي يقدمها إلى خطيبته إلا إذا كان العدول من قبله أو وجب شرط خاص" (7).

2 - شرط الرضا بين الزوجين:

يقول الله تعالى: "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة" (الروم 21)، ومعلوم أن المودة والرحمة والسكن لا تتحقق كلها إلا بوجود شرط الرضا بين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الزوجين. وقد أبطل القرآن الكريم زواج زينب بنت جحش لأنها لم تكن راضية عن زواجها بزيد المولى فقال تعالى: "فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا" (الأحزاب: 37). كما نهى القرآن عن عضل النساء أن يزوجن إذا وجد الرضا بهذه الآية: "وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف" (البقرة 232).

وجاء الفصل الثالث من مجلة الأحوال الشخصية لينص على هذا الشرط: "لا ينعقد الزواج إلا برضاء الزوجين، ويشترط لصحة الزواج إشهاد شاهدين من أهل الثقة وتسمية مهر للزوجة". وقد اشترط شاهدين من أهل الثقة وهو ما اتفق عليه أبو حنيفة والشافعي ومالك، وفي الإشهاد إقرار لما أمضاه الولي والزوجان، ابعادا لهذه العلاقة عن أن تكون عبثا أو سفاحا، وتقريرا لهذه العلاقة الناشئة والتي ستكون بمثابة خطوة أولى لإعلان هذا الزواج، وحمل المجتمع على الاعتراف بهذه العلاقة اعترافا يأخذ قوة القانون. إن العلاقة الزوجية اجتماعية ونواة للبنة توضع في بناء المجتمع وعما قليل ستأخذ من المجتمع وتعطيه.

واشترط تسمية المهر أيضا للزوجة فقال تعالى: "وآتوا النساء صدقاتهن نحلة" ولقوله عز وجل: "فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن".

وكل ما جاز أن يكون ثمنا وقيمة لشيء جاز أن يكون صداقا(8) وهو مطابق للفصل 12 من مجلة الأحوال الشخصية "كل ما كان مباحا ومقوما بمال تصلح تسميته مهرا وهو ملك للمرأة.

3. شرط الولي في الزواج:

الولي هو الأب أو القريب ذو العصبة حسب قول مالك والشافعي والليث وغيرهم، فليس للخال ولا ولد الأم ولا الأخوة من الأم ونحو هؤلاء ولاية، وخالفت الحنفية فاعتبرتهم من الأولياء (9) ومن لا ولي له فالسلطان ولي أو من ينوبه، ويسمى وليا لأنه هو الذي يتولى عقد الزواج بعد أن يشاور صاحب الأمر، وهي البنت ويتفاهم معها بما يحقق صالحها (10-11) عملا بقوله تعالى: "وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم (النور: 32) ويقول عز وجل: "ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا" (البقرة 221).

يمكن هنا أن نجمع بين هذه الفصول المستقاة من هذه الأصول وهي الفصل السادس من مجلة الأحوال الشخصية "زواج القاصر يتوقف على موافقة الولي والأم وإن امتنع الولي أو الأم عن هذه الموافقة وتمسك القاصر برغبته لزم رفع الأمر للقاضي، والإذن بالزواج لا يقبل الطعن بأي وجه".

وتميز هذا الفصل في صياغته الجديدة بعد تنقيح 1993 بإضافته موافقة الأم إلى جانب موافقة الولي كما نص صراحة على عدم إمكانية الطعن في الإذن بالزواج حلا لما طرح من إشكالات في التطبيق وكان موضوع اختلاف في الاجتهاد القضائي على حد عبارة القاضي الأستاذ محمد الحبيب الشريف (12).

والفصل الثامن من المجلة "الولي هو العاصب بالنسب ويجب أن يكون عاقلا ذكرا رشيدا والقاصر ذكرا كان أو أنثى وليه وجوبا أبوه أو من ينيبه والحاكم ولي من لا ولي له".

والفصل التاسع من المجلة "للزوج والزوجة أن يتوليا زواجهما بأنفسهما وأن يوكلا من شاء وللولي حق التوكيل أيضا".

4. موانع الزواج:

أ- موانع مؤبدة بالنسب أو المصاهرة والطلاق ثلاثا:

يقول الله تعالى في النسب والمصاهرة: "ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف، إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا، حرّمت عليكم أمهاتكم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبناتكم وأخواتكم وعمّاتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة، وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نساءكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف، إن الله كان غفورا رحيما" (النساء22-23).

ويقول تعالى في الطلاق ثلاثا: "الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان"، "فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره" (البقرة 229- 230).

ب- موانع مؤقتة:

تتعلق هذه الموانع بحق الغير في زواج أو بالعدة، حق الغير في الزواج نقرأه في سورة النساء بعد أن حرم الله النساء بالنسب أو المصاهرة ذكر هذه الآية: "والمحصنات من النساء" (النساء 24) والمحصنات هن ذوات الأزواج.

وجاءت العدة في قوله تعالى: "والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر" (البقرة 228).

وجاء أيضا قوله: "واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر، واللائي لم يحضن، وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن" (الطلاق: 4). وكذلك هذه الآية: والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا" (البقرة: 234).

وطابقت الفصول 14-15-16-17- 20-19، من مجلة الأحوال الشخصية هذه الآيات القرآنية مطابقة تامة.

وهذا نص الفصل 14: "موانع الزواج قسمان مؤبدة ومؤقتة، فالمؤبدة القرابة والمصاهرة أو الرضاعة أو التطليق ثلاثا، والمؤقتة تعلق حق الغير بزواج أو بعدة".

ونقرأ في الفصل 15: "المحرمات بالقرابة أصول الرجل وفصوله وفصول أول فصوله، وأول فصل من كل أصل وإن علا. ونتأمل في الفصل 16 "المحرمات بالمصاهرة أصول الزوجات بمجرد العقد وفصولهن بشرط الدخول بالأم زوجات الآباء وإن علوا وزوجات الأولاد وإن سفلوا بمجرد العقد. ونجد في الفصل 17 "يحرم بالرضاعة ما يحرم من النسب والمصاهرة، ويقدر الطفل الرضيع خاصة دون إخوانه وأخواته ولدا للمرضعة وزوجها، ولا يمنع الرضاع من النكاح إلا إذا حصل في الحولين الأولين.

ونقرأ في الفصل 17 يحجر على الرجل أن يزوج مطلقته ثلاثا" وفي الفصل 20 يحجر التزوج بزوجة الغير أو معتدّته قبل انقضاء عدتها.

5- منع تعدد الزوجات:

منع الفصل 18 من مجلة الأحوال الشخصية تعدد الزوجات في تونس منذ 50 سنة عن طريق الاجتهاد استنباطا من قوله تعالى: "فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة" (النساء: 3). يقول ابن عاشور في هذه الآية: "فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة أي فواحدة لكل من يخاف عدم العدل... ثم يتابع والإسلام هو الذي جاء بالتحديد، فأما أصل التحديد فحكمته ظاهرة من حيث أن العدل لا يستطيعه كل أحد، وإذا لم يقم تعدد الزوجات على قاعدة العدل بينهن اختل نظام العائلة وحدثت الفتن فيها ونشأ عقوق الزوجات لأزواجهن، وعقوق الأبناء آباءهم بأذاهم في زوجاتهم وفي أبنائهم فلا جرم إن كان الإيذاء في التعدد لمصلحة يجب أن تكون مضبوطة غير عائدة على الأصل بالإبطال" (13).

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتأتي الآية 129 من سورة النساء لتحسم أمر التعدد بقوله عز وجل: "ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم".

وبعد استقراء هذه الآيات جاء الفصل 18 من المجلة ونصه "-تعدد الزوجات ممنوع.

- كل من تزوج وهو في حالة الزوجية وقبل فك عصمة الزواج السابق يعاقب بالسجن لمدة عام وبخطية قدرها مائتان وأربعون ألف فرنك أو بإحدى العقوبتين ولو أن الزواج الجديد لم يبرم طبق أحكام القانون.

- ويعاقب بنفس العقوبة كل من كان متزوجا على خلاف السير الواردة بالقانون عدد3 لسنة 1957 المؤرخ في 4 محرم 1377 (أول أوت)1957 والمتعلق بتنظيم الحالة المدنية ويبرم عقد زواج ثاني ويستمر على معاشرة زوجه الأولى.

- ويعاقب بنفس العقوبات الزوج الذي يتعمد إبرام عقد زواج مع شخص مستهدف للعقوبات المقررة بالفقرتين السابقتين.

- ولا ينطبق الفصل 53 من القانون الجنائي على الجرائم المقررة بهذا الفصل".

6- العلاقة بين الزوجين :

يعتبر القرآن الزواج عقدا متينا يبرمه الزوج مع زوجته بعد الرضا وتزكية الأولياء وحضور الشهود وتقديم المهر والاحتفال يقول تعالى: "وأخذن منكم ميثاقا غليظا" (النساء: 21) ماذا يقتضي هذا الميثاق؟

يوجب هذا الميثاق على الزوج حسن معاشرة زوجته لقوله تعالى: "وعاشروهن بالمعروف" (النساء: 19) وعدم إلحاق الضرر بها لقوله تعالى: "ولا تضاروّهنّ لتضيّقوا عليهن" (الطلاق: 6) ويوصي القرآن بالصبر على المكروه في العلاقة الزوجية بهذه الآية الكريمة: "فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا".

كما يوصي المرأة بحسن معاشرة زوجها حيث لها دور كبير ومساهمة فعالة في الحفاظ على كيان الأسرة وصيانتها من التشتت إذا تفهمت معاني هذه الآية: "ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف" (البقرة: 228) ونفهم أيضا من هذه الآية أنه ليس للزوج أن يبغي على حقوق زوجته وإلا كان ظالما متجاوزا وليس من حق المرأة أن تبغي على حقوق زوجها وإلا كانت ظالمة متجاوزة (14).

وبنيت الأسرة في الإسلام على التعاون والاحترام المتبادل لقوله عز وجل: "وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان" (المائدة: 29) ولإبراز قوة هذا التعاون ومتانة العلاقة الزوجية قال تعالى: "هن لباس لكم وأنتم لباس لهن".

وهو ما نجده في الفصل 23 من مجلة الأحوال الشخصية بهذه العبارة "على كل واحد من الزوجين أن يعامل الآخر بالمعروف ويحسن عشرته ويتجنب إلحاق الضرر به.

ويقوم الزوجان بالواجبات الزوجية حسب ما يقتضيه العرف والعادة ويتعاونان على تسيير شؤون الأسرة وحسن تربية الأبناء وتصريف شؤونهم، بما في ذلك التعليم والسفر والمعاملات المالية.

عملا بالاجتهاد ومسايرة للزمن أبقى تنقيح 1993 الذي طرأ على هذا الفصل رئاسة الأسرة للأب ولكنه أوكل للزوجة دورا أكثر فاعلية في تسيير شؤون الأسرة والإشراف على مصالح الأولاد، وأتى بمفهوم راق يتمثل في سن مبدإ التعاون بين الزوجين، وإلغاء واجب الطاعة والرعاية الذي كان محمولا على الزوجة رفعا من مكانتها في الأسرة ومن اعتبارها في نظر زوجها. ومن جهة أخرى أوجب على الزوجة الإنفاق على العائلة إذا كان لها مال تكريسا لتطور وضعيتها الاقتصادية والاجتماعية وترسيخا لمفهومي التعاون بين الزوجين والتكافل العائلي بعبارة الأستاذ القاضي محمد الحبيب الشريف(15).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

II. الإنفاق على الأسرة واجب:

أ- الزوجة:

ألزم القرآن الزوج أن ينفق على زوجته وعلى أولاده قال تعالى: "وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف" تشير الآية إلى أن النفقة واجبة على الرجل، وبما أن الأم استحقت النفقة بسبب الولادة فالولد من باب أولى وأحرى ،وأوجبت الآية نفقة الولد على الوالد بدلالة اللزوم وهو ما أقره الفصل 37 و38 ونص الأول "أسباب النفقة: الزوجية والقرابة والإلزام"

وقد أشار القرآن إلى الإلزام والقرابة لهذه الآية : "أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة " (البلد: 14-15).

وعبارة الثاني "يجب على الزوج أن ينفق على زوجته المدخول بها وعلى مفارقته مدة عدتها.

ب- الأبوان :

تحت بر الوالدين فرض القرآن الكريم على الأبناء الإنفاق على آبائهم وحسن معاملتهم والرأفة بهما فقال تعالى: "وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيرا" (الإسراء 23-24).

وقرن القرآن عبادة الله والإقرار بالتوحيد بالإحسان إليهما كما ربط شكره تعالى بشكر الوالـدين فقــال: "أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير" (لقمان: 14)، مما يبرز مكانة بر الوالدين في الإسلام وهذا يفرض عليهم الإنفاق على الآباء المحتاجين منهم وأن يقدموا هديا للأغنياء منهم مع الزيارة وتلبية الطلبات ما لم تكن معصية، لقوله تعالى: "ووصيّنا الإنسان بوالديه حملته أمّه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك إليّ المصير. وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا (لقمان: 14-15). فحقّ الوالدين في حسن المعاملة والرفق والعبارة اللطيفة الطيبة مكفول لهم وإن كان من المشركين.

وترسيخا لهذا التوجه الذي ينعكس على العلاقات الأسرية والاجتماعية إيجابا، ويوطد أواصر المحبة بين أفرادها ويربي النشء على احترام الصغير للكبير، فإن مجلة الأحوال الشخصية تضمنت هذا في الفصل 43 "المستحق للنفقة بالقرابة صنفان:

- الأبوان والأصول من جهة الأب وإن علوا، ومن جهة الأم في حدود الطبقة الأولى.
- الأولاد وإن سفلوا:

ويعود الفضل في إضافة جملة "من جهة الأم في حدود الطبقة الأولى إلى تنقيح 1993 الذي متع أبوي الأم بإنفاق حفيدهما أو حفيدتهما عليهما قياسا عكسيا على استحقاق الأحفاد من جهة البنت في تركة الأجداد والجدات بوجه الوصية الواجبة كما حددها الفصل 19 من مجلة الأحوال الشخصية وتدعيما للتكافل العائلي والاجتماعي(16).

ونفهم مما جاء في القرآن ومما جاء في هذا الفصل أن الإنفاق على الأبوين والأجداد واجب وليس منة ولا تفضلا من الأبناء، وكذلك بنص الفصل 44 من مجلة الأحوال الشخصية "يجب على الأولاد الموسرين ذكورا وإناثا الإنفاق على من كان فقيرا من الأبوين ومن أصول الأب وإن علوا ومن أصول الأم في حدود الطبقة الأولى".

وتفصيلا للموضوع، وحتى لا يتفصّى الأبناء من الإنفاق على الآباء والأجداد أو يطالب بعضهم بعضا بالتسوية في نسبة الإنفاق عليهم وضح الفصل 45 المسألة بهذه العبارة "إذا تعدد الأولاد وزعت النفقة على اليسار لا على الرؤوس ولا على الارث".

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ج- الأولاد:

كرّم الإسلام الطفولة وأوجب رعايتها منذ نعومة أظفارها، فأوصى القرآن بالرضاعة في هذه الآية: "والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة" (البقرة: 233) وأمر بالنفقة عليهم في أكثر من آية:

"يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم" (البقرة: 267)

"يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم" (البقرة: 254)

"آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه" (الحديد: 7)

وفي الحديث النبوي الشريف "أفضل دينار ينفقه الرجل، دينار ينفقه على عياله" (17) ورفع عليه الصلاة والسلام مكانة من ينفق على عياله ولا يهملهم لقوله: "وأي رجل أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال له صغار" (18).

وساندت القوانين التونسية المتعلقة بالأحوال الشخصية ما جاء به القرآن والحديث، ففصلت الإنفاق وفرضته على الآباء في الفصل 46 من المجلة "يستمر الإنفاق على الأبناء حتى بلوغ سن الرشد أو بعده إلى نهاية مراحل تعلمهم على أن لا يتجاوزوا الخامسة والعشرين من عمرهم، وتبقى البنت مستحقة للنفقة إذا لم يتوفر لها الكسب أو لم تجب نفقتها على زوجها كما يستمر الإنفاق على الأبناء المعوقين العاجزين عن الكسب بقطع النظر عن سنهم". وتميز هذا الفصل -بفضل تنقيح 1993- بإقرار حق البنت في الإنفاق عليها إلى أن تتزوج ومدّدت في استحقاق الابن للنفقة إلى سن العشرين بدلا عن السادسة عشرة في الفصل القديم، ويستحق الإنفاق من يواصل تعلمه من الأبناء حتى بلوغه 25 سنة، أما الأبناء المعوقون ذكورا وإناثا فحقهم في الإنفاق عليهم لا حدّ زمني له إذا كانوا من غير القادرين على الكسب والإنفاق على أنفسهم(19).

واهتمت المجلة أيضا بحق الطفل في الرضاعة كما جاء في القرآن حيث نقرأ في الفصل 48 من المجلة "على الأب أن يقوم بشؤون الإرضاع بما يقتضيه العرف والعادة إذا تعذر على الأم إرضاع الولد." وقد قال تعالى "فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى" (الطلاق: 6).

ويمكن للأم أن تنفق على ولدها بنص هذا الفصل 47 "الأم حال عسر الأب مقدمة على الجد في الإنفاق على ولدها "ولها أن تشارك في الإنفاق عليهم وجوبا إذا كان لها مال حسب ما جاء في الفصل 23 "وعلى الزوجة أن تساهم في الإنفاق على الأسرة إذا كان لها مال".

د- الإنفاق على الغير:

مساعدة غير الأبناء والأبوين مكفول في الإسلام وتظهر بارزة في العناية بالأيتام والمساكين، فحرضت الآيات على مساعدتهم، يقول تعالى: "أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة" (البلد: 14-15) وأوصى بالحفاظ عليهم وعلى أموالهم إن كانوا ممن لهم أموال وهم صغار فقال عزّ من قائل: "وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا" (النساء: 2). وقال في باب التعريض بمن يعتدي على مال اليتيم متوعدا له بالعذاب الشديد: "إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا" (النساء: 10).

وكذلك أوصى القرآن بضرورة الاهتمام باليتامى إناثا وذكورا بهذه الآية الكريمة: "وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما" (النساء: 127). فمن حق الأيتام أن يحظوا بعناية خاصة، وقد بين القرآن الكريم أن من الأفعال الخيرية التي يتم بها اقتحام العقبة إطعام اليتيم من الأقارب أيام

المجاعة فقال تعالى: "أو إطعام في يوم ذي مسغبة، يتيما ذا مقربة" (البلد: 14-15) وقال صلى الله عليه وسلم: "أنا وكافل اليتيم في الجنة" (20) ومواصلة لهذه الدعوة الصريحة إلى العناية بأفراد المجتمع، فمن التزم بنفقة الغير وجبت عليه في الفصل 49 من مجلة الأحوال الشخصية ونصه: "من التزم بنفقة الغير كبيرا كان أو صغيرا لمدة محدودة لزمه ما التزمه، وإن كانت المدة غير محدودة وحددها، فالقول قوله في ذلك". وحدد الفصل 50 من نفس المجلة ما تشمله النفقة: "تشمل النفقة الطعام والكسوة والمسكن والتعليم وما يعتبر من الضروريات في العرف والعادة"، وتكون النفقة على قدر حال المنفق حسب الفصل 52 من المجلة: "تقدر النفقة بقدر وسع المنفق والمنفق عليه وحال الوقت والأسعار" حسب قوله تعالى: "لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها" (الطلاق: 7).

III - الطلاق:

1 - الطلاق أبغض الحلال إلى الله:

شريعة القرآن الكريم في مسألة الطلاق شريعة دين ودنيا، وكل ما اشتملت عليه من حرمات الدين تابع لما شرع الله له الزواج من المصلحة النوعية والمصلحة الاجتماعية فليس مما يبيحه الإسلام أن يتجرد الزواج من مصلحته النوعية الاجتماعية تغليبا للصبغة العبادية على مشيئة الأزواج(21). ولهذا فإن الطلاق في الإسلام مكروه وهو أبغض الحلال إلى الله، وقد وضع له قيودا للحد منه، فالطلاق لغير ضرورة محرّم وممنوع لقوله عليه الصلاة والسلام: "لا ضرر ولا ضرار" (22). ويرفض الإسلام الطلاق التابع للأهواء والشهوات يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا أحب الذواقين من الرجال والذواقات من النساء" (23). ويقول: "إن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات" (24). ويحاول القرآن تعطيل الطلاق بمختلف الطرق ومنها محاولة الصلح بين الزوجين عند التخاصم بهذه الآية: "وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفّق الله بينهما، إن الله كان عليما خبيرا" (النساء: 35). ونفس المعنى جاء في الفصل 25 من مجلة الأحوال الشخصية: "إذا شكا أحد الزوجين من الإضرار به، ولا بينةّ له وأشكل على الحاكم تعيين الضرر بصاحبه يعين حكمين، وعلى الحكمين أن ينظرا فإن قدرا على الإصلاح أصلحا ويرفعان الأمر إلى الحاكم في كل الأحوال". ويوافقه أيضا ما نقرأ في الفصل 32 من المجلة "يختار رئيس المحكمة قاضي الأسرة من بين وكلائه ولا يحكم بالطلاق إلا بعد أن يبذل قاضي الأسرة جهدا في محاولة الصلح بين الزوجين ويعجز عن ذلك" فإذا تعذر الصلح عندها فقط يكون الطلاق. وتطبيقا لكل هذه الاحتياطات، وتعطيلا للأسباب التافهة التي قد تعصف بعلاقة الزواج رأى رجال القانون ورجال الشريعة أن يصبح الطلاق بيد المحكمة كما يشير الفصل 30 من المجلة "لا يقع الطلاق إلا لدى المحكمة" لما فيه من فوائد تعود على حماية الأسرة من التفكك، وحماية المرأة من أهواء الرجل الذي قد يسرع في الطلاق لأتفه الأسباب، وتحقيقا للمساواة بين الجنسين في التقاضي، وحماية للطفولة مما قد تعانيه من آثار الطلاق وتوحيدا للقانون وللقضاء في البلاد التونسية في قضايا الأحوال الشخصية خاصة وفي قضايا الطلاق بوجه خاص، وتنظيما للحالة المدنية بما يتماشى وتطور الزمن وما تطبقه الدول العصرية الخاضعة لدراسات اجتماعية وديمغرافية وسياسية ولمخططات تنموية(25).

2 - تشريع الطلاق في القرآن:

يقول الله تعالى: "يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم" (الطلاق: 1) وفي سورة البقرة: "للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

رحيم، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم، والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا" (البقرة: 226- 228).

ويقول تعالى: "واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن" (الطلاق: 4).

وحسب ما جاء في القرآن لا يحق للرجل أن يخرج المرأة من بيتها بعد طلاقها وقبل انتهاء عدتها "ولا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة" (الطلاق: 1) وفي بقاء الزوجة في بيتها مدة العدة حيث يحرم عليها الخروج منه ويحرم على الزوج أن يخرجها بغير حق فائدة كبيرة لأنه في مدة العدة قد يراجع الزوج نفسه وكذلك المرأة ويتم الصلح خلال الطلاق الأول والثاني لأن وجود المرأة في البيت مع الزوج قد يغير الأحوال إلى الأحسن ولذلك يقول تعالى: "وتلك حدود الله ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه ولا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا" (الطلاق: 1).

ومن هنا نلاحظ التوافق بين الفصل 34 من مجلة الأحوال الشخصية ونصه "يجب على كل امرأة فارقها زوجها بطلاق بعد الدخول أو مات عنها قبل الدخول أو بعده أن تتربص مدة العدة المبينة بالفصل الآتي" وهو الفصل 35 وعبارته "تعتد المطلقة غير الحامل مدة ثلاثة أشهر كاملة وتعتد المتوفى عنها زوجها مدة أربعة أشهر وعشرة أيام كاملة. أما الحامل فعدتها وضع حملها وأقصى مدة الحمل سنة من تاريخ الطلاق أو تاريخ الوفاة" واستنادا إلى القرآن رأى القاضي حسب الفصل 32 من مجلة الأحوال الشخصية "عند وجود ابن قاصر أو أكثر تتكرر الجلسة الصلحية ثلاث مرات على أن تعقد الواحدة منها ثلاثين يوما بعد سابقتها على الأقل ويبذل خلالها القاضي مزيدا من الجهد للتوصل إلى الصلح، ويستعين بمن يراه في ذلك" وبدقة التأمل تبدو لنا العلاقة بين بقاء المرأة طيلة العدّة في بيتها أملا في الإصلاح وبين عقد جلسات الإصلاح هذه.

3. أنواع الطلاق:

يقول الله تعالى: "الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تصريح بإحسان" (البقرة: 229). إذ يمكن للزوج أن يعيد زوجته إلى عصمته بعد الطلقة الأولى والثانية، فإذا طلقّها الثالثة لا تحلّ له إلا بعد زواج من غيره بمقتضى قوله تعالى: "فإن طلقّها فلا تحلّ له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقّها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنّا أن يقيما حدود اللّه وتلك حدود اللّه يبيّنها لقوم يعلمون" (البقرة: 230).

وجاء الفصل 19 من مجلة الأحوال الشخصية ليعلن أنه "يحجر على الرجل أن يتزوج مطلقته ثلاثا" وذكر الفصل 31 من المجلة أنواع الطلاق وهي ثلاثة بالتراضي وبناء على طلب أحد الزوجين بسبب ما حصل بضرر وبناء على رغبة الزوج إن شاء الطلاق أو مطالبة الزوجة به حسب قوله تعالى "فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما" (البقرة 233) واستنادا كذلك إلى الفقه الإسلامي مع إدخال أحكام جديدة لصالح الأسرة والمرأة عملا بما جاء في القرآن الكريم الذي حرم مضارتها بالطلاق فقال تعالى: "وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه" (البقرة: 231). ولا يحق للزوج كذلك أن يضار زوجته لتفتدي نفسه منه برد ما قدمه لها من المال كله أو بعضه فقال تعالى: "ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة" (النساء: 15).

وحرم الشرع على الرجل إن كان هو المطلق أن

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

يأخذ شيئا مما أهداه لزوجته فقال تعالى: "وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا" (النساء: 20)، هذا بعد الدخول بها. أما قبل الدخول بها ففي القرآن الكريم: "وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفوا الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير" (البقرة: 237).

كما حرم الإسلام على الزوج الذي يسرح زوجته بإحسان أن يأخذ شيئا مما أعطاها بهذه الآية "ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا" (البقرة: 229). واجتهادا جاء الفصل 28 من مجلة الأحوال الشخصية ليضع هذا القانون "الهدايا التي يعطيها كل واحد من الزوجين للآخر بعد العقد يتم استرداد ما بقي منها قائما ولو تغير إذا وقع الفسخ قبل البناء بسبب من الطرف الآخر، ولا يتم استرجاع شيء منها بعد الدخول" وأقرت الصياغة الجديدة بعد تنقيح 1993 المساواة بين الزوجين في استرداد الهدايا المقدمة بعد عقد الزواج وقبل الدخول إلغاء لأشكال التمييز بين الجنسين ومراعاة للوضعية الجديدة للمرأة واستقلالها الاقتصادي ومحافظة على أصل القرآن فيما يتعلق بهذه الهدايا بعد الدخول وقد طابق الفصل 33 من المجلة ما جاء في القرآن "إذا وقع الطلاق قبل الدخول فللزوجة نصف المسمى من المهر".

4 ـ حق المطلقة وحق أولادها:

نجد لهذا الحق أصولا في القرآن الكريم ذكرنا بعضا منها في قوله تعالى "واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه" (الطلاق: 1).

وفي آية أخرى: "وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين" (البقرة: 241) كما قال جل ذكره: "أسكنوهن من حيث سكنتم من وُجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن، وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى" (الطلاق: 6). وفي نفس السورة "لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله" (الطلاق: 7).

فللمطلقة وأبنائها حق السكن والإنفاق حسب ما ورد في هذه الآيات القرآنية وخاصة قوله تعالى: "لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده" (البقرة: 233).

وقد تدعمت هذه الحقوق وتطورت بفضل فكر أهل القانون والشريعة المجتهدين دون خروج عن الأصول، فتم ضبط حقوق الأم والأبناء في الفصلين 30 ـ31 من مجلة الأحوال الشخصية ومن أهمه التعويض عن الضرر المادي والمعنوي لمن تضرر من الزوجين بسبب الطلاق وخصت المرأة المتضررة بجراية عمرية حسب ما جاء في الفصل 30 من هذه المجلة: "وعلى قاضي الأسرة أن يتخذ ولو بدون طلب جميع القرارات الفورية الخاصة بسكن الزوجين وبالنفقة وبالحضانة وبزيارة المحضون ويمكن للطرفين أن يتفقا صراحة على تركها كلا أو بعضا ما لم تتعارض ومصلحة الأبناء القصر" كما جاء في الفصل 31. وتسهيلا لحياة الأطفال وحماية لهم من التشرد شدد القانون التونسي على من يهمل عياله ويحكم بالسجن على من لا يفي حق أبنائه ومفارقته في النفقة، وأحدث صندوق ضمان النفقة وجراية الطلاق في الفصل 53 مكرر من مجلة الأحوال الشخصية إثر تنقيح 1993.

IV ـ الميراث:

أقر القرآن أحكام الميراث ومنها أن لا يقسم الميراث إلا بعد تنفيذ الوصية وخلاص الدين يقول

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

تعالى: "يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كنّ نساء فوق اثنتين فلهنّ ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين" (النساء: 11) ويواصل القرآن التأكيد على الوصية والدين فيقول: "ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهنّ ولد فإن كان لهنّ ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين، ولهنّ الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهنّ الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهم السدس، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين، غير مضارّ وصية من الله والله عليم حليم" (النساء: 12).

ويطابق الفصل 87 من مجلة الأحوال الشخصية القرآن الكريم مطابقة تامة ونصه: "يؤدى من التركة بحسب الترتيب:

- الحقوق المتعلقة بعين التركة
- مصاريف التجهيز والدفن
- الديون الثابتة في الذمة
- الوصية الثابتة النافذة
- الميراث

فإذا لم يوجد ورثة آلت التركة أو ما بقي إلى صندوق الدولة". وتأتي فصول مجلة الأحوال الشخصية بدءا من الفصل 89 وانتهاء إلى الفصل 152كلها لتفصل قضية الميراث تفصيلا دقيقا لم يخرج عما جاء في القرآن الكريم. ويأتي الكتاب الحادي عشر الوصية لتضبط فصوله في المجلة من الفصل 171 إلى الفصل 199 مسائل الوصية دون خروج عن أصل الكتاب العزيز.

هكذا تسير أحكام مجلة الأحوال الشخصية وما صدر بها من ملاحق بفصولها على مبدإ القرآن الكريم فلا تحيد عن ذلك في اجتهاداتها مع موافقتها لبنود حقوق الإنسان والمواثيق الدولية التي صادقت عليها تونس.

النتائـــج :

- تعتمد أحكام مجلة الأحوال الشخصية بتونس على أهم مصادر التشريع الإسلامي القرآن والسنة والاجتهاد.

- إن الاجتهاد من أبرز عوامل تقدم الفكر الإسلامي وأسلم المناهج للتفتح على ثقافة الآخر والاستفادة منها وللتعريف بثقافتنا العربية الإسلامية.

- لا يمكن الفصل بين الشرع والعقل ولا تقديم أحدهما على الآخر لأن العلاقة جدلية بينهما.

- يحتاج الدين الإسلامي إلى أناس يعقلون ويفكرون ولا يحتاج إلى أناس يهاجمون ويدافعون ويتهمون، ونلاحظ فرقا كبيرا بين السلف العاقل والخلف بين الماضي والحاضر، لأن السلف الصالح كانوا بُناة حضارة وصانعين بقدر ما كانوا قادرين ومبدعين وسباقين من حيث إرادة الإبداع والفتح والكشف أو من حيث ممارسة الفاعلية والحضور على المسرح الكوني، كما تجسد ذلك في قيادة العمل الحضاري لقرون طوال على حد عبارة "علي حرب" في كتابه "الإنسان الأدنى، أمراض الدين وأعطال الحداثة" (26).

- الاجتهاد وإعمال العقل هو الكفيل بإخراجنا من التخلف الحضاري وتخليصنا من التماثل مع الأولين إيديولوجيا ولا أعني التماثل من حيث العمل الجاد والمبادرة الفذة والقدرة الخالصة.

- بالاجتهاد نخلّص الثقافة الإسلامية من الفكر الهدام والمسيء للدين ومن التهم التي تصف الإسلام كديانة من ديانات الوحي التي تأسست على اللامعقول.

- بالاجتهاد وحده نتمكن من إخضاع النصوص والأحكام والأقوال إلى منطق الفحص العقلي والــدرس المعرفي من أجل فهم ذواتنا وعقلنة أنشطتنا (27).

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(1) أبو علي بن حزم الأندلسي الظاهري،الإحكام في أصول الأحكام،مجلد 2 جزء 5، ص 113 ط (2)دار الجيل بيروت،1407 هـ/1987مـ.

(2) شرح القاضي عضد الملة والدين لمختصر المنتهى الأصولي تأليف الإمام ابن الحاجب المالكي،ص 289، ط(1) المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر 1317 للهجرة.

(3) نفس المصدر أعلاه ص 290.

(4) أبو إسحاق الشاطبي،الموافقات في أصول الشريعة ج4 ، ص 104، دار المعرفة بيروت،(د.ت)

(5) عباس محمود العقاد التفكير فريضة إسلامية ص 22 ،طبعة القاهرة (د.ت).

(6) محمد عبده، تفسير المنار ج 2 ،ص 426ط.(2)،دار المعرفة بيروت(د.ت).

(7) مجلة الأحوال الشخصية،جمع وتعليق محمد الحبيب الشريف ص 23 طبعة دار الميزان للنشر سوسة لأتونس، جوان 2004.

(8) محمد أحمد أبو النور، منهج السنة في الزوا ج،ص 39 1،دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط(4) 1413هـ/1992مـ.

(9) نفس المرجع أعلاه ص 18.

(10) أحمد بن عبد الرحمان البنا، الفتح الرباني بشرح ترتيب مسند أحمد ابن حنبل الشيباني، ج9، ص 154–153،القاهرة 1372 هـ.

(11) منهاج السنة في الزواج ص 87 .

(12) مجلة الأحوال الشخصية،ص 35.

(13) محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ص 226–227،طبعة تونس 1984 للميلاد.

(14) البهي الخولي، الإسلام والمرأة المعاصرة ص 71، دار العلم الكويت الطبعة الثالثة (د.ت).

(15) مجلة الأحوال الشخصية ص 58.

(16) نفس المصدر أعلاه ص 163–164

(17) الجامع الصحيح لمسلم كتاب الزكاة الباب 38.

(18) الإمام أحمد ابن حنبل، المسند، ج 5 ، ص 277.

(19) مجلة الأحوال الشخصية ص 155.

(20) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيما، رقم الحديث 600، ج 10، ص 436.

(21) عباس محمود العقاد المرأة في القرآن ص 92 طبعة المكتبة العصرية بيروت 1981 مـ.

(22) رواه ابن ماجة والدارا قطني، وانظر المغني لابن قدامى ج 8 ص77.

(23) رواه الطبراني والدارا قطني.

(24) رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن.

(25) لمزيد التوسع أنظر مجلة الأحوال الشخصية ص 91 –94.

(26) علي حرب الإنسان الأدنى، أمراض الدين وأعطال الحداثة، ص126–127،الطبعة ! المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 2005.

(27) نفس المصدر أعلاه، ص 132.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مجلة الأحوال الشخصية واقع وطموحات

نجيبة الشريف (*)

يرى جلّ الفقهاء ورجال القانون وكلّ من اطلّع على مجلة الأحوال الشخصية التونسية أنّها حوت جلّ القواعد والشروط التي تمكن من الحفاظ على الأسرة والمبادئ العامّة لإنجاح مسيرتها، والأكيد أنّ هذه المجلّة جاءت كنتيجة حتمية لما تفطن له المشرّع التونسي، لوضع أسرنا وما تتطلبه من أهميّة وعناية خاصة بعد التطوّر الدّيمغرافي الذي شهدته بلادنا في بداية القرن العشرين وما كان يتصوّر أن يكون عليه وضع أسرنا بعد التطوّر الذي ستخضع له من الناحية الإقتصادية والإجتماعية والثقافية؛ هذا إلى جانب ماسيكون لانتشار التعليم والتربية ووسائل التثقيف من تأثير على مجتمعنا وأبنائنا وأمام توفّر الحظوظ المتساوية في التعلم بين الجنسين بفضل السياسة الرائدة لهذه الدّولة، بما سيكون للمرأة والرجل على حدّ السواء من دور هامّ في الحياة الإجتماعية والثقافية والصّحيّة والإقتصادية أي ممّا سيعطي دفعا هاماً نحو تطوّر المجتمع.

وعلى هذا الأساس، وإبّان الإستقلال مباشرة نجد الرئيس الرّاحل الحبيب بورقيبة أصدر يوم 13 أوت 1956 (وقبل أن يصبح رئيسا للجمهورية كان آنذاك رئيسا للحكومة) مجلة الأحوال الشخصية التي تعتبر تشريعا ثورياً جديدا لم يسبق له مثيل في الشرق العربي، وعملا جليلا مستوحى من مبادئ الفقه الإسلامي وروح الشريعة السّمحة. حيث أقرّت أحكام هذه المجلة حقّ المرأة في الطلاق كما وحّدت بين مشارب الأمّة المختلفة في المنهل والقضاء وأنارت أمامها السبيل بالنسبة لأحوالها الشخصية والعائلية كما أنّها جعلت الطلاق حكمياً «الفصل 30»لا يقع الطلاق إلاّ لدى المحكمة ولم يعد بيد الرجل فقط حيث يقول له كن فيكون، كما منعت تعدّد الزوجات «الفصل 18» من مجلة الأحوال الشخصية، ولا خلاف أنّ هذين الفصلين من المجلّة كان لهما بعيد الأثر على المجتمع التّونسي وعلى الأسرة بصفة خاصّة».

لكن في الحقيقة وعند الحديث عنها، ترانا وبدون استثناء نفخر بمكتسباتنا في هذا الميدان ونحمد اللّه على ما توفّر لنا من مقوّمات الحياة الزوجية المتوازنة والشريفة.

حيث تضمنت هذه المجلة عديد الكتب التي وقع ضمنها تحديد الفصول القانونية المتعلقة بكل الأفراد وهذه الكتب هي:

1 ـ كتاب في المراكنة
2 ـ كتاب في الطلاق
3 ـ كتاب العدّة
4 ـ كتاب النفقة

* مستشارة بمحكمة التعقيب بتونس.

5 ـ كتاب الحضانة

6 ـ كتاب النسب

7 ـ كتاب أحكام اللقيط

8 ـ كتاب أحكام المفقود

9 ـ كتاب في المواريث

10 ـ كتاب في الحجر والرشد

11 ـ كتاب الوصيّة

12 ـ كتاب الهبة

لن نتناول بالتحليل هذه المجلة لأنّ المجال لا يتّسع لذلك، ولكنّي سأحاول الوقوف على ما تحقّق للأسرة وخصوصا للمرأة جرّاء تطبيق هذه الفصول حيث قال الرئيس الرّاحل الحبيب بورقيبة بمناسبة عيد المرأة في 13 أوت 1960 :

«كان منحنا المرأة حقوقها شغلنا الشاغل من عهد بعيد إذ يتعذر أن تستقيم الحال دون تطوّر المرأة ورقيّها، ولا فائدة من تكوين الرجل ما دامت تنشئة أبنائنا تتم على يد أمّهات يعشن على طريقة بدائية بما يجعلنا وكانّنا ندور في حلقة مفرغة، وهذا رأي اعتقدته منذ أدركت».

وبمجرّد تسلمي الحكم سارعت في تطبيق إصلاح إجتماعي سوف لا تبدو آثاره إلا بعد عشرات السنين، ونحن نعتقد أنّ جوهر الأديان إنّما هو تحقيق المصالح وأنّ الإسلام الذي يبني الإستحسان وجاء بالمصالح المرسلة وأولى عاملي الزمان والمكان ما يستحقانه من اهتمام لا يعارض أيّ إصلاح إجتماعي أو عمل تمديني يستهدف رفع المستوى بصرف النظر عمّا يقف حجر عثرة في سبيل النهوض.

وقد منحنا المرأة حقوقها وروضناها على ممارستها وعلى الاعتقاد بأنّها واجب علينا، كي تشعر بها وتدرك أنّها لم تعد مهضومة بعد أن كانت لا تستشعر هضما ممّا ألفته من الهوان.

والعهدة محمولة على المرأة إن كانت تريد أن تضحي في سبيل وطنها وتؤدي أجل الخدمات لأمّتها».

وعلى صعيد الواقع ما من أحد ينكر ما احتوت عليه هذه المجلة من أحكام هامّة كان لها التأثير الهام والبليغ والبعيد على المجتمع التونسي. غير أنّنا نلاحظ أن محاولة المشرّع في ترسيخ فكرة تحقيق العدالة بين جميع الفئات والأصناف كان شغله الشاغل، فكان يسعى دوما إلى تنظيم العلاقات والمعاملات بين النّاس في المجتمع مجاراة مع ما يجدّ ويحدث من تطوّر ملحوظ في علاقات المجتمع من ناحية ومعتمدا على التطوّرات العلمية والإجتماعية التي خضعت إليها الشعوب السابقة وحتّى الحالية من ناحية أخرى.

لذلك فإنّ المشرّع التونسي ما انفك بين الفينة والأخرى يراجع وينقح مجلة الأحوال الشخصية، حيث أنّه منذ صدورها تعرضت لجملة من التنقيحات من أهمّها القانون عدد 70 لسنة 1958 والذي جعل منع تعدّد الزوجات ساريا حتّى على الزيجات المخالفة للقانون، وكذلك القانون عدد 1 المؤرخ في 24 أفريل 1964 الذي حدد سنّ الزواج بـ 17سنة بالنسبة للبنت و20 سنة للذكر، ثمّ قانون جوان 66 الذي كرّس مصلحة المحضون في إسناد الحضانة بعد أن كانت تسند حسب الأولوية لأشخاص ضمنوا حسب جدول على سبيل الحصر، كما جاء قانون 18 فيفري 1981 ليجعل من الأمّ وليّة شرعية بصفة آلية بعد وفاة الأب.

والأكيد انّ أهمّ تنقيح خضعت له مجلة الأحوال الشخصية هو التنقيح المصادق عليه في 12جويلية 1993 باعتباره يعد من أهمّ التنقيحات لشموله عددا كبيرا من الفصول المتعلقة أساسا بتنظيم المعاملات في الأسرة الواحدة، سواء عند قيامها أو عند انحلالها. وهذه الفصول هي على التوالي: 02 -06 - 12 - 23 - 28 - 32 - 43 - 44 - 46 - 60 - 67 53 مكرر، كما أضيف للمجلة فصل جديد هو الفصل 32 مكرر.

ARCHIVE http://archivebeta.Sakhrit.com

ويمكن القول إنّ هذا التنقيح كان متّجها نحو تدعيم تماسك الأسرة وذلك بتدعيم حقوق المرأة وأيضا بتدعيم حقوق الطفل مع الحفاظ على حقوق الرّجل، ويظهر هذا جليا بتكريس التعاون بين الزوجين لحماية أجيال المستقبل، كما يظهر هذا في الواجبات غير المالية وأيضا على مستوى التعاون في الواجبات المالية ولم يقتصر الوضع على تنقيح البعض من فصولها بل ارتقت هذه المجلة إلى مرتبة الأحكام الدستورية بالتنقيح الواقع على الدستور بالقانون الدستوري عدد 65 لسنة 1997 المؤرخ في 27 أكتوبر 1997 والذي جاء بفصله الثامن ضمن الفقرة الثابتة منه ما يلي: «تساهم الأحزاب السياسية في تأطير المواطنين لتنظيم مشاركتهم في الحياة السياسية وتنظم على أسس ديمقراطية، وعليها أن تحترم سيادة الشعب وقيم الجمهورية وحقوق الإنسان والمبادئ المتعلقة بالأحوال الشخصية وتلتزم الأحزاب بنبذ كل أشكال العنف والتطرف والعنصرية وكل أوجه التمييز، ولايجوز لأي حزب أن يستند أساسا في مستوى مبادئه وأهدافه أو نشاطه أو برامجه على دين أو لغة أو عنصر أو جنس أو جهة...»

نلاحظ إذن اقتران مبادئ الأحوال الشخصية بحقوق الإنسان وبقيم الجمهورية في هذا القانون ورفضه الكلي لأي شكل من أشكال التمييز الجنسي.

مجلة عملاقة تحدّث عنها الجميع وأشاد بها الجميع، وحتّى في العالم بأجمعه مجلة تضمّنت مبادئ إنسانية هامّة وخالدة وفاعلة. وهي إن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على مدى الحسّ الإنساني الموجود في من سهر على تحقيقها وإنجازها، كما تدلّ على مدى محاولة المشرّع للنهوض بالأسر التونسية مهما كان مستواها الإجتماعي والثقافي والمادي.

إنّ أيّ قارئ لهذه المجلة لا أقول إنّه يشعر بمدى أهميّتها ومدى نضجها ولكن يشعر بمدى حس الإنسان فيها بالإنسان الآخر، كما يتأكد وأنّ إرادة المشرّع المتجهة أساسا نحو تدعيم تماسك الأسرة وذلك بتدعيم حقوق المرأة وحقوق الطفل وتوضيح واجبات الزوج باعتباره رئيسا للعائلة.

وللتأكيد على هذا أورد ما جاء بخطاب سيادة رئيس الجمهورية زين العابدين بن علي، والذي ألقاه بمناسبة عيد المرأة في 13 أوت 1992 حيث قال: «بمثل هذا الإنجاز تميّزت بلادنا من جديد على سائر البلاد والشعوب فأثمرت بها النضالات والجهود هذه المجلة التي لم تقتصر على حقوق المرأة، وإنّما اتسعت لكلّ ما يتعلّق بالأسرة التي هي أساس البناء الإجتماعي السّليم المتوازن، وتكافل الرّجل والمرأة وتكامل الرّوابط الإنسانية والإجتماعية والإقتصادية بينهما وهو ما ساعد على مساهمة الجميع في إقامة الدّولة الحديثة ومؤسّساتها وإرساء دعائم المجتمع التونسي الحديث وتطوّره وتقدّمه وبفضل انتشار التّربية والتّعليم والتّثقيف وتوفير الخدمات الإجتماعية والصّحية وبناء الإقتصاد الوطني».

أعود لأقول: إنّ البعض من الدّول الأجنبية وخاصّة منها الشرقية يحسدوننا على هذه المجلة لما احتوت عليه من نصوص قانونية تحمي الأسرة بالأساس والطفل والمرأة والرّجل على حدّ سواء، خاصّة إذا اعتبرنا أنّ أساس هذه النصوص قائم على ترسيخ فكرة تحقيق العدالة بين جميع الفئات والأصناف.

ومع ذلك فإننّا نلاحظ أنّ المشرّع لا زال يطمح إلى تحقيق الأفضل حيث أنّه يلجأ في بعض الأحيان إلى تنقيح بعض فصول هذه المجلة وذلك مجاراة لما يجد ويحدث من تطوّر ملحوظ في علاقات المجتمع من جهة ومعتمدا في نفس الوقت على التطوّرات العلمية والإجتماعية التي تخضع إليها الشعوب الأخرى.

طموح مشرّعنا متجدّد دائما نحو الأنضل بهدف حماية الأسرة، لذلك نجده إلى جانب مجلة الأحوال الشخصية قد أصدر عديد القوانين الأخرى بهدف حماية المجتمع أخصّ بالذكر منها قانون الاشتراك في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الملكية بين الزوجين وأيضا قانون إسناد اللقب والتنقيح الوارد على مجلّة الجنسيّة لتمكين الأم التونسية المتزوّجة بأجنبي من إسناد جنسيتها لابنها، وأيضا القانون المتعلق بإحداث صندوق النفقة وجراية الطلاق ومجلة حماية الطفل إلى غير ذلك من النصوص القانونية الهامّة.

أيضا هناك عديد الإنجازات المؤسساتية بهدف حماية البعض من أسرنا التي قد تمرّ بصعوبات، أذكر منها خاصّة مراكز الدفاع والإدماج الإجتماعية والتابعة بالنظر لوزارة الشؤون الإجتماعية.

فعلا إنّ التغيير في بلادنا أحدث نقلة نوعية في مجتمعنا في مختلف المجالات، الثقافية منها والسيّاسية والإجتماعية والتكنولوجية. هذا إلى جانب ما للإحتكاك الثقافي من تأثير على أبنائنا وأسرنا.

وقد أثبتت المرأة وجودها سواء في بيتها أو خارجه حيث أصبحنا نجد المرأة المحامية والمهندسة والطبيبة والمعلّمة والأستاذة وإلى جانب إثباتها لوجودها وذاتها في مجال عملها أثبتت أيضا كفاءتها في تربية أبنائها، ذلك أنّ نساءنا هنّ اللائي يقمن بتربية أطفالنا ذكورا كانوا أو إناثا وقد بدأت تظهر للعيان آثار وبوادر تلك التربية والعناية بصفة ملموسة في مستوى تعليم أبنائنا، حيث أصبحت معدلات نتائج الباكالوريا مثلا تصل إلى 19 /20 فما فوق فضلا عن تشجيعهنّ لأبنائهن لمواصلة دراستهم وما يبثّنه فيهم من طموح وحب للعلم.

إذن القانون والمرأة ساهما في تطوّر المجتمع، ألا يذكّرنا هذا بالحدّاد وما نادى به ضمن مؤلّفه «إمرأتنا في الشريعة والمجتمع» حيث قال : «وبدلا من هذا العناء الذي لا ينفع شيئا كان يجب علينا أن نتعاون جميعا على إنقاذ حياتها بوضع أصول كاملة لنهوض المرأة الذي هو نهوضنا جميعا». وبما صرّح به الرئيس الراحل الحبيب بورقيبة في خطابه في عيد المرأة سنة 1960 قائلا : «وقد منحنا المرأة حقوقها وروضناها على ممارستها وعلى الإعتقاد بأنّها واجب علينا كي تشعر بها وتدرك أنّها لم تعد مهضومة بعد أن كانت لا تستشعر هضما ممّا ألفته من الهوان، والعهدة محمولة على المرأة إن كانت تريد حقا أن تضحي في سبيل وطنها وتؤدي أجلّ الخدمات لأمّتها».

ثمّ ألا يذكّرنا أيضا بالشاعر العظيم حافظ إبراهيم عندما قال:

مـن لـي بتربية النّسـاء فإنّها
في الشرق علّة ذلك الإخفـاق
الأم مـدرسة إذا أعددتـــها
أعددت شعبــا طيّب الأعــراق
ربوا البنـات علـى الفضيلـة
إنّها في الموقفين لهنّ خير وثاق
وعليكم أن تستبين بناتكـم
نور الهدى وعلى الحياء الباقي

كانت هذه الأفكار في تونس أحلاما في كتابات الحدّاد ثم أصبحت بعد ذلك قانونا على يد الرئيس الراحل الحبيب بورقيبة ثمّ تدعمت اليوم بفضل ما أرساه سيادة رئيس الجمهورية زين العابدين بن علي من ضمانات لحقوق الأسرة والمرأة والطفل لتصبح واقعا معاشا.

إنّ ماورد بهذه المجلّة بالنسبة لنا نحن التونسيين يعدّ من البديهيات ومن الثّوابت، لذلك قد لا يشعر البعض منا بأهميّته نظرا لأنّنا نشأنا مع هذه المجلة، وهي بالنسبة لنا حقّ مكتسب لا نقاش فيه. لكنّنا نشير من جهة أخرى أنّها وبكلّ ما احتوت عليه هي حلم في العديد من الدوّل الأخرى ولكنّنا مع هذا مازلنا نطمح إلى الأفضل.

وإذا نختم فإنه يمكن القول إنّ أيّ قانون لا يمكن أن تنكشف آثاره إلاّ بعد فترة من التّطبيق أي بعد أن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يخضع هذا القانون إلى محك الواقع وامتحان الحياة حيث تنصهر القاعدة القانونية في واقع النّاس المعاش وتتفاعل معه فتبدو من ثمّة نواقصها ومزاياها وتتجلّى قيمتها من حيث كانت مثبطة أو دافعة.

وإنّ هذه المجلة التي تضمّنت في تقنينها لنظام العائلة المبادئ التي تحفظ معنويات الشّخص وماديّاته كما تحفظ المجتمع والتي نادت بالتّمسك بالزواج والحفاظ على الأبناء والآباء وإلى ضبط النفس والصّبر على المكروه وعدم اليأس. فهل حققت هذه المجلة الرّائدة بعد فترة تناهز الخمسين سنة الغايات السّامية والنّبيلة المرجوة منها، ويجب لذلك أن نقف عند ذلك، أم هل يجب تطويرها بما يتماشى ومقتضيات العصر الحديث.

سبقت الإشارة إلى أنّ المشرّع ماانفك بين الحين والآخر يتدّخل لتنقيح بعض فصول المجلةّ أو إضافة بعض الفصول بهدف ترسيخ فكرة تحقيق العدالة، وذلك حسب ما يجدّ ويحدث بمجتمعنا من تطورّ ملحوظ وحتّى بالنظر إلى التّطورات العلمية التي خضعت لها بعض الشعوب الأخرى.

إنّ هذا التدخل إذا ما تعمقنا فيه نجده ينبع من شيئين اثنين:

أولهما: المجلة ذاتها، هذه المجلةّ الصادرة في أوت 1956 صدرت لمجتمع يختلف ولو نسبيا عن مجتمعنا الحالي. لذلك لم يكن لها أن تتنبأ بما سيكون عليه المجتمع مستقبلا ولئن كانت هيأت له الأرضية الأولى للاستقرار والنّجاح مع أنّي لا أنكر المزايا العملاقة.

وثانيهما: التطورّ السريع الذي حصل للمجتمع التونسي، هذا التطورّ الذي حكمه بدوره شيئان اثنان هامّان ألا وهما دخول المرأة ميدان العمل وإثباتها كفاءتها، وثانيا الاحتكاك الثقافي خاصة بدول الغرب. لذلك أقول إنّه من خلال تجربتي كقاضية وأيضا لكوني امرأة تونسيةّ بالذّات تعودّت على المساواة وعلى العيش بحريةّ في كنف سياسة إجتماعية تقدّمية تطلعيةّ، آمن مرسوخها بأن لا تقدّم للمجتمع بدون تقدم المرأة وأن لا استقرار لمستقبل الأجيال القادمة بدون حماية لطفولتنا وأسرنا. أرى أنّه من المتوجّب علينا وبعد الثورة التي أحدثتها القوانين الصادرة للأسرة والطفل معا أن يقع الاعتناء من جديد بمجلة الأحوال الشخصية.

نعم لقد مرّعلى صدور هذه المجلةّ ما يقارب الخمسين سنة وقد حققت هذه المجلة حسب رأيي الغايات السّامية والنّبيلة المرجوة منها، لكن أرى أنّه يجب أن لا تقف عند ذلك بل يجب تطويرها بما يتماشى ومقتضيات العصر الحديث وحاجيات أسرنا. لماذا لا يقع النظر من جديد في هذه المجلة خاصة وأنّها تحتوي على كلّ ما يتعلّق بالأسرة، لماذا نلتجئ بين الفينة والأخرى إلى تنقيح بعض الفصول وإصدار بعض القوانين، لماذا لا يكون هذا التنقيح جذرياً وشاملا وشافيا ويتماشى مع وضع الأسرة التونسية الحالية والمستقبلية، لماذا نقول أحدثنا خطة قاضي أسرة، أحدثنا خطة مندوب حماية الطفولة وأحدثنا خطة مساعد مندوب حماية طفولة وأحدثنا أيضا وظيفة مستشار طفولة، كلّ هذه الخطط تنم عن ماذا؟

حسب نظري أنّ كلّ هذه الخطط والوظائف إن كانت تنمّ على شيء فإنّما تنمّ على أنّ وضع الأسرة قد تغيّر، وأنّ الأسرة أصبحت بقدر حاجتها للقانون بحاجة أيضا إلى التوجيه والرّعاية والعناية.

إنّ ميدان قضاء الأسرة وقضاء الطفل وهو ميدان إنساني بالضّرورة وهو يختلف عن ميدان القضاء المدني أو الجزائي أو التجاري ضرورة أنّ التعامل فيه يكون بصفة مباشرة مع أشخاص عادة ما يمرّون بأزمات وصعوبات نفسية وقد يحتاج البعض منهم إلى المتابعة بصفة دائمة كما قد يحتاج البعض منهم لبعض الإعانات سواء من النّاحية النّفسية أو الإجتماعية أو الإقتصادية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لذلك أرى أنّه قبل أن يتعهّد القاضي بالقرار والحكم لابدّ أن يتعهّد به هيكل توجيهي أو هيكل مختص من خبراء في علم النفس والإجتماع، ليقوم بدراسة واقعية وموضوعيّة حول وضعيّة العائلة وذلك حتّى يتمكّن القاضي بعد ذلك من أخذ القرار الصّحيح.

لذلك أقول لم لا ننظر في تكوين محكمة خاصّة بالأسرة تكون تركيبتها مزدوجة من رجال مختصين في قضاء الأسرة، وآخرين مختصين في علم النفس والإجتماع. الحديث يطول حول هذه المحكمة ولكنّها مع ذلك تبقى أملا وحلما.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المرأة التونسية والخطاب السّــردي

محي الدين حمدي (*)

لولا الكلام لكنا اليوم في عدم ولم تكن ثم أحكام وأنباء(1)

المرأة التونسية المشار إليها في العنوان هي تلك التي عمدت إلى التعبير بوساطة الرّواية والقصة القصيرة. والرواية صيغة قول حديثة في الأدب العربي وفدت عليه من الغرب، وهي أداة مهمة في وصف الفرد والجماعة في المجتمع الحديث المتحولّ الذي تتداخل فيه أنماط الرؤى والحياة والذي تسمه الصراعات وتشقه الصدوع والشّروخ، هي إلى ذلك سيرة ذاتية مقنّعة. وبسبب طبيعتها تتّسع للقول المسهب والقضايا المتعدّدة...

والقصة القصيرة هي أيضا ثمرة اطلاع العرب على اللّغات الأجنبية وآداب الأمم الأخرى خاصة الفرنسية، كما ساهمت الترجمة في تعريفها لدى ذوي اللسان الواحد وهي تختلف جوهريا عن الرواية في بنيتها، إنها أسلوب في السّرد متميز يقتضي التكثيف والتركيز وذلك يقود إلى تقليص الزمن والشخوص والتجارب والمواضيع، ولبّها اقتناص لحظات محدودة في الحياة الحديثة وإلقاء الضوء عليها بالوصف والتحليل والرؤية الثاقبة.

فالرواية والقصة القصيرة سرد حديث نبع في الأزمنة الحديثة ومع هذه الأزمنة يتعامل. وممّا يجدر ذكره بهذا الصدد أن الكاتبة التونسية التي تعبّر عن ذاتها ومجتمعها وعصرها بالرواية والقصة القصيرة تكون قد اختارت وسيلة حديثة فالسّرد رواية وقصة قصيرة معانقة للعصر الحديث الذي انقاد إليه المجتمع التونسي كرها أو اختيارا، فدخل الزمن الحديث بالتدريج وغنم منه وخسر به أيضا.

والكتابة في الأصل فعل عدد قليل، لأنها عدول عن مألوف الفعل والحياة وتالد العادات والشائع والمشترك والحياة المباشرة، وهي ضرب من العزلة الإدارية الواعية الخلاّقة الإيجابية. وهذا العدول يمارسه الرجال خاصة في مجتمعنا وفي المجتمعات المشاكلة لأن وضع الرّجال الخاص في المجتمع يساعدهم على الكتابة عامة أو كتابة الرواية والقصة القصيرة خاصة.

أمّا النساء اللاتي يقبلن على كتابة السرد فعددهن في مجتمعنا قليل بالقياس إلى الرّجال. وعدد كاتبات الرواية قليل جدا لأن طبيعة الرواية تقتضي من المرأة جهدا خاصا ووقتا متسعا واستعدادا نفسيا وعائليا... وبخلاف ذلك فعددهن في مجال القصة القصيرة أكثر لأن طبيعة القصة القصيرة القريبة من القصيدة تجعل صاحبات الحزم والإرادة والمثابرة قادرات إن -صبرن- على كتابتها. وممّا سبق يستنتج بوضوح أن النساء الكاتبات هن

* أستاذ الأدب العربي الحديث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، عضو مؤسس للكلية.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ضرورة خارجات عن مألوف حياة المرأة العادية، هذا المألوف الذي هو عادة زواج وإنجاب وطبخ وعمل وصمت (على معنى عدم التعبير بالكتابة، أما الكلام العادي وافرا لدى معظم النساء وصار وافرا جدا لدى رجال كثيرين أو لدى معظمهم أيضا).

إن المرأة التي تسلك طريق الكتابة هي ضرورة مفارقة العادة فإذا زادت فعبّرت بالكتابة وقالت قولا غير شائع وخرقت المألوف في القول والمسموح بالتعبير عنه، إذا فعلت ذلك أصبحت مفارقة العادة بدرجتين، فأن تكتب المرأة السّرد هو أن تبعد عن الذاكرة والصورة النمطية للمرأة التقليدية. وللعادة سلطان قوي على النفوس نبّهنا إليها ابن خلدون في مقدّمته فخرقها ليس أمرا يسيرا.

فأن تكتب سردا جيّدا هو أن تتجاوز، ويمكن استعارة قول ابن عرفة لتقريب المقصود مع مراعاة الفارق واختلاف السياق: " الأولياء في الدنيا يخرقون العوائد" (الفتوحات المكية - ج2 ص 40) فكذلك شأن الكاتبات المتفوقات فهن يخرقن العوائد.

وأن تكتب المرأة السرد وهو أن تخوض في أوجاع الذات والجماعة والعصر وأن تطلّ على عوالم الإنسان الحديث المرعبة وأن تكتشف الوحش في الإنسان.. ولكن أن ترى البذرة الخضراء في الجذع اليابس وأن تبشر بالأمل الممكن بالإنسان الموعود...

وأن تكتب المرأة السرد لابدّلها من أن تتحلّى بالجرأة لتطويع اللغة الفنية لأهدافها ولقول ما لا يقال وأن تتحمل المسؤولية.

فبعض الكاتبات التونسيات انطلقن جريئات وما أسرع ما انقطعن بعد الإنجاز الأول لائذات بالصمت مثل ليلي مامي.

فالكتابة مسؤولية إزاء الضمير والوعي والذات قبل كل شيء وقد ساعدت المرأة التونسية على اقتحام عالم السرد عدّة عوامل، هي انتشار التعليم، بعد الاستقلال، وإتاحة الفرصة للمرأة التونسية لولوج مختلف درجاته، فلدينا كاتبات حائزات شهادات جامعية في الآداب العربية أو الفرنسية، ويجدر ألاّ ننسى أنه كانت لدينا عام 1934 م طالبة تونسية واحدة تدرس الطبّ في باريس هي توحيدة بالشيخ، وقد ذكرها الطاهر الحداد في كتابه المعروف، امرأتنا في الشريعة والمجتمع.

ومن العوامل المساعدة، المطالعة في المكتبات وشيوع الكتب، ووجود بعض النوادي الأدبية، والصحف والمجلات التي تنشر القصص، وكذلك الإعلام الأدبي الذي تنتج عنه الرغبة في الكتابة. ومن أهم العوامل وعي المرأة التونسية المثقفة ورغبتها في إسماع صوتها إلى جانب الرجل حتى لا يضلّ الرجل هو المتكلّم الوحيد في المجتمع عن نفسه وعن المرأة معا. وهذه العوامل كلها تتفاعل وتتعاضد ولا يمكن القول إن واحدا منها هو الفاعل الوحيد أو الأهم، فكلها قادت بعض النساء إلى الخروج عن الصفّ المعتاد، ومسك القلم وكتابة الرواية وخاصة القصة القصيرة.

والكاتبات ينتمين إلى بيئات وفئات اجتماعية مختلفة ولذلك تأثيره فيما يكتبن. ورغم التاريخ الشخصي المتميز فبين الكاتبات نقاط التقاء وتشابه وبينهن كذلك تباين بسبب اختلاف الخبرة والرؤية والوعي والمرحلة الزمنية والأهداف.

مرّ زمن طويل نسبيا بين أول محاولة قصصية نسائية تونسية زمن الاستعمار الفرنسي، والأعمال التي كتبها نساء بعد الاستقلال. ففي سنة 1948 م أصدر الأستاذ صالح رضا الأحمر مجلة (المسرح والسينما)، ونشر فيها محاولة قصصية نسائية عنوانها (زهرة ذابلة) وهي محاولة رومانسية متعثّرة فنيّا، وصاحبة القصة لم تكتب اسمها الحقيقي واحتجبت وراء اسم (فتاة الخضراء)(2). بعد الاستقلال لم يبق من داع لإخفاء الكاتبة اسمها، فالحريّة التي ظفرت بها المرأة والمكانة التي نالتها في المجتمع تجعلانها لا تخجل من كونها كاتبة وقد تتباهى بذلك.

إن المجال الذي تناوله قلم الكاتبات في المدونة التي

اخترتها واسع، فما أثار انتباههن متنوع غزير ومنه ما يتصل بالمرأة في مختلف أطوار حياتها ومنه ما يتصل بالرجل، وبعضه عن مجتمع الكاتبة أو المجتمعات الأخرى البعيدة. ومماّ جذب قلمها قضايا الواقع والفكر والحضارة، ويمكن إجمال ما عنيت به المرأة التونسية في بابين كبيرين هما الذات والمجتمع. ولعلّ شواغل الذات مثل الحب أو الزواج أو الجنس، هي الأهم لديها، ولكنها تنحصر فيها، فهي تعالج أمور المجتمع والسياسة والايديولوجيا...

والبحث لا يمكنه التوسع وسيكتفي بجوانب من الشواغل الذاتية وصور من الاهتمامات العامة مثل السياسة، تشتق من الروايات والقصص القصيرة المنتقاة لتقديم فكرة عن اهتمامات الكاتبة التونسية في السرد.

واعتنت الكاتبة التونسية بموضوع الحب عناية فائقة ويبدو أنّ الحبّ هو الموضوع المفضل في سرد بعض التونسيات به اعتنين نشأة وتطورا ونهاية ذاكرات أثره في الشخوص التي تحيا داخل الرواية، وقد ساعدت على انبلاج الحب تجربة مهمة عدّة عوامل موضوعية وذاتية تجمل في التعليم والعمل وخروج المرأة، والاختلاط بين المرأة والرجل، والرغبة الذاتية من قبل المرأة والرجل في إقامة العلاقات العاطفية وعيش الحب والتنعم به حالة وجدانية فريدة تجعل المحبّ أو المحبة يسلكان في الحياة طرقا غير تقليدية. الحبّ في سرد التونسيات معنى يفضل كل معنى، وهو أمر مرغوب فيه، إنه حلم تنتظره المرأة لتزيّن به باطنها وحياتها.

فزينب في رواية (تماس) لعروسية النالوتي (3) كانت تبحث عن رجل يخرجها من انغلاقها على نفسها عنوة ويفتكّها من نفسها فتنخرط في الحبّ وليقدر هذا الرجل على هذا الفعل لابد من أن يكون حائزا لـ«رجولة أخرى غير المألوفة، ولـ «فحولة جديدة» فهي فتاة مثقفة حساسة واسعة المطامح والخيال لا يقدر الرجل العادي على تحريك أوتار قلبها. فهي تتوق إلى "إنسان يكون بحجم أحلامها الجامحة التي لا تهبط الأرض" (ص59) ولأسباب نفسية غامضة تشك زينب في أن تكون قادرة ذات يوم على الحبّ.

ويمكن للمرأة أن تجد نفسها في رحاب الحبّ تحبه وتعيشه فيه الفرح ويجمّل لها الحياة ويعطيها المعنى ولكن الحبّ قصير العمر، فهو لا يدوم، تدخل عدّة عناصر لتوقف مسيرته وتقلب حياة المحبّة رأسا على عقب.

فرجاء، وهي بطلة رواية (زهرة الصبار) لعلياء التابعي(4) فتاة مثقفة وهي أستاذة تدريس الفرنسية بالمعاهد الثانوية عاشت تجربة الحبّ لماّ كانت طالبة ولسبب ما خانها حبيبها أو تخلّى عنها وهاجر إلى فرنسا حيث تزوّج فرنسية، وهذا الفشل أثّر أيّما تأثير في مجمل حياة الفتاة وكاد يقضي عليها أو قضى والرواية ركزت خاصة على فشل الحب حتى لتبدو من زاوية ما نصا رثائيا وهجاء للحبيب الخائن ونوعا من الآخذ بالثأر والانتقام منه. إن فشل حبّها قلب حياتها رأسا على عقب، أصبحت حياتها معاناة مرّة، ويعزى ذلك إلى أنها لم تتمكن من نسيان حبيبها ولا الشفاء من جروح حبها، والحق أن مقاومتها لم تكن قوية، فبدت غير قادرة على الصمود. أخذت حالتها تتدهور بالتدرج ليصيب العطب كل جوانب شخصيتها. غمرتها الكآبة والأحزان وفقدت ثقتها بنفسها وبالناس، وأصبحت تخشى الظلام. وملأتها الوساوس وبدأت تخاف الناس والأشياء وغدت عاجزة عن الكلام، وتحبس نفسها في غرفتها حتى لا تتصل بأحد، وأصابها إعياء نفسي وفكري فلم تعد قادرة على القراءة، وصار كل يوم جديد بالنسبة إليها كارثة يعسر عليها مواجهتها، وفقدت القدرة على النوم إلا بالحبوب المنومّة. حتى جسدها صار حمله ثقيلا عليها وخامرها الإحساس بأنها جثة بعثت من القبر، وانقطعت صلتها بعائلتها... إن معاناة رجاء هي ضريبة التمسّك بالقيم النبيلة، وهي هنا تلخّص في الحب، في زمن ربّما لم يعد يهيئ للحب أو لم يعد يؤمن به.

والمرأة، حتى وإن غاب الحبّ، لا تستسلم، فهي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تظل منتظرة أن ينبثق، إنه الحلم بالمعنى المقاوم للعدم للجفاف والعقم، فرغم أن زينب لم تظفر بالحب ظلت متشبثة بالحب أمنية أثيرة لتقاوم غياب المعنى بغياب الحب: "لا بدّ أن تستمدّ من الخراب الذي يسكنها القدرة على الحب ! لا يمكن لهذا الخواء أن يتواصل... وأضافت لكن كيف ؟ كيف ؟ " (تماس - ص 64). ولم تكتف الكاتبة التونسية بالحبّ، إذ عطفت اهتمامها على موضوع الجنس، فسرد الكاتبات لا يخلو منه وإن تفاوت مقدار حضوره من نص إلى آخر. ووصف الجنس دخول في الحياة الخاصة الحميمة وفتح لباب ما أولى به، في العرف، أن يجري في الخفاء، بعيدا عن عين الفضولية وآلة تصوير الفنّان، وقلم الكاتب... ولخصوصية الجنس واتصاله الشديد بمنزلة المرأة والرجل فالمهمّ فيه لا التناول في ذاته وإنما كيفية التناول.

و"المحافظات" لا يذكرنه على نحو صريح (ومثل ذلك رواية آمنة للكاتبة زكيّة عبد القادر)، وبعضهن يلغزنه لدواع جمالية أكثر منها فكرية تنمّ عن موقف منه متحفظ" و"الليبراليات" يعالجنه معالجات مختلفة تجعله متردّدا بين الكشف المثير، والكشف المعتدل "المهذّب".

فالفتاة الريفية الفقيرة التي تعيش في بيئة قاسية منغلقة تشعر بالعطش الجنسي وتخامرها الهواجس بأن جسدها مقبور وكأن كلّ وجوه الحرمان في حياتها تلخّص فيه فيصير رمزا لها، وهي تحلم في حلم أقرب إلى الهلس بأن اتصالا ما يتم بينها وبين الطبيب الذي يعالجها: "وجدتني في حديقة كبيرة، خضراء وردية الزهور أسير والدكتور نادر يداعبني يحتضنني.. وصدري يتصلب على صدره.. (قصة الظل - ص 47) (5) و الأمر مجرّد حلم يقظة.

وفي أكثر من قصة قصيرة تتناول نعيمة الصيد موضوع الجنس تناولا صريحا وتركز على لحظة البدء وما يعقبها حتى الانتهاء منه... ولعلّ وصف السارد (أو الساردة) له مثير أيام صدور القصص، ولعل النظر إلى الجنس اليوم وعلاقة بعض وسائل الإعلام به... غيّرا الأمور و جعلا عنصر الإثارة في هذه القصص يضعف...

ففي قصة (الزحف) (6) وصف لعلاقة جنسية مليئة توترا والتهابا وشبقا ويبدو الجنس، هنا فعلا اختياريا تقبل عليه المرأة مع من ليس زوجا لها وإن كان حبيبا. هي تقبل عليه من أجل إرواء جسدها، وهي لا تشعر بأنها ترتكب خطأ أو تأثم، مما يعني أن فعلها في نظرها هو أخلاقي مشروع، يدل على الحريّة الشخصية ويكتسب شرعيته من الحبّ والإرادة الذاتية. وظاهر الأمر يوهم أن كل مقبلة على تجربة الجنس تعيش الحريّة وتترقى في مدارج الكمال الإنساني ولكن التعمق يبين أن وعي هؤلاء الفتيات المقبلات على الجنس مازال محدودا غير ناضج وأن فكرهن في حاجة إلى تطور لينعتق الباطن قبل انعتاق الظاهر، فعن كشف الجسد في هذه القصص قال الباحث جون فونتان "فنعيمة الصيد تقوم هنا، على ما يبدو بمهمة الرائدة، بجرأة نصوصها"(7).

تغفل الكاتبة عن بعض الظواهر الاجتماعية السلبية مثل البطالة والفقر وما ينجر عنهما من مآس فقد وصفت زهرة عبلة في جزء من قصة طويلة(8) نشرته عام 1956 م معاناة أسرة رجل اسمه محمود، حدث أن أصيب هذا الرجل بشلل فعجز عن العمل وبسبب غيابه بعثت له الإدارة برسالة تعلمه فيها بإيقاف جرايته فحزن هو وزوجته حزنا شديدا ورجت المرأة زوجها أن يسمح لها بالخروج للعمل فرفض خوفا عليها من شرور الناس ووصل الأمر بالأسرة حد الجوع. فاضطرت الزوجة إلى الخروج لمحاولة الظفر بعمل فلم تجد العمل وفي لحظة غضب خرجت لتعرض نفسها... فتهافت عليها من في المقهى. وفي لحظة استيقظ رشدها فعادت إلى منزلها. والواضح من الخاتمة أن القصة غلبت قيمة العفةّ والشرف على العوز وأن تاريخ نشرها يظهر اهتمام الكاتبة التونسية بالموضوع الاجتماعي في وقت مبكر جدا. فظل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ما هو اجتماعي معيشي حيا في سرد التونسيات بعد ذلك.

وبعض الكاتبات يتجهن إلى موضوع الفقر في الريف التونسي فيبرزن تجليّاته وأسبابه ونتائجه المؤذية والكاتبة التي تعنى بهذا الجانب في الريف قد تكون من أصل ريفي أو قد تكون عاشت في الريف أو عرفته على نحو ماّ.

ويبدو الفقر في الريف أمرا على غاية من القسوة، يحاصر الريّفي ويضيّق عليه ويجعل حياته صعبة جداً خالية من الراحة والفرح والاطمئنان، يكاد الأمل يغيب عنها. ويكاد الفقر يخرج الفقير من آدميته، ويحشره، بمراعاة نمط عيشه في زمرة الحيوانات. فالمسكن ليس لائقا هو مجردّ كوخ تنام فيه العائلة وما تملكه من حيوانات قليلة وهذا المسكن يستغل فضلا عن ذلك للطبخ والأكل والجلوس.

وعن معاني الفقر المدقع تكلمت حفيظة القاسمي في أكثر من قصة من مجموعاتها القصصية القصيرة التي عنوانها (البحث عن مدينة الريم) (9) فالشاب مختار في قصة (مختار والذئاب) كان يرعى عنزاته في الغابة المجاورة، وهذا القطيع الصغير هو مورد رزق عائلته. وكان الذئب يهاجم عنزاته، وفي كل مرة يفتك بعنزة، حتى ضاق الشاب ذرعا بالأمر وبحياته وحياة أسرته البائسة في غابة جبلية منعزلة عن المدينة وعن فوائدها، فكر في الأمر فنوى الهجرة إلى إيطاليا حيث ابن عمه، وكان يحلم بتحسين وضعه الماديّ والعودة بمال وفير وبعد ستة أشهر عاد الشاب، ولكنه عاد ميتا في تابوت وفي الليلة التي دفن فيها، أصرت الأم على رؤية جثمان ابنها فلما أزاحت هي وزوجها اللحود "كانت جثة ابنها مكومة في لحاف أبيض تلطخ بالدماء... ولا أثر للصندوق..." (ص 70). ومن المشهد يتضح أن ابنها قد قتل، أما الصندوق فقد سرقه أهل الريف...

ويفعل الفقر بأهل الريف ما لا يقوى عليه إلاّ عدو جبار فالفتاة زينت على صغرها، آلمها وضع والدها وعوزه. فوالدها يرتزق من زراعة التبغ ،وعندما يحين قطف أوراقه يجمعها ويجففّها ويحملها إلى مركز التبغ. وذات مرةّ سرق منه المبلغ المالي الذي حصل عليه من البيع وكان سيشتري به لأبنائه التسعة أدوات الدراسة. فحزنت جداً على ما وقع وصممّت على العمل في كل المناسبات الممكنة لمساعدة والدها حتى شعرت بالهرم في سن مبكرّة فهي لم تعش طفولتها... وانتهى بها المطاف إلى الطرد من المعهد (قصة زينب) (10).

وللسياسة عامةً حضور جلي في سرد الكاتبات التونسيات ولعل مردّ ذلك إلى أن بعضهن كنّ طالبات، في طور أقبل فيه جماعة من الطلبة على الفكر السياسي مطالعة ومناقشة، وزادوا على ذلك بالترويج لمختلف التيارات السياسية والانضمام إليها سراً، وفي الغالب كان الطلبة من المعارضين المنتمين إلى اليسار، وفي وقت لاحق انتسبت طوائف منهم إلى الحركات الدينية. وبعض ممارسي السياسة من الطلبة دفعوا ثمنا غاليا من طرد من الكليات، وسجن، وهروب إلى بلدان أجنبية...

فالكاتبة علياء التابعي عالجت موضوع السياسة والمذهبية (الايديولوجيا)، في روايتها (زهرة الصبار) وبعض شخوص الرواية يمارسون السياسة ويفكرّون في أمرها استجابة لميل عاطفي دون تروّ. ثم جاءتها مرحلة النضج فكان انحيازها إلى اليسار عن وعي وتضيف أنها استيقظت بالتدريج فتخلت عن اليسار بعد أن تبينت لها عيوبه. ووجهت إلى حركة اليسار في وطنها تونس نقدا شديدا، فهو جعجعة من غير محصول وهو كلام لا يتقيد به أحد ولا يعقب ثمرة، هو مجردّ حركات تمثيلية "قبل أن يكون موقفا من الذات، ومن الموجود، وإذا اليسار ليس ينقض للمسلمات والاتباعية، بل وكذلك سقوط وإحباط وخيانة رغم ضخامة الكلمة المضحكة" (ص 71).

والتدقيق يظهر اضطراب رؤية هذه المرأة المذهبية، فهي تزعم أنّها انضمتّ إلى اليسار بعد القلب، عن روية وتمعنّ وتذكر، بعد ذلك أن الصحو جاء رويدا رويدا

فانسلخت عن اليسار. فكيف يأتي صحو بعد رويّة ووعي ؟ فلو وقفت عند حد الميل العاطفي لكان كلامها عن حصول وعي أدّى بها إلى ترك اليسار مقبولا. فهل أن الوعي الأول الذي دخلت به اليسار لم يكن وعيا ؟ وكيف يكون اليسار مجرّد عيوب ونقائص ؟ فلا يكون فيه أيّة إيجابية مهما كانت ضئيلة وإن متابعة مسيرتها في الرواية لا تكشف عن أنها انتسبت فعلا إلى اليسار فقد حوكم اليسار، في الرواية عام1974 واضطهد فما اهتمت للمحاكمة ولا اكترثت لما أصاب الرفاق... فرجاء غابت عن المجتمع وأحداثه. وهل كانت يوما في غير الهامش ؟ ! "(مقدمة الرواية بقلم هشام الريّفي ص 17). وعن أحكامها على اليسار، قال الأستاذ هشام الريّفي " غير أن الخطاب المتعلّق باليسار جاء مبسّطا منحسرا" (المقدمة ص 26) .

ولم تغضّ الكاتبة النظر عن نظام الحكم، ففي رواية (زهرة الصبار) عرض لبعض أخطاء نظام الحبيب بورقيبة وإدانة لها. فالنظام حسب الرواية قمع معارضيه واستعمل العنف وزجّ بهم في السجون وهم من اليسار كما أخرج الجيش لمواجهة الإضراب العام الذي أعلنه الإتحاد العام التونسي للشغل وأدخل مئات النقابيين في السجن. وورد في الرواية "لم نعرف أبدا عدد من ماتوا" (ص 162) . وتشير الرواية إلى أحداث مدينة قفصة وتزييف الانتخابات عام1981، وأثر ذلك وما سبقه في سير البلاد التونسية نحو الظلمات...

وفي باب السياسة لم تقتصر الكاتبة التونسية على ما يجري داخل وطنها فاهتمت لما يجري في البلدان الأخرى، ومما لفت نظرها في فرنسا موضوع العنصرية، فقد اقتضت الحياة الحديثة وأحكام التاريخ أن يتّصل الإنسان التونسي بالعالم الخارجي وفي طليعته فرنسا. فالتونسي يقصد هذا البلد لدواع كثيرة مثل العمل أو العلاج أو الدراسة... واتصال التونسي بفرنسا يطلعه على نظرة الفرنسيين إلى التونسيين وغيرهم، ومما لا يمكن إغفاله من موقف الفرنسيين من غيرهم العنصرية باعتبارها فكرا وممارسة مضادين للأجنبي، فالعنصرية في لبّها هي رفض للأجنبي وللآخر المختلف.

بهذا الموضوع اهتمت الكاتبة عروسية النالوتي في رواية (مراتيج) (11) فبيّنت بعض جوانب الظاهرة وما ينتج عنها. جاء في الرواية على سبيل المثال، أن صاحب مقهى يتردّد عليه الطلبة التونسيون " كان (...) ومايزال يكره الغرباء (ص18). وهو في باطنه يتصور هؤلاء الطلبة الغرباء جيوشا من الهمج المتوحشين القساة، يهاجمونه، وفي الحقيقة هم لا يفعلون أي شيء مرفوض أو مؤذ، وإنما يدخلون مقهاه ويشترون بعض ما فيه ويدفعون ثمن ذلك، وعنصرية صاحب المقهى بادية فهي تظهر في نظرات عينيه المليئة بالكره والسخرية. ومن الوجوه التي تبرز فيها محاولته غشّ حرفائه التونسيين بالترفيع غير القانوني في بعض ما يشترونه منه، ولما اعترضوا على صنيعه طاردهم بكلبه، وقد بلغ به حقده على الأجانب أنه كان يودّ أن يسقيهم السمّ ليهلكوا حتى يضمن عدم رؤيتهم في المستقبل.

وتظهر المواقف العنصرية في مناسبات أخرى، مثلا، عندما يستوقف الشرطي الأجنبي ويفحص أوراقه ووثائقه التي تثبت هويته... ويطيل التشاور مع زميله ثم يرجع الأوراق بعد أن يكون سأل من أوقفه عن سكنه وعمله في باريس ومنذ متى هو هنا... والشرطي في كل ذلك يتظاهر بأنه يقوم بعمل عادي. وبهذه المواقف يفهم الغريب أن باريس لا تعامل الأجنبي، خاصةً العربي كما تعامل أهلها من الفرنسيين. إن الكاتبة ليست أسيرة للعنصرية فكرا وممراسة، فوجود العنصرية في باريس باعتبارها رمزا لفرنسا لا يحجب عن الكاتبة التونسية الجوانب الايجابية في باريس، ومن أهمّها «الحرية»، فبعض الحرية ينالها حتى الغرباء إذ بإمكانهم التعبير والتجمّع والاحتجاج. وباريس هي المدينة التي تتاح فيها للمرأة الأجنبية، العربية ممارسة حريّتها الذاتية دون خوف من رقيب أو أب أو أخ... وهي أيضا موضع المعرفة المتفوقة التي تحرّر عقل العربي من الجمود

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والأفكار الرّاسخة بسبب غياب الروح النقدية في ثقافة بلده، فأحد شخوص رواية (مراتيج) يقول " قطعت تذكرة سفر إلى باريس أبحث فيها عن مفاتيح الإعجاز التي تفتح أبواب الأذهان الموصودة (ص9) مما لا تنجح فيه حسب الروّاي (أو الرواية) " حضارتنا الشرقية الموغلة في التاريخ والجالسة على هامشه" (ص 30).

ومن ناحية أخرى فإن كاتبة رواية (زهرة الصبار) أقحمت موضوع اليهودي من غير داع فنّي وكأن الغاية هي قول أمر لابدّ من قوله عن اليهود فالدافع مذهبي، وهذا القول جماعه الإطراء والتمجيد. والحديث الذي ورد في الرواية عن عظمة اليهود وتفوقهم على بقية البشر، عاطفي بجانب أحكام العقل والواقع. تكلمت البطلة، في سرّها عن كتاب اقتنته بلهجة تتحدّى بها القارئ الضمني، وهو القارئ المشار إليه داخل الرواية "أي نعم سيدي... يهودي الي كتبو" أش نندب لعمري إذا كان اليهود في كل بقعة ؟ في الصحافة، في الاقتصاد، في البيت الأبيض والأليزي، ويعرفو يكتبو ويعزفو على الفيولنسال ويتفلسفو... ويأخذو جائزة نوبل زاده" (ص 43، 44). فاليهود حسب الرواية كتّاب يبرزون في كل مجال، في الصحافة.. ويبرزون في الاقتصاد والسياسة وهم في مركز القيادة في فرنسا وفي الولايات المتحدة الأمريكية...

ومما يفهم من الرواية أن اليهودي ولد عبقريا متفوقا على غيره من البشر في الأدب والفكر والفن والسياسة... وأن تفوقه راجع إلى كونه يهوديا، فاليهود هم اذن شعب الله المختار. ورؤية المتكلّمة في الرواية تمتح من الفكر العنصري وتغذوه وعت ذلك أم لم تع، وهي غير قائمة على حكم عقلي أو واقعي. صحيح فبروز اليهود يرجع إلى استفادتهم باعتبارهم مواطنين، من حركة التقدم في البلدان التي يعيشون فيها. ولماذا لم يبرز يهودي في تونس مثلا زمن تخلف البلاد التونسية، لماذا لم تبرز عبقرية يهودية في الحبشة ؟ أما لماذا هم في الإليزيه والبيت الأبيض فذلك أمر يعلل بموقع اليهود في الاقتصاد والسياسة والإعلام... في البلدين المذكورين، ولا يعلّل بعبقرية العقل اليهودي الخاصة.

وتعنى الكاتبة ببعض المواضيع ذات الصلة بالمجتمع والثقافة فتتناول جوانب من الحياة العائلية التقليدية وتبرزها لتذكّر بها وتحييها ملمّحة إلى ما أصاب الحياة العائلية من تبدل أخفى بعض العناصر المضيئة. ففوزية العلوي من مجموعتها القصصية القصيرة "علي ومهرة الريح" (12) تهتمّ للريف وما كان فيه من وجوه حياة جميلة، هاجمها العصر الحديث بقيمه الجديدة فقضى عليها، كأن القصص تلفت النظر إلى ما في ذلك الماضي من وجوه الجمال والمعنى، مبطنة دعوة إلى التمسك بهذا الجمال... فالراوية (أو الراوي في قصة الحكاية) تتذكر ماضيها لما كانت صغيرة زمن السعادة، ففي ذلك الوقت " البال مرتاح والفرحة كبيرة بعدد النجوم" (ص73) فالأطفال بعد أن يعدّوا لأمهم مجلسها وأدوات الشاي ويضعوا المروحة وآنية الماء الفخارية يتوسلون إلى أمهم أن تقص عليهم حكاية طويلة، ويعدونها بأن يكفوا عن الطلب، أي طلب المزيد من الحكايات، وأن يناموا باكرا، وأن يساعدوها غدا في أعمالها، وتشرع الأم في القص حتى يصيبها النعاس فيتكدّس الأطفال حولها ويغرقون في النوم.

ولهذه الأم براعة في القصّ وموهبة في الكلام فكان أبناؤها ينسون كل شيء، فلا همّ لهم إلاّ الحكاية، وعندما تحكي أمّهم يقتربون منها أكثر ويجلسون على ركبتها، وفي حضنها ويذوبون في عالم الحكاية ويتقمصون شخوصها... فالحكاية حسب الرّاوية حلوة كقطع من السكر أو حبّات التمر، قالت الرّاوية (والسباق يجعلني أرجّح أنها امرأة): "حكاية أمّي قصيدة والحكاية بلا أمي لا طعم لها". إن الحكاية حسب الرّاوية ذاكرة تدفئ القلب، ولها روح تهب قوتا فالحكاية تعطي معنى للحياة وهي قرينة عالم الطبيعة والحياة الريفية البسيطة النقيّة والرّاوية تكره، المدينة التي تعمل فيها لأنها بلا حكاية وبلا ذاكرة، فهي

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

حيطان مطلية بـ "المازوط" تشقها "الحافلات المجنونة"... وأشياؤها صناعية بلا جمال...

تآزرت عدّة عوامل فيسرّت دخول المرأة التونسية مجال الكتابة والثقافة والتعبير بوساطة السرد عن ذاتها ومجتمعها وعصرها. وتجمل هذه العوامل في التحولات السياسية الاجتماعية والاقتصادية والمعرفية والثقافية في تونس، وتعلّم المرأة ووعيها ورغبتها الذاتية في كتابة ما يحمل خبرتها ورؤيتها وعنيت الكاتبة بمواضيع ذاتية تهمّ الإنسان الفرد، منها الحبّ والجنس، وضمّت إليها ماله صلة بالمجتمع والعالم مثل الفقر والسياسة والمذهبية، معرّجة على مواضيع ثقافية طريفة لعلّها ألصق بالهوية والأصالة مثل بعض العادات في الريف خاصّة.

فالمرأة الكاتبة توغلّت عن طريق شخوص السرّد في الجانب الذاتي وهي بذلك تلج مناطق لا يستحسن المجتمع التقليدي الكلام فيها خاصة إذا كان المتكلّم امرأة، وقد تكون نظرة المجتمع بالحب أرحم من الجنس. وتصف الكاتبة حلم المرأة بالحب والجنس وتتعامل برؤية لا تدين المرأة وهي تطلب حقها في الحب والجنس، فالكاتبة تنظر إلى الواقع الجديد الذي يعيش فيه نساء يرغبن في اكتمال ذواتهن عن طريق العاطفة وإرضاء الجسد. والكاتبة تلحظ الحلم والرغبة وبعض لذات الحبّ والجنس كما تلحظ خاصة تحطم الحبّ والأحلام المتعلقة به، على صخرة الواقع الحديث القاسي، فهذا الواقع الجديد يمكن المرأة من الانفتاح على حاجات ذاتها ويجعلها لعاهات مرافقة له عاجزة عن الظفر بحب رائع دائم. والجنس وإن كان يحصل، فالنظر الناقد له، يظهره غير محرّر للمرأة على النّحو الذي تتصوّره هي، وهي تمارس الجنس خارج الأطر المشروعة المتعارفة.

إن الدلالة القصوى لوصف الكاتبة لما هو ذاتي دون أحكام أخلاقية تدين يعني من جملة ما يعني أن المرأة الكاتبة تتناول الذات بنظرة جديدة للمرأة ولعاطفتها ولجسدها تقرن عاطفتها وجسدها بالرّغبة في التمرّد على صورة المرأة القديمة التي أرادها لها المجتمع، وتدرك الكاتبة كذلك أن الواقع لا يتيح تحرّرا كاملا فقد يسّر من جهة وعسّر من أخرى.

ومهما انشغلت الكاتبة بالذات فإنها وهي المثقفة لا يمكنها التغافل عما هو أبعد من الذات، ما يضيف إليها ولا يلغيها أي المجتمع وقضاياه الكبرى، فقد لاحظت الكاتبة التونسية ما يرين على فئات واسعة فيه من عوز منذ بدايات الاستقلال إلى ما بعد ذلك، وهو عوز تدينه الكاتبة لأنه ينقص من كرامة الإنسان ويحرمه من بهجة الحياة ومن الشعور بأنه ينتمي إلى وطن مستقل يرعاه.

وألقت الكاتبة بنظرها على السياسة بوجوهها المتشعبة معارضة وحكما قائما، ومذهبيات، وهو موضوع جرت العادة أن يفكر فيه الرجال وأن يمارسه كذلك الرجال إذن التاريخ حكم بإبعاد المرأة منه. وبنفاذ الكاتبة إلى هذه الدائرة الهامّة وسّعت إلى حدود بعيدة فكرها فتبدّى الرأي الخاص بها، وتحكم وتنقد وترضى وتسخط مثبتة أنها إنسان مفكرّ لا يحصر اهتمامه في القضايا الذاتية، فالكاتبة تفحص الأمور العامة مظهرة درجة هامّة من الوعي، ففي هذا النطاق تابعت نضال الطلاب التونسيين في سبعينات القرن العشرين المسيحي وأشارت إلى مواطن الخلل والقصور ومجمعها في جمود الفكر والتبعية لأنماط فكرية مذهبية خارجية لا تنطبق، في نظر الكاتبة التونسية على واقع البلاد التونسية الخاص، ولم تعف النظام الحاكم آنذاك من الخلل فوجهت إليه نقدها الشديد. ومهجة هذا الخلل في الاستبداد والعنف والبعد من الديمقراطية، ونقدت الكاتبة حتى البلدان التي يشاع عنها أنها متحضرة (13) ديمقراطية، عادلة، إنسانية. وأشارت إلى ما يعتريها من ممارسات تنتقص مما يشاع عن تحضرها وقدرتها على قيادة الدول المتخلفة إلى الحرية والازدهار والتقدم... ففي باريس رمز فرنسا، والغرب عامة تنتصب مظاهر

العنصرية خنجرا في وجه الأجانب، خاصة العرب والكاتبة التونسية تستاء من هذه العنصرية وتدينها وذلك لا يحجب عنها وجه فرنسا الناصع وما يزدهر فيها من قيم الحريّة الحقيقية التي ينال حتى الأجنبي مقدارا منها لا يجده في وطنه الأصلي الذي هاجر منه.

وقاد موضوع الإيديولوجيا الكاتبة، من ناحية أخرى، إلى القول بتفوق الإنسان اليهودي على كلّ البشر وهذا القول ظاهره أنه حق يجب الإصداع به، وباطنه، لأنه غير علمي وغير عقلي، وغير موضوعي، أنه انحياز مذهبي لليهود يدعم نظرية تفوق بعض الأعراق طبيعة، مما يعني تبنّي الفكر العنصري، وهذا من عثرات بعض الكاتبات التونسيات.

وتعمد الكاتبة إلى استحضار عناصر ثقافية كان لها وجودها الحي في الأسرة التقليدية، تساهم في لحمتها وتعطي لحياتها معنى ولكنّ التحوّلات الحديثة عصفت بها...

وتبدو الكاتبة التونسية من خلال سردها راغبة في الجديد ساعية إليه منتمية إلى العصر الحديث وقيمه، وهي شديدة التعلق بقيم الخير والعدل والكرامة الإنسانية والتقدّم والحريّة.

الهوامش والإحالات

1 ـ ابن عربي، الفتوحات المكيّة، ج2– ص181.

2 ـ انظر بخصوص هذه المحاولة القصصية الأولى: محمد صالح الجابري: دراسات في الأدب التونسي – الدار العربية للكتاب ليبيا ـ تونس 1398/1978 ص 259.

3 ـ عروسية النالوتي: تماس – سلسلة (عيون المعاصرة) دار الجنوب للنشر 1995.

4 ـ علياء التابعي: زهرة الصبّار – سلسلة (عيون المعاصرة) دار الجنوب للنشر تونس1991 .

5 ـ من مجموعة (البحث عن مدينة الريم) القصصية للكاتبة حفيظة القاسمي ـ دار سحر للنشر ـ تونس 1997 م.

6 ـ نعيمة الصيد : الزحف (مجموعة قصصية) الكويت.

7 - Ici, manifestement, Naïma Essid fait œuvre de Pionnière par l'audace de ses textes, p 108

جون فونتان : جوانب من الأدب التونسي، 1975–1983 مطبوعات رسم، تونس 1985.

8. انظرعن هذه القصة ، محمد صالح الجابري – دراسات في الأدب التونسي – مرجع سابق ص 260–261 .

9 ـ حفيظة القاسمي : البحث عن مدينة الريم

10 ـ المصدر السابق

11 ـ عروسية النالوتي : مراتيج (سلسلة إبداع) سراس للنشر – تونس 1985.

12 ـ فوزية العلوي : علي ومهرة الريح ـ دار الرؤى للطباعة والنشر والإشهار ـ تونس 1995م.

13 ـ عبرت فضيلة الشابي عن أزمة الحضارة وأثرها في المرأة فقالت : "تعوي المرأة في المنحدر الحضاري" انظر روايتها" الإسم والحضيض" مطبعة الشابي" د./م، 1992 ، ص .163.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شاعرة من العالم العربي الإسلامي

آمـــال مـوســى (*)

قبل الحديث عن المشاكل والصعوبات التي تجابه المرأة الشاعرة في بلد إسلامي**، أريد المرور بشكل خاطف والتوقف عند الروابط بين الحضارتين الغربية والإسلامية، التي يبذل الحاضر كل ما في وسعه من أحداث ليدحض وجودها، وتاريخ إقامتها.

طبعا لا يتّسع المجال للقيام بجرد واسع حول مظاهر تلك الروابط التي تتجلّى في التلاقح والأخذ والعطاء، والتأثير والتأثر، ولكن مع ذلك فإنّ أقل ما يمكن من الومضات يعتبر كافيا لاسترداد بعض الضوء والتشويش قليلا على العتمة المهيمنة.

يرى المؤرّخون بأنّه من جامع القيروان تولّد جامع قرطبة. كما أنّ الإسبان قد كانوا كلّما استرجعوا مدينة إلا واستبقوا فيها المهندسين والمعماريين والبنائين والمزوقين والنجارين والحدادين والمصورين والموسيقيين، وأمروهم ببناء كنائسهم ومدارسهم وأديرتهم وقصورهم على النمط الإسلامي، مع بعض تعديلات تقتضيها العقيدة النصرانية. وقد سمي هؤلاء الفنانون المسلمون بالمدجنين نسبة إلى الفن المدجن الذي عمّ أوروبا وأمريكا.

اهتمت كذلك، المراجع التاريخيّة بنشاط حركة الترجمة في العهد الفاصل بين عهد الدوّلة الأموية إلى عصر المأمون العباسي حيث ترجمت أغلب الكتب اللاتينيّة ثم ترجم العرب المسلمون تراثهم العقلي وما أضافوه من علوم ومن آداب ومن موسوعات إلى اللاتّينيّة. وكونوا طبقات من المترجمين الايطاليين والإسبانيين. وتمّ نقل المعرفة الإسلاميّة والعربيّة إلى أوروبا بواسطة مدرسة سالرن وجبل كسيف وكريمونة في إيطاليا وطليطلة. وفي العلوم الإنسانيّة تحديدا استفاد الغرب من ابن خلدون كعالم اجتماع وكمؤرّخ وكديمغرافي أيضا بالرّغم من أن أعلاما غربية عديدة تصر على اعتباره مؤسّس علم العمران البشري لا علم الاجتماع. وفي الفلسفة فإنّ آثار الكندي وابن رشد أصلب من أن تمحى أو أن يتمّ تحاشيها. وشعريا، تمكنت ناقدة إسبانية لا أستحضر إسمها وحدثّتني عنها الشاعرة الاسبانية كلارا خنيس من إظهار تأثر دانتي بأبي العلاء المعرّي. كما أن أشعار غوته الشاعر الألماني الكبير تكشف تأثر الرجل بالثقافة العربية والتصوّف العربي الإسلامي وقوّة علاقة بتراث ابن عربي تحديدا. وأعود الآن إلى السؤال المطلوب مني الإجابة عليه: ما هي الصعوبات التي تلاقيها امرأة شاعرة في بلد عربي دينه الإسلام ؟

من المعروف أن الغرب، يكترث كثيرا بالحضارة

* شاعرة وصحفية تونسية.

الإسلاميّة، ويمتلك عدّة أسئلة، تجعله في أغلب الأحيان في ما وصفه الراحل إدوارد سعيد في علاقة مبنيّة على «التجاهل». لذلك سأهتمّ في هذه الشهادة بعمليّة الكتابة ذاتها، كمرآة تعكس ما يحيط بها.

إنّ مشروع الكتابة الإبداعيّة، يقشر ببطء. وفي زمنه الأوّل بدا لي وكأنّي أكتب في حالة منام غير مألوفة وما أنتجته في هذه الحالة، منحني ما يشبه العلبة السوداء التي تدلنا على المفقودين والخريطة التي تريد ذاتي السير عليها والطيران فوقها. أي أن الكتابة في حالة منام غير مألوفة، قد هيأت لي ظروف وعي لكتابة القصيدة في اليقظة.

فلم أختر في القصيدة الأولى أن أغني ذاتي ولكني في القصيدة الحالية اختار وأنا في كامل صحوي الذهني والشعري. فإذا بكتابة الذات/الذات تسلبني والشغف العاصف لابتكار كينونة أنثوية أساسيّة ومركزيّة في عالم الشعر بدلا عن كينونة فرعية، تشغل موقع الموضوع الشعري في نسق قصيدة الرجل العربي يستبدّ بي. إنّها الرغبة القوية في تقصّي كينونة ذاتي كإنسانة وكامرأة والإبداع ضمن شروطي الخاصّة البيولوجية والتاريخيّة الاجتماعيّة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولكن كيف يمكن ابتكار كينونة أنثوية مستقلة عن الكينونة الذكوريّة في ثقافة بني نظامها القيمي على مباركة الانتاج الثقافي الذكوري أولا وآخرا ؟

وهل لصالح المرأة الشاعرة أن تنخرط في شعر يقوم على الغيرية في كافة الأبعاد ؟

إنّ التفكير في هذين السؤالين بعيدا عن إرادة البحث عن إجابات حاسمة واهمة، قد مثلا خشبة النجاة، إذ بدأت أتحسس حاجتي في القصيدة وأن المطلوب مني أن ألتصق بذاتي وأفتح كافة الأبواب والشبابيك لها كي تعبّر ذاتي عن ذاتها والاجتهاد في مزج الشخصي بالذاتي بنحو يجعلني أرى في المرآة وجوها لا وجها واحدا. لذلك فالقصيدة عند سرير الذات وغرفتها وبيتها وشوارعها وحانتها. والغيرية المطلقة اغتيال جمالي للذات. ولا مجال كي أخرج من دائرة الموضوع والذي أسرني فيه نسق الشاعر الفحل إلا بالتحوّل إلى ذات لغويّة تصمّم هندستها المعمارية الخاصّة. وإذا كانت القصيدة العربية التقليديّة وفية للآخر اجتماعيا وللقيم السائدة والشاعر يلعب دور لسان القبيلة فإنّ الاستراتيجيّة المطلوبة هي تلك التي تتصالح مع الذات كصانعة للقيم ومتجاوزة والتي تحمل تصوّرا للإنسان وللذات بشكل يعارض النموذج القائم والمعتمد.

من هنا عدت إلى ذاتي راضية مرضية. أتباهى بها. أعشقها. ألثمها. أباركها. وأتساءل: أي جدار يتحملني لوحة. عدت وفي جرابي أساطير توجت المرأة رمزا للخصوبة ونافورة للماء وجعلتها الخالقة والأصل.

وجدت في الالتصاق بالذّاتي، تحررا من ثابت جنسي اجتماعي سلطوي. فإذا بالضمير المتكلم يهيمن على قصيدتي أقول في قصيدة «أعشقني» من مجموعتي الشعريّة الأولى «أنثى الماء»: أحملني فوق أناملي/أحملني على صهوة أحداقي/ألتف بجلدي قماطا/أعانقني شوقا إليّ/أبارك تدفقي، تلاطمي/أحضنني في صدري/ألثم هاتين اليدين المخضوبتين بشعري/أتهجى ألواحي/نقشي على الحجر/صورتي تحمل الماء للعطش/الطعم لشباك الصيد/ أقضي أجراس الليل/في نحتي/أنام تحت ظلي/ أليس بداوتي/نكاية في المدن/ فيّ أتنزه/ساعة الضجر مني/ أدخلني حديقة/لا توقع بيني وبيني/أعشقني مستحيلة/لا يعرف التراب قدميها.

إذا ردّ الاعتبار إلى الذات أولا وإلى الذات الأنثويّة كانا هدفي ومشروعي. فالثقافة التي قامت على ذهنية الجماعة والقبيلة والسلطة الذكورية سواء كانت أبا أو زوجا أو شيخ قبيلة، تحتاج من المرأة إذا ما وطئت عالم اللغة أن تقوم بوظيفة مزدوجة: تكريس كتابة

الذات /الذات بدلا عن الغير الجماعة. وأن تنسج خيوط كينونة أنثوية تستعيد بها اللغة إنسانيتها والنصف الآخر الذي لطالما كان غائبا أو حاضرا كموضوع أو كذات مقنّعة لا عارية كما يجب أن تجلس الذات في لغتها وتقيم.

ولكن التباهي بالذات والتغني بالجسد وبالوجدان وبالكون وبالآخر من بوابة الكينونة الانثوية استدعى مني الخروج عن السنة الشعرية وعن التخفي وراء ستائر من أدوات لغوية فحلة الصنع والرؤية وبالتّالي المعنى.

وجدتني غير معنية بتعرية ذاتي ضمن قالب شعري جاهز. شيء ما، أغراني بالبحث عما سماه «أنسي الحاج» الأوزان الشخصيّة، حيث لا صوت إلا لايقاعي الداخلي ولا نبرة إلا للموسيقى التي تطرب بشكل مختلف كينونتي. بعيدا عن بحور الخليل أردت أن أقيم ورشتي الشعريّة واستودع أسراري وأوزاني الشخصية والصور العديدة التي كلما تشكلت أمزقها. إنّها قصيدة النثر، التي أغرت وعيي وتلبست برغبتي الهائجة في استنطاق صمتي الداخلي والتقاط صورا تشبهني أكثر ما يمكن للشبه أن يبلغ.

صادقتُ القصيدة، وفيها صادقت أساطيري والطبيعة وهي حبلى بتناقضاتها وفصولها الأمزجة. تزوجت قصيدتي الماء. فصار أكثر عناصر الحياة تواترا في قصيدتي : لم يأتينا الماء/ يجري متلظيا من شدّة العطش/ لم الماء/ يقتفي خطواتي/ وينسى مجرى السواقي/ مسقط المطر/ لم لا أدلي بوجهي/ في أطراف الماء/ لأعرف/ كيف أخفى عنّا لونه/ ومتى أفقدناه عطره/ لم لا أصبح سر الماء ؟ / لم لا أكون أنثاه/ أنتظره في الجرّة/ حتى قدوم الصيف. (قصيدة أنثى الماء). وبقدر ما كنت مرنة مطيعة للبوح بقدر ما كانت القصيدة في ذهني زئبقا أمسكه لحظة ويهرب في لحظات. لقد عشقت قصيدتي والذات والأنثى، فإذا بالمرأة عالما وأغنية وهي الماء أي إكسير الحياة والمرهم السحري. وهي العاشقة والمعشوقة وفي كلا الدورين المتلازمين يقطن مركز العالم الشعري.

ولكن التباهي بالذات بدل الغير، جعلني عرضة لشبهة أراها محمودة وهي النرجسية. تلك الشبهة التي تليق بالشاعر ولكن في حالة الشاعرة تصبح دليلا على ذات متورمة. فالمرأة في المخيال الشعري العربي يتغزل بها ولا تتغزل بنفسها. إن التباهي بالذات كان بالنسبة إلي تعلة لتقشيري وتعريتي أولا ولتعرية الآخر أيضا. أليست الذاتية صوتا ولكنها أداة تسرب من خلالها كل ما ينتمي للجماعي، كما يرى فلادمير كريزنسكي.

أليس الذاتي جزءا من الجماعي ونصف الآخر أو ثلثه أو ربعه أو حتّى خمسه وعشره !.

ألا تحتاج المبدعة للكتابة بعيدا عن قوامة الجهاز الشعري الذكوري وعن رقابة القيم العتيدة. فمراجعة الأدوار داخل العالم الشعري كبديل إبداعي افتراضي خطوة ومقدّمة لمراجعة الأدوار في العالم الواقعي. ورغم أن بروست كان بارعا في نقل التفاصيل الحميمة للمرأة. ولا شك أيضا أنّ فلوبير قد وُفق جداً في تصوير عاطفة مدام بوفاري، إلا أن تعبير المرأة عن كينونتها الأنثوية الإنسانية بلسانها وببصرها وبنبضها وبكيفية تعانق وتنافر العناصر في داخلها هو المدخل المنهجي والطبيعي لتكريس تلك الكينونة على أرض الواقع. ومن خلالها تتمكن الكينونة الذكورية من تحقيق مسافة حميمة صادقة إنسانية بعيدا عن البطولات الحقيقية والوهمية. ذلك أن دخول المرأة على الخط والحفر في قيمة الذات والإقامة في نقطة المركز في العالم الشعري سيحولها إلى فاعلة في اللغة وبالتّالي فاعلة في الواقع من خلال كسر الطوق حول المسكوت عنه ورفع البرقع عن وجهها وعن روحها وذاتها لتتحركّ كإنسانة حرّة لا تفوقها العصافير حرية. وهي إذ تتعرّى يتعرّى معها الرجل والمجتمع. وهي إذ تهتك الأسرار يعم النهار ويصبح زمنا أبديا.

ARCHIVE

هكذا أرى ما يمكن أن تقوم به المبدعة إزاء النسق القيمي للثقافة العربيّة وهو ما يشترك في السعي إليه عدد كبير من الشاعرات العربيات اللواتي أضفن لعملية الإبداع ذاتها على المستوى الفني وكذلك المضمون الذي غيّر بعض المقولات، وما زال سيغير أكثر وأكثر كلما التصقنا بالذات وتلصصنا على الجميع ككائنات تعيش في الدّاخل كما في الخارج.

وبالعودة إلى السؤال المطروح فإنّه من الصعب جداً الحديث بإخلاص مطلق حول الشاعرة التي تنتمي إلى بلد إسلامي، ذلك أن الفضاءات الثقافيّة مختلفة حتى وإن انتمت كلّها إلى نفس الثقافة. فصعوبات شاعرة خليجية ليست هي نفسها صعوبات شاعرة من المغرب العربي وهكذا دواليك. ولكن مع ذلك يمكن رسم ملامح لصورة أرجو أن تكون صادقة إلى حدّ ما. فمن خلال مشاركتي في مهرجانات شعريّة أقيمت في مصر وسوريا والمغرب وعمّان وقطر ولبنان، أستطيع القول بأنّ الشاعرة العربية المسلمة تكتب في الحب وفي الغزل وفي قضايا الأمة العربية وعلى رأسها القضية الفلسطينية، لدينا فدوى طوقان كرمز لشاعرات القضية وسعاد الصباح ولميعة عباس عمارة شاعرتان في الحب وفي الغزل. ولدينا شاعرة وناقدة تسمّى نازك الملائكة ساهمت في التأسيس لقصيدة التفعيلة. وشاعرات أخريات كثيرات ولعل هذه الأسماء دليل على أن عالم الفن الشعري يقوم على الفرادة وعلى الموهبة مهما كانت المعطيات الخارجية المتمثلة في الانتماء الديني والثقافي والعرقي. وربّما لو قمنا بعملية إحصاء لعدد الشاعرات اليوم في العالم الإسلامي لأصيب الغربيون بالدهشة.

بيت القصيد أن طفرة من الشاعرات تغزو اليوم الشعر العربي تتمظهر في العدد الكبير للشاعرات وفي الملتقيات الخاصّة بهن. كما أن كم الشاعرات قد ساهم في ولادة جيل من الناقدات أيضا. وأغلب الشاعرات العربيات اليوم يكتبن قصيدة النثر أي قصيدة بودلير ورامبو. ولقد نجحت تجارب عديدة في الإضافة إلى أنموذج قصيدة النثر ونذكر هنا ميسون صقر من الإمارات ولينا الطيبي من سوريا وفاطمة قنديل من مصر وإيمان مرسال من مصر وهدى أبلان من اليمن وفوزية السندي من البحرين وسعاد الكواري من قطر ومرام المصري من سوريا. بالتّالي يمكن الاستنتاج بأن الشاعرة العربيّة تساهم في تشييد روابط شعريّة بين الغرب والعالم الإسلامي من خلال انخراطها في قصيدة النثر وتعريب روحها وقيمها مع القناعة بأن القيم الجمالية والإنسانية فوق الحدود العرقية والدينيّة والحضاريّة.

كما أعتقد أن الصعوبات التي تعيشها الشاعرة سواء في بلد إسلامي أو بلد غربي هي نفسها لو تناولنا تلك الصعوبات المتعلّقة بالعملية الفنية في حد ذاتها. أمّا تلك الصعوبات الخاصة فيمكن حصرها في صعوبة النشر التي تشترك فيها مع الشعراء الرجال، إضافة إلى أن كثيرا من النقاد يتهرّبون من الكتابة عن تجارب الشاعرات خوفا من التورط في إشاعات معينة. لذلك نجد نقادا مقتنعين بتجربة معينة إلاّ أنهم خيروا الحياد النقدي ويكتفون بالنبش في الشاعرات الطاعنات في السن والكبيرات في القيمة الفنية مثل فدوى طوقان ونازك الملائكة. إن تهمة كتابة الرجال للنّساء رائجة في الثقافة الإسلامية العربية: فنزار قباني يشاع أنّه كاتب قصائد سعاد الصباح. وأخيرا لعلكم سمعتم بإشاعة رخيصة دوت في الإعلام العربي تتهم أحلام المستغانمي الروائيّة الجزائريّة بأنها لم تكتب رواية ذاكرة الجسد، وأن الذي صمم معمارها الروائي هو الشاعر العراقي سعدي يوسف. إنّه جو من اللاتصديق بأنّه يمكن لامرأة أن تكون مبدعة في الشعر وفي الأدب. وأظنّ أن مثل هذه التّهم منتشرة أيضا في الغرب، لذلك فإنّي سأتجاوزها إلى نقطة أخرى أراها أكثر أهميّة لكونها تمس جوهر العملية الفنيّة الشعريّة، وتدير ظهرها لثرثرات الهوامش. إن المشكلة التي تعترض

الشاعرة العربية اليوم هي كيف تتحوّل من موضوع للقصيدة لطالما كتب فيه الرجل الشاعر إلى ذات لغويّة تفعل فعلها في اللغة وتشيد معمارها الخاص من خلال تقمص دور الفاعلة اللغوية. إن هذه المسألة تعتبر الحجر الأساس في القصيدة التي تكتبها امرأة، أي كيف تنسحب ذات الشاعرة على القصيدة بشكل يفرز أنوثة شعريّة تكون قادرة على مجابهة الذكورية الشعريّة ذات التاريخ الطويل العميق. وإذا قلنا بأن الاختلاف والتنوّع يثريان الفن ويزيدان في تعدّد القيم الجمالية، فإنّي أظن بأن الشاعرة المنتمية إلى بلد إسلامي يمكنها أن تنحت قصيدة مختلفة تتغذى من مرجعياتها الثقافية الخاصّة. وفي تجربتي الخاصة استفدت كثيرا من القرآن ومن الجماليات التي يشتمل عليها وذلك كنص غني بالعبارات وثري بالصور وتتوفر فيه كل التقنيات التي نحتاجها للبلاغة وللرمز وللتورية. كما استفدت أيضا من التجارب الصوفية التابعة لابن عربي والحلاج وقد انتبه الشاعر جوزيبي دي كونتي في تقديمه لترجمة قصائدي إلى ذلك، وأرجو أن يسعفنا الوقت لقراءة البعض من قصائد ذات المنحى الصوفي. إن الشعر كنص مفتوح على الأساطير والنصوص المقدّسة والمعارف والتجارب المختلفة، بإمكانه أن يكون قناة للحوار بين الحضارات. كما أن الشعر رغم عراقته فإنّه يعيش اليوم شبابه الجديد مراهنا على كم هائل من الدهشة الشعرية ما زال نائما في أعماق المرأة الشاعرة سواء في الغرب أو في العالم العربي الإسلامي. أيضا الشعر هو وليد المعاناة المختلفة الوجوه والدّرجات لذلك فإنّ الصعوبات مهما كان عددها أو نوعها فهي محرّضة على الشعر وليست حائلة دونه.

الهوامش والإحالات

** هذا النص هو في الأصل شهادة قدمتها الشاعرة في اليوم الخاص بالشعر العربي بإيطاليا.

* صدرت ترجمة شعر الشاعرة آمال موسى إلى اللغة الإيطالية عن دار نشر سان ماركودي فويستينياني وذلك تحت عنوان «أنثى الماء : في مملكة الذات»

وتعتبر هذه الترجمة التي أتت على أكثر من 25 صفحة، الأولى من نوعها بالنسبة إلى الشاعرات العربيّات المعاصرات. وقد كتب مقدّمة الترجمة أكبر شعراء إيطاليا المعاصرين جوزبي دي كونتي، مع العلم أن المجموعة الشعريّة الأولى للشاعرة والتي صدرت منذ عشر سنوات، عن دار سراس للنشر والتوزيع قد قام بتقديمها فقيد الأدب التونسي الكبير محمود المسعدي.

مدارات الإبداع لدى الفنانات التشكيليات التونسيات

كيف كانت مساهمة المرأة في حقل الفنون التشكيلية ؟ وما هي أهم الخصائص التي يتوفر عليها هذا الإبداع ؟ وأيضا ما هي العوامل التي أثرت وصاغت التجارب التشكيلية النسائية بتونس ؟

أولا ورغم أنه لا يمكن الحديث عن فن رجالي وآخر نسائي لانعدام إمكانية التمييز بين إنتاج الرجال والنساء وكذلك لأن الفن لا جنس له فهو ليس بالرجالي ولا النسائي، ولاهو ذكوري ولا أنثوي. ولكن، وفي هذا الإطار، وباعتبار ما نوليه للمرأة من اهتمام استثنائي يماثل الاستثناءات الطبيعية أو الدينية للمرأة فإننا نتعامل مع هذا الإبداع المنتج من طرف النساء على أساس أنه دلالة ذات صبغة وأبعاد إجتماعية مترتبة عن وضع المرأة في البلاد العربية الإسلامية وفي البلاد المنتمية إلى عالم طالما أرهقه تصنيفه بالثالث.

جمال الشريف *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تاريخياً، ومنذ انبعاث الممارسة التّشكيلية ببلادنا، يعتبر عدد النّساء الممارسات قليلا إن لم نقل منعدما قبل الإستعمار. غير أنّه ومع الإستقلال أصبحت المرأة من العناصر الفاعلة في القطاع. وبإمكاننا القول إنّ الفنّانات الرّائدات كنّ على ندرة لا قبلها ولابعدها. ولنا أن نسوق مثال صفيّة فرحات كنموذج للفنّانة الرّائدة على جميع الأصعدة،(1) وذلك لما تسنّى لها أن تنجزه في حياتها الفنيّة والعمليّة وبخلاف محرزيّة الغضّاب وشهرزاد كلستانة وماري ليندة جيجيليو وجوليات القرمادي في فترة الستّينات، لا نجد إلاّ النّزر القليل من المبدعات. ونشير هنا إلى أنّ الرّسامات اللّواتي ذكرتهنّ إمّا أجنبيّات تزوّجن من تونسيين وأقمن بيننا أو من بنات الذّوات، وهذا في حدّ ذاته الفارق النّوعي الذّي جعل من ظهورهنّ ممكنا.

أمّا بالنسبة إلى السنّوات السبّعين فإنّ حضور المرأة في الحقل التّشكيلي ومساهمتها فيه أضحيا أكثر وضوحا بحكم تحولّ المدرسة إلى معهد عال يستقطب الطلّبة، ونسجلّ ظهور عزيزة مرابط وفوزية الهيشري كنموذجين مازالا فاعلين.

لايمرّ الحديث عن مساهمة المرأة في مجال الإبداع التّونسي دون أن يتمّ التطرّق إلى ما أضافته المبدعات التّونسيّات في حقل هامّ من الفنون ألا وهو مجال الفنون التشكيلية. فقد كانت المرأة مسؤولة وفاعلة في هذا المجال خاصةّ إذا ما ذكرنا الفنّانة الأستاذة الرّاحلة صفيّة فرحات، تلك المرأة التّي تحمّلت إدارة مدرسة الفنون الجميلة بتونس سنة 1966 بعد تخلّي السيّد "برجول" عنها لتكون أولّ مديرة للمدرسة تحمل الجنسيّة التّونسية. تولّت إذا هذه الفنّانة مهامّ (حولّت المدرسة إلى معهد عال تابع لوزارة التّربية والتّعليم العالي بعد أن كان تحت إشراف كتابة الدوّلة للشؤّون الثّقافية) إدارة المعهد التّكنولوجي للفنون والهندسة المعماريّة والتّعمير. ثمّ ما لبثت هذه الفنّانة أن

أسّست مركزا للفنون برادس فمولّته وأشرفت عليه وجعلته قبلة للفنّانين من الهواة والمحترفين يزوّدهم بالخبرات وبالمعارف التّي من شأنها أن تهيئهم لدخول عالم الفنّ بمكتسبات هامّة. وبتطويرها للمنحى العلمي والبيداغوجي بالمعهد التّكنولوجي للفنون والهندسة المعماريّة والتّعمير بتونس أضافت إلى حلقات نشاطها أبعادا مؤسّسة للبحث التّشكيلي الجيّد في كنف المبادرة المدروسة. لذلك نقول إنّها رائدة بحق وعلى جميع الأصعدة العلمية والمعرفية والبيداغوجية والتشكيلية الثقافية. وقد استطاعت هذه الفنانة أن تكرّم المرأة وأن تكرّم تونس في نفس الوقت بما قدّمته من جليل الخدمات للمجال التعليمي والإبداعي في ذلك الحين، إذ ساهمت في تكوين أجيال عديدة من الفنانين التشكيلين والفنانات التشكيليات ذوي التجارب الهامّة على المستويين التونسي المحلي والدولي الإقليمي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد أعطت الفنانة صفية فرحات للفنون التشكيلية تجربة العمر بأسره، ذلك أنها أشرفت على تطويرالمناهج التعليمية وساهمت في صياغة آليات البحث العلمي وفي تغيير وجه المنظومة التدريسية من البعد الورشوي الإحترافي إلى البعد المعرفي المطبوع بخاصية البحث فأحدثت ثورة في المجال وغيّرت من عقليات العديد ممّن عاصرتهم في فضاءات المعهد أو خارجها من الفنانين المرموقين والناشئين.

كانت صفية فرحات من المجدّدات في ميدان النسيج الفني من خلال ما أحدثته من تحولات ضمن رؤية رائدة في مجال إستغلال التقنيات التقليدية في

تمش حديث ومعاصر، فقد قامت بتوظيف المفردات الشكلية واللونية المأخوذة من المنسوج التقليدي في الحيز الحديث لقراءة تشكيلية عميقة فأنجزت العديد من الأعمال النسيجية .

وهي أعمال تدلّ على الرؤية النافذة للفنانة التي تمارس العديد من التعبيرات التشكيلية الأخرى كالأعمال الزيتية والأكواريل والرسم الخطي والحبريات والطوابع البريدية أو التصميمات العديدة لأغلفة مجلّة فائزة. ومن خلال الحسّ العميق والمرهف لفنانة قرأت المنسوج جيّدا إستقت الفنانة أساليب جديدة في التعامل مع الخامات الصّوفيّة منها والصّناعية فقامت بإعطاء المنسوجة وجودا آخر خارج الأطر التّربيعيّة المعتادة وصاغت من الأشكال الجديدة العديد من الأعمال موظّفة فيها التّراكم والتّراكب والبعد النّحتي.

وكانت بهذا التّوجّه أستاذة في العديد من التّجارب الهامّة والتّي يتقدّمها كلّ من الفنّان محمد نجاح وعلي الطرابلسي وعمر العيفة كريم وفاطمة الصّامت وفدوى دقدوق، ووفّرت بهذا التّوجه أيضا للباحث من الطلبة والفنّانين الاتجاه التّشكيلي المدروس والنّموذج الجيّد. واتّجهت صفيّة فرحات إلى العمل على إدماج الفنّ ضمن النّشاط الإجتماعي والثّقافي والإقتصادي، من ذلك تصميمها للعديد من الجداريّات والتّي يظلّ من أهمّها الجداريّة المنجزة من الحديد والتّي يحملها جدار المسرح البلدي بسوسة.

غرست صفيّة فرحات في نفوس العديد من الفنّانين الشبّان في الفترة السّبعينية والثّمانينيّة روحا من الابداعيّة الهامّة والمثرية، وتبقى بذلك عائشة الفيلالي(2) بمثابة الوريثة الشرعية لهذه الفنانة بما أنّها أشرفت على تربيتها وتكوينها فأورثتها روح المغامرة والمغايرة وثقافة الفنّان الشّامل ومعرفة الباحث الجدّي والمتبصّر.

أما بالنسبة للفنانة محرزيّة الغضّاب فهي تعدّ من الفنانات العصاميّات القليلات اللّواتي أعطين للفنّ السّاذج والفطري وجها محترما بمثل ما أعطاه علي القرمازي أو البغدادي شنيتر وهي من المواضبات على العرض وعلى الظهور. وتقدّم هذه الفنانة المشهد التونسي بتفاصيله وبخصائصه ضمن مقومات جمالية تلتزم نقل الواقع والوقائع وتصورّ الواقع من أجل واقع أجمل وأكثر إيغالا في التمسك بالتقليدي من أوجه الحياة باعتزاز المعتقد والحالم في نفس الوقت.

فيما يتعلّق بشهرزاد كلستانة فقد قدّمت تجربة مختلفة إستلهمت فيها بعضا من روح الأدب وخاصّة الشعر منه متوخيّة أسلوبا يحاكي المنمنمات الفارسية التي وجدت فيها شحنة تعبيرية ذات بعد شعري وفضاء فردوسياً للتعامل مع المعاني من خلال الخط الرقيق والتفاصيل الدقيقة في حيزّ مصفّى ومتجانس العناصر يجمع بينها التكامل. وقد قدّمت ترجمة تصويرية للعديد من الأشعار مثل رباعيات الخيّام أو أشعار الفردوسي التّي تصورّ مجالس الحبّ والعشق والطرب، حتّى أنّها اتهمت بتشويه وجه المنمنمات وذلك في بداية مسيرتها التشكيلية. (3) ثمّ دفع بها البحث إلى الإهتمام بالمشهد الطّبيعي على غرار ما قدّمته في أواخر الثّمانينات من منسوج تشكيلي.

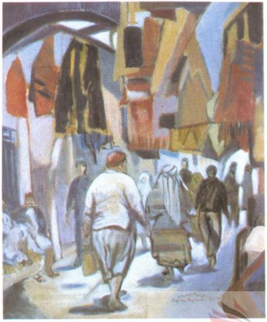

كما تقدّم فوزية الهيشري مبحثا تشكيليا إستثنائيا بحكم إختصاصها في ميدان الحفر وكذلك بحكم إنتباهها للموروث التقليدي من العلامات والخامات فنوّعت في تناولها المطبوع بالتبسيط وبالبحث عن التوافقات التشكلية وعن التكوينات الإستثنائية المليئة ببورتريهات النّساء والرّجال بصفة مسترسلة ومتواصلة والمفعمة بجوّ الألفة والتأليف بينها. وإجتهدت الفنانة فوزية الهيشري في توظيف تقنيات الحفر على الخشب وعلى الليتو لتأمين مساحات كبيرة للمحفورات الثنائية والثلاثية التكوين فأعطت لهذه التقنية حضورا لابأس به ضمن التظاهرات التي شاركت فيها إبداعا وتنشيطا.

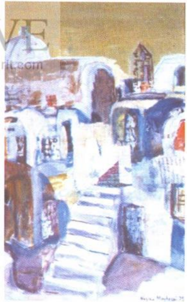

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونشير في تناولنا للتّجارب النّسائية التّشكيلية التّونسية إلى الفنانة فريال الأخضر التّي تعدّ من القليلات المنتميات إلى مدرسة تونس، وهي وأن انتمت إلى هذه الجماعة الفنيّة التونسية لا تعبّر صراحة عن القناعات الجماليّة والتّشكيليّة لهذه الجماعة. وإذا ما تناولنا بالدّرس أعمالها يتّضح لنا تأثّرها بالتّجربة التّشكيلية للفنّان بوتارو، وذلك ضمن فضاء تشكيلي يحتفل بالجسد ويضخّمه ويتدخّل عليه.

تقدّم نزيهة المغربي وجها آخر من العصاميّة المخضرمة التّي سعت إلى اكتساب تكوين أكاديمي في ممارسة الرّسم لذلك تنوّعت أعمالها وأظهرت ثراء لا يمكن تجاوزه. وبالعودة إلى إنتاجها التّشكيلي يتراءى لنا ميلها إلى تجسيم المشهد العربي العتيق المستوحى من الفضاء المعماري للمدينة ومن التّقاليد والعادات التّونسيّة التّي أمكن للفنّانة أن تقتنص مشاهدها أو أن تستحضرها.

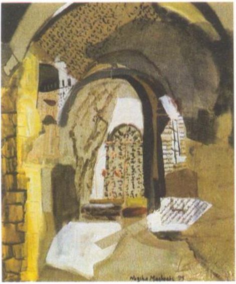

ورغم بدايتها التّي تشير إلى نوع من التّأثر بتجارب من سبقها من أعلام الفنّ التّونسي كيحيى التركي أو عمّار فرحات أو كذلك محرزيّة الغضّاب ثمّ محمود السهيلي فإنّها سعت إلى الإجتهاد في رصد أسلوب تقني وتملّك إبداعيّة التّلوين الحرّ في مجمل أعمالها الأخيرة وقبل رحيلها. يقول النّاقد خليل قويعة عن هذه المرحلة ما يلي: " إنّ الأعمال التّي قدّمتها نزيهة المغربي في منتصف العشريّة الفارطة كانت مصافحة أكاديميّة انطباعيّة لمشاهد مختلفة من المدينة التّونسيّة العتيقة ومن ذلك سيدي بوسعيد، فبزغت في أعمالها الأسواق العامرة بالشّخوص والحركة. ومثل هذه المرحلة كانت بمسافة درس تمكّنت من خلاله من تحرير فرشاتها شيئا فشيئا من السّطح التّصويري والمشهدي إلى الفضاء التّشكيلي المستقلّ، ومن ثمّة تحرير تعاملها مع الفضاء"(4).

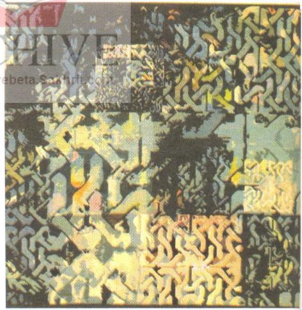

وتوصلّت الرّسامة بفعل توظيف تقنيات جديدة مثل الكولاّج والتّكوين بالتّركيب إلى إعطاء وجها جديدا للمشهد غير ذاك الذي تعوّدنا على رؤيته منقولا من حيّز الواقع واستطاعت، بهذا النّهج، أن تعطي لتعبيرها التّشكيلي نوعا من التّفرّد والوحدة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

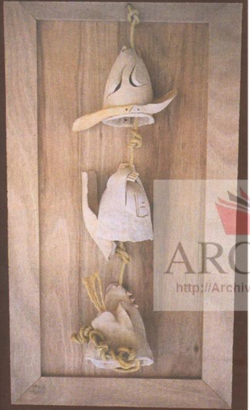

أمّا فاطمة الصّامت فهي تعدّ من الفنّانات النسّاجات القليلات اللّواتي واضبن على استعمال النّسيج مع إدماج بعض الألياف الأخرى من قصب وأعواد وألياف النّخيل وقد استمرت في توظيف نفس العلامات والمفردات التّي تعوّدنا عليها في المنسوج التّقليدي والتّشكيلي. ثمّ وما لبثت أن تخلّصت إلى توظيف الألوان الترابية بكثافة في اتّجاهات عموديّة أو تقسيمات تربيعيّة بسيطة. أمّا فدوى دقدوق فهي من الباحثات المتميّزات عن فضاء تشكيلي منسوج استثنائي، إذ توظّف هذه الفنّانة الألوان والخامات العديدة من أجل تقديم فضاء تشكيلي يختصّ بالبساطة وبالعمق الثّقافي والحضاري معا مع توخّي مقاربة تقنيّة تروم الإتقان. وفي مجمل أعمالها تقدّم مبحثا على علاقة بالزّخرف العربي الإسلامي من جهة وبالإشكاليات التّقنيّة من جهة أخرى. وتقدّم فدوى دقدوق رهافة الإضاءة وشفافيّة اللّون مع البحث عن الصّياغة التّشكيلية المبتكرة والتّي تمكّن القارئ من الولوج إلى المنسوجة أو إلى الفضاء التّشكيلي من خلال الإضاءة كعنصر رئيسي في صياغة العمل النّسيجي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إنّ الإستثناء الذّي تشكلّه تجربة عائشة الفيلالي هو استثناء التكوين وكذلك الرغبة في الإختلاف، فهي تصر من خلال معارضها الشّخصيّة على الربّط بين مختلف المجالات التّطبيقيّة في الحياة وتعتقد أنّه لافرق بين ما تعطيه الحياة وما يمنحه الفنّ من فرص، غير أنّ التعبير التّشكيلي هو المهمّ لديها دون الفصل بين صناعات وحرف وفنّ أو الفصل بين فنّ نسائي وآخر رجالي. وأكدّت هذه الفنّانة من خلال استباقها على التّميّز في مستوى التّناول المعاصر لقضايا تشكيليّة ذات أبعاد نقديّة وقراءة عميقة للواقع. واتّخذت من

الخزف ومن التّركيب والتّكوين بالتراكم وبغيره من اختيار المواد تقنية ذكية في طرح الأبعاد الفنيّة لأعمالها. وتعطي ممارسة عائشة الفيلالي للخزف الفنّي بوجه هزلي وساخر وطريف قراءات ممكنة لأحوال الكائن ولمباحث الحياة من ذلك "أعمال سلالة من طين" التّي تعكس وجه المجتمع التّونسي بجميع أطيافه، أو مجموعة أعمالها "الهموم الجامدة" و"البورتريهات التّحتيّة" وغيرها من الأعمال المفاجئة للقارئ.

إنّ ما تطرّقنا إليه من تجارب نسائيّة لا يعكس في الحقيقة غير بعض النّماذج من الفنّانات اللّواتي استبقن تاريخيّاً عددا لا بأس به من المبدعات الجديدات اللّواتي في معظمهنّ في سنّ العطاء والبحث، ذلك أنّنا أمام كمّ هائل من المبدعات سواء من خرّيجات المعهد التكنولوجي للفنون والهندسة المعمارية والتعمير بتونس أو من مدرسة الفنون الجميلة التّي أضحت معهدا عاليا للفنون الجميلة أو من العصاميّات اللّواتي تلقيّن تكوينا أكاديميّاً بالمراكز كمركز رادس أو غيره من ورشات الفنّانين. وتشكلّ أسماء منوّر وبشيرة التّركي بوعزيز وباتريسيا التّريكي وهدى المهيري غربال وبسمة هلال ومنى الدّوف ومنى الجمل ونادية الجلاصي وفاطمة الشّرفي المسدّي وسعاد المهبولي وغيرهنّ... جيلا جديدا من المبدعات. وقد تميّز هذا الجيل بالتّنويع على التّعاطي مع الرّسم الزيتي أو مع التّنصيب. وتميزّت نادية الجلاصي بعرضها المعنون بالدّهن المدهون الذّي قدّمت فيه بقاعة يحي تصورّا لإستعمال أغطية وأغلاق أوعية الدّهن الصّناعية الكبيرة كمحامل لعملها التّشكيلي في محاولة لقلب الأوضاع ليصبح الفاعل الرّئيسي في ممارسة الرّسم وهو الدّهن مفعولا به، أمّا فاطمة المسدّي فقد قدّمت تصورّا جريئا لشخصيّات غريبة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

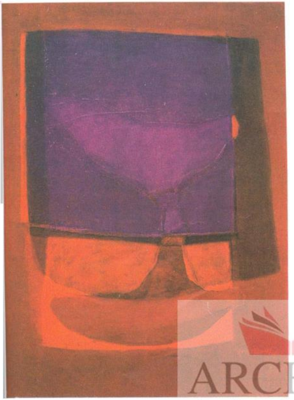

أعطتها من الأسماء عبروق في ربط مع الوضعيّة العلميّة للتّناسل داخل الإطار المخبري، وهي بذلك تعطي لعملها التّنصيبي بعدا إيحائيّا من خلال ربطه بالرّاهن الحياتي للإنسان في الزّمن المعاصر وتقدّم في ذلك تصوّرا للأوضاع الإنسانية عموما بعد حرب الخليج الأولى .

ويمكننا القول بأنّ هذه التّجارب قد انخرطت في الأبعاد المعاصرة للتّعبير التّشكيلي لدى الفنّانين التّشكيلين التّونسيين، ذلك أنّ فاطمة الشّرفي ونادية الجلاصي وعائشة الفيلالي قد قدّمت إنتاجا يتفرّد في مستوى المقاربة للفنّ التّشكيلي الذّي يتحرّر في تجاربهنّ من سلطة النّموذج التّقليدي للرّسم المساحي أو للمارسة التّشكيلية المتعارف عليها بتونس. ومن خلال مقاربتهنّ للبعد النّقدي بالمفهوم الإجتماعي تبرهن ثلاثتهنّ على مدى نفاذ بصرهنّ إلى الأبعاد الأخرى التّي ينفتح عليها التّعبير التّشكيلي والتّي يصبو إليها الفنّ عموما.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

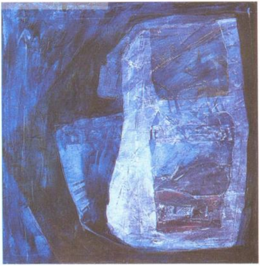

نجد وفي الجانب الآخر من المعادلة، تشكيليّات تونسيّات أعطين للوّحة بعدا جديدا من الظّهور، فأعمال كلّ من أسماء منوّر وإنصاف سعادة وهدى غربال وبشيرة التّركي بوعزيز ومنى الدّوف تبيّن أنّ الحسّ الجمالي تجاه الحيّز المسطّح عند هؤلاء التّشكيليّات قد أثمر مغامرات تشكيليّة متميّزة مفعمة بالملامس الغنيّة والثّرية من نتوء ومن إيحاءات بالبعد الطّبوغرافي للوّحة ضمن اختيارات لونيّة جريئة ومركّزة.

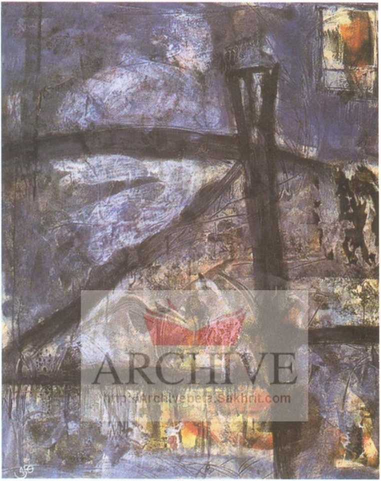

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تقدّم أسماء منوّر لوحة كبيرة الحجم مختزلة وثريّة وتكتفي باللّون الواحد الذّي تنوّع عليه لتخلق من فضائها التّشكيلي كتلة متماسكة من المساحات المجردّة والقابلة لبناء العلاقات بالمجاورة وبالتّقاطع في الحيزّ المساحي بشكل محكم، وفي أعمالها نكتشف هذا البعد من الاتساع والوحدة والبنائيّة المتينة التّي تبرهن على التّمكن من الأدوات التقّنيّة ومن قراءة الفضاء. ولقد كان هاجس الوحدة والتّجانس أساسا لمبحث بشيرة التّركي بوعزيز، إذ تفاجئنا بفضاءات رحبة تتنوّع فيها المستويات والأبعاد وتركز ّعلى تطويع اللّون إلى إختيارات الوحدة والتّدرّج.

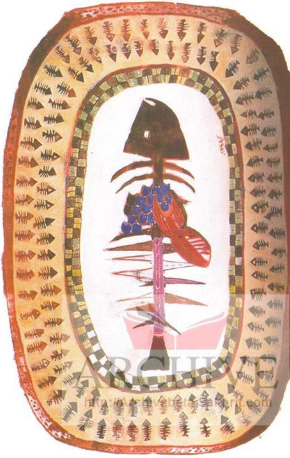

وفي نفس الإتجاه ومع توخّي تقنيات أخرى، تقدّم هدى غربال المهيري لوحة إستثنائية من حيث المساحة الكبيرة ومن حيث التّوزيع الذّي يجانس اللّون وينوّع على المفردات الصغيرة والكبيرة من الخطوط والأشكال والمنافذ الصّغيرة في اللوّحة، بعد أن كانت انطلقت في بداية التّسعينات بأعمال تستلهم الصّور المنجزة للأطفال والمتاهة الخطيّة. وتقترح هدى غربال بعدا تشكيلياً يؤسس مسطّحا غنياً بالأشكال والعناصر من خلال توظيف الكولاّج والتّقشير والتّقليع وعوامل التّعرية والتّغطية معا.

أمّا إنصاف سعادة فهي تركّز على استلهام وتوظيف الأشكال الحيوانيّة كالزّواحف وهياكل الأسماك لتخلق منها عناصر شكليّة ومساحيّة تقوم بتجريدها وتصفيتها حسب مقتضيات البناء التّشكيلي وفق الوحدة أو التّكرار والايقاع من أجل صياغة فضاء تشكيلي استثنائي له خصوصيته. ومن الطّريف أنّه من الممكن التعرّف على أعمالها دون الرّجوع إلى الإمضاء لما أعطته هذه الكائنات من أبعاد الحياة للوحتها. لقد تغيّرت هذه الأشكال وأصبحت علامات كعلامة الإتّجاه ودلالات أخرى ذات أبعاد رمزيّة مطلقة بعد أن كانت ذات رمزيّة مباشرة، في فضاء تشكيلي يتّسم بالوحدة وبالثّراء البصري.

تغادر باتريسيا التّريكي مجال المرجعيّة المباشرة والإيحائية للوّحة المعتادة في تونس لتنطلق من القطيعة ذاتها فتؤسس مقترحا تشكيلياً حداثياً متميّزا. وفي لوحتها تمنح للعين إمكانيّة السبّاحة في مجال بصري متوحّد ومثير، ما يذكرنا بصدأ المعدن أو بالذّاكرة المستعادة. ودون ذاكرة تمضي باتريسيا في عملها نحو التّعاطي مع المعطيات الحديثة كالصّورة والطّباعة وغيرها لايجاد فضاء ينبعث من رماد المطلق ويتأسس بمعطياته الخاصّة دون الإستناد إلى غير ما هو مادّي. وتستند باتريسيا التّريكي إلى الصّورة وتستعملها في تصوّر معاصر يذكّرنا بالعروض التي يقدّمها بولتانسكي لمجموعة الصوّر أو لمجموعة القطع التّي تؤلف بينها أثناء العرض.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تتمسك الفنّانة منى السيّالة الجمل باستعمال الصوّرة الفوتوغرافيّة لتقدّم تصورّا تشكيليا مختلفا جوهرياً عن باقي الفنّانات التشكيليّات التونسيّات. وتسعى من خلال توظيف صورتها الشّخصية إلى إضفاء مسحة من البعد المعاصر لمقترح تشكيلي جريء. ففي عملها تعرض تنويعا لونيا وتقنيا بين المونوكروم الأسود والأبيض والسلّبي والايجابي في معالجة رقميّة لهذه الصوّرة لفائدة عرض يوحي بمرجعيّات معاصرة كمرجعيّة أندي وارول أو غيره ولكن ضمن تصوّر يتجاوز المرجعيّة من أجل اكتساب مقوّمات التّجربة الشّخصيّة. وتمضي منى الجمل في التّعاطي مع فنّ التّصوير من منطلق بناء فضاء تشكيلي منفرد يتأسّس على الطّرافة وعلى توظيف تفاعلات الصوّرة وفق برمجيّات الحاسوب ويظهر لنا البعد التأويلي للصوّرة من خلال هذا التّناول المنضبط للشبّكة التّربيعية والذّي يؤدي وظائف تشكيلية هامّة، من ذلك الانفتاح والاتساع والقدرة على التّدخل التّشكلي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد تعرضنا إلى العديد من التجارب النسائية في ميدان صياغة الفنّ التشكيلي وبيّنا كيف أنّ المرأة وبمثل ما يبدع الرّجل فضاءه التشكيلي تصوغ فضاءاتها الحميمية ضمن تمشيات حديثة ومعاصرة وتطرح العديد من الإشكاليات البحثية التّي تعدّ على درجة بالغة الأهمية. وتطرقنا في ما عرضنا إلى الحسّ الفنّي عند التشكيليات الأوائل واللاّحقات من الأجيال وتبينّا أنّ ما أعطته المرأة للفنّ التشكيلي إنّما هو مميّز وهامّ يتأرجح بين التعبير الحرّ والتعبير المؤطر بالمرجعية والتمشي، وهذا في حدّ ذاته ما يجعلنا نكرّم المرأة تكريما آخر يرتبط ببعدها الخلاّق القائم على قيمة الوهب والعطاء كما دورها في الحياة والطّبيعة. غير أنّنا وفي ما يلي نطرح بعضا من الأسئلة حول المدارات التشكيلية الإبداعية لما تنتجه المرأة من أعمال اتّضحت قيمتها التشكيلية خصائص وبنية، وإذ نتساءل فإنّنا نطرح بعد الوعي بالممارسة الذي يبدو حاضرا بكثافة عند بعضهنّ وغائبا عند الأخريات أو بالهويةّ المحلية والإقليمية مستندين في ذلك إلى إشارة الأستاذ الباحث الحبيب بيدة إذ يقول: " يبدو غريبا أنّ تكون التشكيليات التونسيات وربّما العربيات ومنذ السبعينات على هامش إشكالية الهويةّ بمعناها التراثي وأن لايطرحن على أنفسهنّ سؤالا طرحه التشكيلي العربي عموما وهو سؤال الأصالة المعاصرة والتوفيق بين هويةّ محلية وهويةّ كونيةّ يكون التعبير التشكيلي حاملا لها

علاماتياً ورمزياً. ولنا أن نتساءل هل أنّ إختيار عدم طرح السؤال كان معاصرة للحداثة أم تحديث داخل المعاصرة، هل كان تفعيلا للوعي أم مجرّد تفعيل للممارسة؟" (5).

يبدو تساؤل الأستاذ بيدة منطقياً لأنّنا لم نتلمس هذه الأبعاد أو إيحاء واضحا وصريحا بها، لكنّنا نستدرك ونقول بأنّ تفعيل الممارسة في حدّ ذاته بعد إيجابي لأنّه منح للمرأة بعد الإستقلالية عن كلّ ماهو توجهات إيديولوجيةٌ للممارسة التشكيليةّ، وقد يكون ذلك متضمناً للسلبيةّ بأعتبار أنّ ممارسة الفنّ تحمل في طيّاتها بعدا وجوديا وممارسة ذات طابع إيديولوجي كامن مهما حاولنا التغاضي عنه. ونرى من جانبنا أنّ الوعي كامن في الممارسة ذاتها رغم التحلل من المرجعيّات أو مغادرتها عن قصد وذلك حتّى وإن تعاطت بعض المبدعات الفنّ التشكيلي من باب الرياء البرجوازي أو السلوك المقلّد في بعض الأحيان. وإنّ الأبعاد الإبداعية التّي تنطوي عليها إبداعات المرأة حسبما راينا لا تملك إلاّ أن تؤيّد رأينا الذي لا يبتغي إنحيازا للمرأة بقدر ما يسعى إلى إنصافها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش والإحالات

* مساعد بالمعهد العالي للميلتميديا بتونس، مكلف بإدارة المركز الثقافي الجامعي بتونس.

1 - يقول علي اللّواتي: " من بين النّساء القليلات اللاّئي مارسن الرّسم في تونس، تبرز صفيّة فرحات كفنّانة حقّقت رصيدا من التّجارب الإبداعيّة الطّريفة ورسمت لنفسها مسارا متفرّدا يجعلها من الشخصيّات الهامّة في الحركة الفنيّة التونسيّة. وقد ولدت سنة 1924 بمدينة رادس القريبة من تونس والتحقت بمدرسة الفنون الجميلة وفازت بمناظرة منحة السفر، وعرضت منذ 1952 ولفترة طويلة في معارض مدرسة تونس وغيرها من التظاهرات الكبرى للفنّ التونسي المعاصر. ودرّست الديكور في مدرسة الفنون الجميلة التّي أشرفت على إدارتها طيلة سنوات عديدة. " الفن التشكيلي في تونس، نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الطبعة الأولى،1996 . ص 75.

2 - أصدرت عائشة الفيلالي في سنة 2006 وضمن منشورات ميم بيوغرافيا مستفيضة للفنانة الراحلة صفيّة فرحات في كتاب أنيق.

3 - كتب فتحي اللّواتي لفائدة مجلة فنون ما يلي: " لقد وجدت شهرزاد - حسب رأي ماأوحى به لها إسمها - معينا لا ينضب في المنمنمات الفارسية، فجاءت لوحاتها تقليدا لها إن لم نقل صورة مشوهة لروائع الفن الفارسي... " مجلة فنون العدد3 – 4 – 1985– نشر وحدة المجلات لوزارة الشؤون الثقافية.

4 خليل قويعة ويظل نبض الحياة مسترسلا بين ثنايا الشكل الفنّي، الحياة الثّقافية، العدد 134، أفريل 2002، ص 51– 52– نشر وزارة الثقافة التّونسية.

5 - الحبيب بيدة معاصرة الحداثة في أعمال التشكيليّات التونسيات كتفعيل للوعي أم تفعيل للممارسة. ندوة الملتقى السّابع للمبدعات العربيّات. الرؤى التّشكيليّة المعاصرة لدى المبدعات العربيّات تنظيرا وممارسة. نشر الملتقى. سنة 2003 ص 45.

ثقافة المقاومـة .... ثقافة المساواة

فاطمة بن عبد الله الكرابي (*)

في عمليّة معقّدة، تبرز فيها الصّورة الحيّة جزءا من معادلة فكريّة، وتبدو فيها صوُر التّاريخ جزءا لروافد المعادلة نفسها، تثبّت الملاحظة وتربط الجزء بالكلّ، وتضفي محاسن على المقدّمة. . .

لم تكن تلك الصّور التي تركن في عمق الذّاكرة، وفيها سجال بين الممانعين تجاه وضع يرسم الخنوع والانحناء المطلوب من أهل بلدي على يد الاحتلال، وبين جلاّد قويّ جاء بكلّ صلف ليقول لأجداد وآبائي: أريد أرضكم. . . وأستهين بعرضكم. . . وليس لكم الحقّ في الممانعة والرّفض.

قد يكون في تصرّف المحتلّ، الذي فعل ما يفعله كلّ أصناف الإستعمار الذي ما يزال اليوم «يحيا» بين ظهراني أمّتنا، في مشرقنا العزيز، جزء من الفكر «الدّيكارتي» ، لكنّنا مطالبون اليوم بأنّ لا نقسُو على الفكر وأن لا نجرّمه وأن لا نحمّله تبعات مصائبنا التي سبّبها لنا الاستعمار، بقدر ما يجب علينا أن نجادلهم بنفس الفكر ونردّ بصوت عال: لن نفرّط في أرضنا.. ولن نفرّط في عرضنا ولن نتنازل عن استقلالنا. . .

لقد عاودت مجموعة البؤر العربية المشتعلة الآن على أيدي محتلّين متعاونين ومتعاضدين، ما أمكن أن يراه أجدادنا وآباؤنا أيّام الاستعمار. . . فقد شهد تاريخنا معهم الكثير من المجازر والكثير من عمليات الإفتكاك ولكن أيضا شهد ذات التّاريخ، ردّ فعل منظّم تارة وغير منظّم طورا، لكن الأكيد أن ثقافة المقاومة كانت قد حصلت، وإلاّ ما كان إحساس التونسي مرهفا بمثل ما هو عليه الآن، تجاه قضايا الاحتلال، وقضايا الاستقلال، والعمل على التّلحّف بقوّة أسطوريّة تجاه ثوابت لا تزال إلى الآن ثوابت رغم مرور نصف قرن من الزّمن على إعلان فلسفة للإستقلال، وأكثر من ذلك بقليل، حين تجالس الوطنيّون وجعلوا من غربال الاستقلال والكرامة الوطنيّة والهويّة العربيّة ـ الاسلاميّة فيصلا في مشوارهم النّضالي.

تبدو الصّور كثيرة ومتنوّعة، متجانسة أحيانا ومتنافرة أحيانا أخرى، لكنّها صور أسّست لبناء هذا المجتمع الذي نراه. . . مجتمع يتوق إلى الأفضل من خلال المعرفة، ومجتمع ممانع تجاه من يريد أن يلدغه من نفس الجحر، ومجتمع سليل سلف صالح، يأبى أن ينعت بأنّه مجتمع معلّق بين الأرض والسّماء. لهذا فإنّ الذي يسلك منهج البحث العلمي الدّقيق والميداني، على سيكولوجية الجماعة في بلادي، بإمكانه أن ينتظر نتائج قد لا تكون مقدّمات الباحث ركّزت عليها، لما يتّسم به في الظّاهر من «تجاهل» لثقافة المقاومة والممانعة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* صحفية تونسية، رئيس تحرير بجريدة الشروق.

اليوم بعد خمسين عاما على استصدار وثيقة قانونيّة، تنظّم حياة المجتمع وتعطي الأسرة مسالك جديدة لبناء الوطن الذي ما يزال وقتها خاضعا لتداعيات الإستعمار، يمكن أن نرصد، إذن، بروزا لثقافة المساواة بين عناصر المجتمع كتعبير عن نجاح ثقافة المقاومة وثقافة الإستقلال.

وفي الحقيقة، لا يمكن أن نفصل، في هذا الباب، بين فترة مقاومة الإستعمار في تونس، وبين استصدار وثيقة قانونية تحمل عنوان «مجلّة الأحوال الشخصيّة».

ففي الأمر جدل فلسفي وفكري بين صنفين من الثقافة: ثقافة المقاومة وثقافة المساواة.

فإن أنت حاولت أن تبحث في مصير مشرق لوطن أو لشعب، سياسيّاً كنتَ أو مثقفا أو منظرّا، لا بدّ لك من إطار عام وآخر أشدّ تخصّصا. وبالتّالي فإنّ عمليّة الربّط والارتباط، بين الممانعة تجاه ذاك المستعمر الذي جاءك وجاء وطنك وهو يخاطبكما بكلّ صلف: «أريد وطنك لي وأريد أنت خانعا لي»، وبين الممانعة تجاه غول اسمه التخلّف والتقهقر مقارنة بذاك «الشخص» الذي أراد منك وطنك وذاتك ليكونا تحت إمرته، نجدها عمليّة مؤكّدة. نعم الارتباط بين الإستراتيجي السيّاسي وبين الاجتماعي السيكولوجي، هو أمر مثبت. فقد تحوّل الأمر إلى ثقافة، رأينا مادّة منها الآن، ولا نزال، في بقاع عربيّة عديدة، منها لبنان وقبلها العراق وقبلها فلسطين.

العبرة ليست في أنّ لنا مراسيم قانونيّة ووثائق منظّمة لمجتمعنا، بل الميزة كلّها في أن يتحوّل مضمون مثل هذه الوثائق القانونيّة إلى ثقافة، تكون هي ذاتها كثقافة مساواة بين مكوّنات المجتمع متلحفّة بثقافة أشمل أملاها علينا واقع الإستعمار والهيمنة، أي ثقافة المقاومة.

فالمقاومة لا تعني الجانب العسكري فقط، الذي نراه متمظهرا الآن في لبنان والعراق وفلسطين، بل هي فكر وثقافة تهمّ الجانب الاجتماعي، والجانب السيّاسي والجانب الاقتصادي أيضا.

ثقافة المقاومة السياسيّة، ترمّم الذّات التي حاول الإستعمار كسرها وجعلها دونيّة أمام فلسفة للهيمنة، وتجعلها صلبة تنطلق من المصلحة الجماعيّة الوطنيّة، ولها قدرة على صياغة مشروع وطني مرتكزاته الإنسان والمؤسّسة والتفّريق بين السلطات. أمّا ثقافة المقاومة الاقتصاديّة، فلا يُفهم منها الرّفض والانعزال بقدر ما يُقصد بها التعويل على الذّات والتّنسيق مع من هم في وضع مشابه لنا من شعوب الدنّيا وتجمّعات هنا وهناك عبر العالم. ففي حين شهدنا طوال أكثر من عشر سنوات مفاوضات حول وضع التجارة في العالم، مواقف تتصدّى إلى فلسفة الرأسماليّة المتوحّشة، سجلّنا بعض الخنوع والأخذ على الآخر دون مؤاخذته على إيهام العالم بأنّ في الأمر فلسفة للحريّة... في حين نرى الواقع الآن، وهو ينبئُنا بأن في الأمر تواصلا لمنهج وفلسفة: دعه يعمل... دعــه يمرّ...

أمّا ثقافة المقاومة الاجتماعيّة، فإنّها ممانعة، بل عداء، للتخلّف ودونيّة جنس دون آخر أو فئة دون أخرى من نفس المجتمع. لذلك، فإنّ أفضل ما يتمنّاه الإنسان في تونس، هو أن ينتج النصّ القانوني والخيار الاقتصادي والتوجّه السيّاسي، ثقافة تكون ديدن الإنسان وهويته، يدافع عنها ويستميت في حمايتها: ثقافة المقاومة التي تنتج ثقافة المساواة.

فليس هناك إمكانيّة واحدة تخص الفكر، يكون فيها الحلّ أحاديّاً أو تكون وفقها النّظرة مجزأة. على طريقة أن تكون وطنيّاً ولا تكون ممانعا للهيمنة، أو أن تكون مرتاحا في لحاف الهويّة التي اخترت واختار أجدادك وأن لا تكون مؤمناً بأنك لست دون الآخر الذي يدّعي أنّه متفوّق عليك. كذلك الشأن بالدّاخل، فلن يكون بإمكانك أن تكون من دعاة الحريّة، وأنت تأسر نصف مجتمعك في زنزانة التخلّف.

إسهامات المرأة التونسية في الإبداع الموسيقي

سميحة بن سعيد (*)

ونحن نحتفل بالذكرى الخمسين لصدور مجلة الأحوال الشخصية، لا أظنني بحاجة إلى التأكيد على مراحل نضال المرأة التونسية ودورها الفاعل وإسهاماتها البناءة في بناء عزة الوطن. وأعتقد أن هذه المناسبة هي فرصة لتقييم ما حققته المرأة من مكاسب في مختلف الميادين : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالنظر لما أنجزته وما ينتظرها من تحديات ورهانات خصوصا مع تسارع وتيرة المتغيرات على مختلف الأصعدة المحلية والعالمية.

إنه ليحق للمرأة التونسية اليوم أن تعتز بما تحقق لها طوال نصف قرن من مكاسب وإنجازات لا تخفى على ذي عينين، إذ شهد نضالها نقلة جوهرية استعاضت فيه عن عقلية المطالبة بعقلية المبادرة وعن منطق الإلحاق إلى الشراكة الفاعلة والإسهام المعتبر في مختلف جوانب الحياة العامة.

والحق أن هذه المكاسب ما كانت لتتحقق لولا توفر الإرادة السياسية الفاعلة وقراءتها الرصينة للواقع، هذه القراءة التي انطلقت من رصيد تراثي عريق وسم الحركة الإصلاحية بميسمه طوال تاريخ تونس الحديث فأثرته وعززته بكل أنواع الإبداع المثمر والإضافة الخلاقة حتى أمست المرأة التونسية في طليعة قوى التحرر ورقما مهما في مسار التغيير على درب الانخراط في طريق الحداثة والمسك بناصية الإبداع والتجديد.

ولمّا كان الاهتمام هنا منصبّاً على " إسهامات المرأة التونسية في الإبداع الموسيقي"، أراني مطالبة بالتأكيد على أن الحركة الموسيقية هي جزء لا يتجزأ من الحركة الفكرية والثقافية الوطنية منذ ما يربو على القرن، معنى ذلك أن النظر في الحركة الموسيقية التونسية هو آية من الآيات المؤيدة لخصوبة الفكر التونسي الحديث والمعاصر، هذا الفكر كان على مر التاريخ عنوان التميز والثراء والتمسك بالثوابت دون التنازل عن حق الانخراط في العصر عاكسا بذلك شخصية التونسي الميالة إلى الاعتدال والانفتاح على الآخر دون الذوبان فيه والكرع والنهل منه مع المحافظة على مقومات الهوية وخصوصياتها المتميزة.

ولقد عرفت الحركة الثقافية الوطنية أطوارا عدة كفانا شاهدا على ذلك المعهد الصادقي الذي أسس في منتصف القرن 19 (1875) لتدريس العلوم والمعارف المتنوعة، والجمعية الخلدونية التي تأسست في 1896م مشكلة رافدا ذا بال على درب نشر العلم في مختلف الأوساط، وجمعية قدماء الصادقية التي تأسست في 1905م من أجل ذات الأغراض. إذن فرصيد ثقافي على هذا القدر من الثراء لا يمكن أن يكون إلا أفضل دعامة للنظر في الظروف التي حفت ببروز بوادر الحركة الموسيقية التونسية. وغني عن

* أستاذة مساعدة بالمعهد العالي للموسيقى بصفاقس.

البيان القول بأن الحركة الموسيقية لا يمكن حصرها في بعض الأغاني أو الأشعار أو القطع والمعزوفات. إن تصورا كهذا لا يمكن أن نتردد في الحكم بسطحيته. فالموسيقى شكلت منذ أقدم العصور أحد الروافد الأساسية في حوار الإنسان مع العالم والطبيعة بل ويمكن أن نجزم بأنه لولا الطابع المشكلي الذي وسم علاقة الإنسان بمحيطه لما أمكن اعتبار الفن آية من آيات عبقرية الإنسان، ألم يقل فريدريك نيتشه منذ أكثر من قرن مقولته الشهيرة : "لنا الفن كي لا تميتنا الحقيقة" أليس الحس الفني هو أرقى إحساس يصدر عن النفس البشرية فيخفف عنها حدة الضاغطات الموضوعية التي تسم الحياة.

وما ينطبق على العام ينطبق على الخاص، إذ أن الموسيقى هي أحد فروع شجرة الفن. كفانا مؤيدا لكلامنا ما قاله الموسيقار النمساوي الشهير "يوتيما" إن الموسيقى هي أجمل هدية أغدقها الله على الإنسانية "La musique est le plus beau cadeau de Dieu à l'humanité".

وحتى لا ينفلت منا موضوع البحث والمتمثل في رصد إسهامات المرأة التونسية في الحركة الموسيقية، يسوغ لنا القول بأن التراث الشعبي يمثل أفضل دعامة لحضور المرأة في مشهدنا الموسيقي والفني. وقد كان حضورا بالفعل لا بالقوة بدءا بالمواويل التي تنشدها المرأة خلال المواسم الفلاحية ونخص بالذكر منها موسم جني الزيتون شتاء وموسم الحصاد صيفا. وهي مواويل تختزن رؤية متماسكة لعلاقة الفلاح بالأرض وبالطبيعة. فالمواسم الفلاحية في ربوعنا كانت ولا تزال لأ وإن بنسبة أقل مما كانت عليه في السابق لأ إطارا احتفاليا خصوصا في البوادي إذ لا يندر الاستماع إلى أغاني تمتدح المنتوج محور الاهتمام فتضفي على الموسم الفلاحي طابعا احتفاليا متميزا.

والسؤال المطروح في هذا الإطار " هل نحن إزاء نسق موسيقي منظم أم هي مجرد أهازيج عابرة ؟ ".

لا شك أن الحديث عن تصور نسقي منظم للبناء الموسيقي والتشكل النغمي لهذه المدائح يبدو أمرا مبالغا فيه قياسا بثقافة المنشإ وهن نسوة ليس لديهن الحد الأدنى من التملك المعرفي ودع عنك الجانب الموسيقي، وبالتالي فنحن نستبعد نهائيا مثل هذا الأمر لأنه يتحتم علينا الإقرار بوجود فوارق حاسمة بين الحس الموسيقي الشعبي والذي عادة ما يكون أشبه بنزعة انطباعية في تصريف تصويتات مختلفة وإيجاد توليف نغمي لها يتلاءم مع الحساسية السائدة والبيئة المنشئة لها (البيئة الريفية) من جهة وبين الفضاء الموسيقي المؤسساتي ونعني به استثمار تلك التوليفات وإدراجها في إطار نسقي منظم مع ما يصحبه من تعديلات تخرجه من إطاره الشعبي وتجعله أقرب إلى الإنتاج الرصين والمركز المتمكن في حظيرة الإبداع الموسيقي. ولا شك أن الفرق الذي أقمناه يبدو على درجة عظيمة من الأهمية والجدوى لأنه يسمح لنا بالتأكيد على الحس الموسيقي للمرأة التونسية منذ أقدم العصور وقدرتها على تصريف ذلك الحس في تنويعات فنية بارعة بقيت خالدة إلى اليوم لأنها صادرة عن إحساس صادق وتعبير ذاتي يعقد صلة متينة بين الذات والبيئة. فمن منا لا يتذكر أيام صباه، أيام كنا نرافق آباءنا وأجدادنا إلى الحقول وكنا نردد معهم عفويا الأهازيج التي يتغنون بها.

ألا يعبر ذلك عن صلة قربى بين المادة الصوتية المتمثلة في كلمات تلك المواويل وتعريفها الموسيقي اللحني كما يتناهى إلى أسماعنا ؟ ألا يدل ذلك على أن المرأة التونسية مبدعة بالفطرة ؟ أجل إن المرأة التونسية ليست مبدعة بالفطرة فحسب بل هي إلى ذلك لها من القدرة والكفاءة على تجاوز الفطرة إلى تقديم إنتاجات فنية على قدر كبير من الصنعة والحرفية.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وحتى لا يبقى كلامنا مغرقا في التجريد، نسوق بعض الأمثلة للذكر لا للحصر. فالفرقة التيجانية، هي أبرز مثال نستأنس به للتأكيد على وجود فرق موسيقية نسوية. فالتيجانية تتكون من أربع نساء عادة يضربن الطبل واختصاصهن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومدح الشيخ أحمد التيجاني.

الملاحظة ذاتها يمكن أن نسحبها على فرقة الربايبية التي تتألف من عازفة ربابة وأربع ضابطات إيقاع وتقدم عروضها داخل الزوايا كزاوية السيدة المنوبية في تونس.

ويمكن لنا أن نسوق في هذا الإطار أيضا فرقة الحضرة التي ذاع صيتها في الساحل وفي صفاقس علاوة على عديد الفرق التقليدية ذات التسميات المختلفة كالفُقْرة في القيروان والماشطة والجراينية في المهدية وبنزرت.

فعلى امتداد نصف قرن أنجبت الساحة الموسيقية التونسية عشرات الأصوات التي تخطت شهرتها حدود الوطن، وبالتوازي مع ذلك اقتحمت المرأة التونسية ميدان الإنتاج الشعري والغنائي والتلحين والعزف محرزة بذلك قصب السبق على نظيراتها العربيات بفضل الدعم السخي الذي ما فتئت تتلقاه من أعلى هرم السلطة مما عزز إيمانها بقدراتها إذ لم تعد المرأة التونسية تقنع بمجرد العضوية في النوادي أو الفرق الموسيقية بل تجاوزتها إلى تأسيسها وقيادتها (وعلى سبيل الذكر لا الحصر، نذكر مجموعات تقاسيم، عازفات وتانيت....) ودع عنك المعاهد المختصة التي أمست للمرأة فيها مكانة متميزة إذ أضحت تكون الأجيال الصاعدة تكوينا موسيقيا متينا ينم على شيء غير قليل من الكفاءة والتمكن من آليات العمل الفني. ولأن المرأة التونسية مسكونة أبدا بالطموحات العالية، فقد اخترقت شهرة بعضهن حدودنا الوطنية فأمست أفضل سفير لتونس في الكثير من المحافل على غرار مهرجان الأغنية العربية ومهرجان الأغنية المتوسطية ومهرجان الأغنية الفرنكوفونية وغيرها من التظاهرات الفنية.

فتأسيس المعهد الرشيدي وغيره من المعاهد الموسيقية أسهم في دفع الحركة الموسيقية النسوية، كفانا شاهدا على ذلك أن المعاهد العليا للموسيقى التي تنامى عددها بعد التحول، قد تكفّلت بتخريج عدة دفعات من الطلبة لا سيما الموسيقيات. فتكفّل البعض منهن بتدريس التربية الموسيقية في الصفوف الإعدادية والثانوية أما البعض الآخر فقد واصل الدراسات العليا المعمقة والمتخصصة ووصل الطموح بالبعض منهن إلى إتمام دراساتهن بأبرز الجامعات العالمية، ونخص بالذكر منها جامعة السربون التي أمست قبلة الموسيقيين والموسيقيات من تونس، وقد تسنى للبعض منهن ومن بينهم مخاطبتكم إذ تسنى لي الحصول على دبلوم دكتوراه من جامعة السربون العريقة. وعموما فقد أضحى في ميسور المرأة التونسية بفضل المستوى العلمي المرموق الذي بلغته، أضحى في ميسورها اقتحام مجال البحث الجاد وعضوية الكثير من الهياكل الموسيقية الوطنية والإقليمية، وتبعا لذلك تألقت المرأة التونسية عازفة وملحنة وشاعرة وقائدة ولا يدل ذلك إلا على أنه لا قيام لمشهد ثقافي وفني في تونس دون مشاركة فعلية للمرأة التي أثبتت كفاءتها بما لا يدع أدنى مجال للتشكيك. ويمكن أن نذكر في هذا الصدد بعض الأسماء التي فرضت نفسها حتى قبل تأسيس المعاهد المختصة، من ذلك بروز فضيلة ختيمي بألحانها الأصيلة التي تنم عن حس موسيقي، وهناء راشد التي قدمت عديد الأعمال الراقية ومنها أغنيتها " يا هاجرة يا مليّعة الكبيدة "، بالإضافة إلى حسيبة رشدي تلك المرأة التي يمكن اعتبارها فنانة متكاملة قياسا إلى جمعها بين التلحين والعزف والغناء والمسرح والسينما.

إنّما كنا بصدده لا يدخل في باب الإطراء ولا رمي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الورود إنه قراءة متأنية وتتبّع وفـيّ لمسار الحركة الموسيقية النسوية في ربوعنا ورغم كل ما تحقق من مكاسب لا تخفى على أي ملاحظ نزيه، ولما كانت المرأة التونسية مسكونة بالتوق إلى الامتياز فإنه يسوغ لنا القول بأن ما تحقّق لا يعدو أن يكون سوى لبنة ستتبعها لبنات أخرى لتؤكّد على حقيقة أساسية وهي أن المرأة التونسية أمست مصمّمة أكثر من أي وقت مضى على أن تجعل الشراكة حقيقة حيوية ملموسة في حياة المجتمع التونسي، لتؤكّد جدارتها بما تحقّق لها من مكاسب طوال تاريخها النضالي العريق.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حوار مع الدكتورة نوال السعْداوي

الحبيب جغام (*)

« ... كنت أريدُ أن أكون راقصة »

* تثير الكاتبة الدكتورة نوال السّعداوي في أعمالها الروائية ـ جدلا واسعا لجرأة ما طرحته من أفكار وحقائق عن واقع المرأة المصريّة بصفة خاصة والعربية بشكل عام. . . وهي تقول بأنها حوربت وهمّشت وأقْصيت بسبب توجهاتها التحرّرية. . وقد نجحت إلى حدّ كبير في الوصول إلى القراء العرب والأجانب بفضل نشاطاتها وبفضل حركة الترجمة.

ولدت الدكتورة نوال في قرية «كفرطحلة» التي تبعد 40 كلم شمال القاهرة حصلت على البكالوريا في الطب سنة 1955 من جامعة القاهرة وماجيستير من جامعة كولومبيا بنيويورك سنة 1965 ودراسة علميّة ميدانية في الطب النفسي من جامعة عين شمس عام 1974. . . شاركت في تأسيس جمعيّة الكاتبات المصريات سنة 1975 وجمعية الثقافة الصحيّة سنة 1968. . كما أسّست جمعيةً تضامن المرأة العربية الدولية سنة 1982. . . وأصدرت مجلة «الصحة» سنة 1968 ومجلةّ «نون» سنة 1989.

كتبت نوال السعداوي الرواية والقصّة القصيرة والمسرحية والبحث: المرأة والجنس ـ الأنثى هي الأصل ـ الرجل والجنس ـ الوجه العاري للمرأة العربية ـ المرأة والصراع النفسي. . . الخ.

كتبها كانت صادمة للمفهوم العربي السائد عن المرأة وعلاقتها بالرّجل وعلاقة ذلك بالإسلام. . وبعض هذه الكتب صنعت لها شهرة دوليّة كونها داعية للتحرّر ومدافعة عن حقوق الانسان عموما والمرأة بوجه خاص.

هذا الحوار سجلتُه في غرفتها المطلّة على البحر بنزل هادئ بضاحية قمرت الجميلة بتاريخ 6 ماي 2001 إثر مشاركتها في ملتقى المبدعات العربيات بسوسة حول صورة الرّجل في إبداعات المرأة العربيّة.

(*) صحفي ومنتج إذاعي معروف.

*** حضرت أخيرا ملتقى المبدعات في سوسة والتقيت مع أديبات ومثقفات من الوطن العربي.. هذه فرصة لمزيد تقريب أفكارك.**

ـ تبادلنا الحوار والأفكار والأبحاث وأيضا العلاقات على المستوى الخاص ومآسي الوطن العربي وما يتعرّض له الشعب الفلسطيني والشعب العراقي والهجومات الشرسة الاسرائيلية الأمريكيّة وعلاقتها بالأدب.. كان هناك حوار حول علاقة الأدب بالسياسة وهل يمكن للأديب أو الأديبة أن ينعزل في برج عاجي أم تكون له مواقف سياسيّة ؟.. أنا طبعا ممّن يرفضون الفصل بين الأدب والسياسة والطب والتاريخ والأديان.. لا أفصل بن الجسد والعقل والروح وما إلى ذلك.. كان حوارا جميلا...

*** طبعا هذه المواقف سببت لك متاعب ؟**

ـ كثيرا.. كثيرا جداً.

*** ومن أين لنوال السعداوي بالصبر والقوّة حتى تقف عند مواقفها وتدافع عن رأيها وتصدّ كلّ من يقف أمامها ؟**

ـ أنا ورثت عن جدّتي الفلاحة ـ أم أبي ـ وهي أمية ورثتُ عنها إرادتها الحديديّة ـ كان لها إرادة حديدية ـ كانت امرأة فقيرة وعلّمت ابنها الذي هو والدي في الكبر ثلاث جامعات في مصر : الأزهر والقضاء الشرعي ودار العلوم وكانت زعيمة للقرية تقود الفلاحين والفلاحات ضدّ العمدة والملك والانقليز وأنا عندي خمس سنوات. أذكر أنها كانت تمسكني في يدها وراحت للعمدة ومعها الفلاحون وتقول له «أنت بتأخذ المحاصيل وتسرق عرقنا وجهدنا وربنا حيحرقك في النّار» فقال لها : «أنت أميّة».. أنت تعرفي ربنّا.. أنت لم تقرئي القرآن!» قالت له : «ربّنا هو كتاب.. ربنا هو العدل..» فهذا هو الدّرس الأول الذي تعلّمته في الدّين والفلسفة.

*** عمرك وقتها 5 سنوات .. طفلة صغيرة ؟**

ـ نعم صغيرة جداً.. ولكن كلماتها محفورة وصورتها في بالي... كانت طويلة وقويّة ويدها قويّة كأنها وهي تعمل بالفاس أقوى من الرجال وكانت قدمها كبيرة مثل قدم أبي.

*** كنت متفوّقة في دراستك ؟**

ـ كنت الأولى دائما لأني كنت خائفة كان أبي يقول لي : «إذا فشلت يوما في المدرسة أبقيك في البيت وأزوّجك ! كان هذا الكلام يخيفني.. فكان لازم أطلع الأولى».

*** الزواج هو حلم الفتاة ؟**

ـ أنا لم أحلم أبدا بالزّواج.. لأن أمّي كانت نادمة على زواجها.. لقد أحبتْ أبي وكانت حياتهما سعيدة جداً ولكن كان عندها طموح.. كان أبوها جدّي محمود بك سكري مدير القرى العسكريّة أدخلها مدرسة الراهبات الفرنسيّة وكان عندها أحلام أن تكون مثل «مدام كوري» وتكتشف الراديو وتحصل على جائزة نوبل.

*** مثل نجيب محفوظ ؟**

ـ لا.. لم يكن هذا مثلها الأعلى... ولكن كانت لديها طموحات كبيرة وقد بكت ليلة الزّفاف.

*** كانت مغلوبة على أمرها ؟**

ـ كانت دائما تقول لي : «أحلامي أجهضت بالزّواج وقد أنجبت تسعة أولاد وماتت وعمرها خمسة وأربعون عاما.. صغيرة شابة.. فأنا تعلمت الدّرس وقلت واقسمت أنّني سوف أحقّق أحلام أمّي ولن أتزوّج.. وأبي لم يكن يريد أن يزوّجني لأنّه كان يعتبرني نابغة.. كان المدرسّون يكتبون لي في ورقة الأعداد : أنت سيكون لك شأن، وأمي كانت تقول لي : «نرمي نوال في النّار ترجع سليمة». فبدأت أشعر بثقة كبيرة جداً في نفسي، والذي ساعدني أيضا أنّه كان لي أخ أكبر منّي سنا كان بليدا وكنت متفوّقة عليه في كل شيء وهذا نفعني كثيرا.

*** كنت إذن متفوّقة وكنت أيضا كالفراشة تقتربين من النار ولا تحترقين.**

ـ لا.. الفراشة كانت تحترق.. وأنا كنت أقوى من

الفراشة كنت فراشة قويةً.. وطبعا حاولوا تزويجي في القرية وأنا في العاشرة من عمري وكنت أنا أتمرّد وكنت في صراع ضدّ القيم وكان والداي يساعدانني ضدّ القبليّة فأنقذت من الزواج في سنّ العاشرة وبسبب تفوّقي دخلت كليّة الطب وأنا لم أحلم بالطب أبدا.. لم أحلم بالرداء الأبيض وكنت أكره الأطبّاء !

*** ولماذا ؟**

ـ إنّهم يعطونني حقُناً.. وكان الأطباء غلاظاً وشخصيات كريهة فلم أكن أحبّهم وكنت أريد أن أكون راقصة وفنّانة ومغنّية...

*** عجبا ؟!**

ـ طبعا كنت أريد أن أكون راقصة وأعزف البيانو وأغنّي وأرقص.

*** راقصة كفيفي عبدو ؟**

ـ لا.. لا هذه لا ترقص.. هؤلاء لا يرقصون... لا. لا. الرقص شيء آخر.. الجسم والعقل لا ينفصلان.. الرقص عمليّة فكريّة.. نحن نأخذ الرقص في بلادنا على أنّه عمليّة جسديّة.. الناس يحتقرون الراقصات.. الرقص متعة فكرية يعني حينما أكون روائيّة ومفكّرة وفيلسوفة أنا أرقص بطريقة أخرى لأن الجسم والعقل والروح تلتحم معا في كيان واحد لكن عندنا المرأة ترقص بجسمها فقط وهو منفصل عن العقل.

*** أنت اشتغلت من الأول على الفصل بين الجسد والروح ؟**

ـ أنا لم أفصل بين الجسد والروح من الطفولة وهذا بسبب تلقائيتي، المهم أنني نجحت في الدخول إلى كليّة الطب التي لا يدخلها إلا المتفوّقون وأنا لم أكن أحلم بأن أكون طبيبة ولكن أمي وأبي شجعاني على ذلك حتى أعالجهما مجانا ! وحتى أكون كما يريدان غنيّة ولكن أنا لم أكن أحلم بالمال.. كنت أريد أن أكون ـ بعد أن أصبحت مراهقة ـ كاتبة فقد أحببت الكتابة والشعر والأدب.

*** متى بدأت الكتابة وتأليف القصص ؟**

ـ منذ كان عمري 13 عاما.

*** وهل كنت متأثّرة بكاتب معيّن ؟**

ـ كنت متأثّرة بنفسي.

لمن كنت تقرئين ؟

ـ كنت أقرأ لكثيرين.. محمود سامي البارودي والعقاد وطه حسين والمنفلوطي وكل الأدباء وكان أبي يملك مكتبة كبيرة.. أنا قرأت الجاحظ.. ولسان العرب والاصفهاني يعني أنني فتحت عيني على مكتبة عربيّة وإسلاميّة فثقافتي عربية وأبي علّمني اللغة العربية من الطفولة وعربيّتي قويّة جداً.. وأبي علّمني التوراة والقرآن والانجيل.. أنا قرأت الكتب الثلاثة في الطفولة وأحببت الشعر.. أبي كان شاعرا وكاتبا ولكنّه لم ينشر شيئا.. كان طوال الليّل يقرأ علينا الشعر الثوري ضدّ الملك والأنقليز فعشتُ في بيئة ثوريّة فيها الشعر وفيها اللغة العربية.. أبي كان صوفيا يؤمن بالعقيدة فقط.. لا يؤمن بالعبادات والطقوس وكان مثل الصوفيّة يؤمن بجوهر الدّين.. هكذا إذن نشأتُ وأول قصة كتبتُها كان عمري 13 سنة إسمها «مذكرات طفلة» إسمها سعاد وطُبعت.

*** ثم بعد هذا تخرجت واحتككت بالواقع اكثـر ؟**

ـ تخرّجت طبيبة وكنت من الأوائل واشتغلتُ طبيبة في الريف والمدينة.. كنت جراحة صدر أقوم بالعمليات الجراحية وكنت طبيبة باطنيّة للصدر ولكن كرهت هذا العمل لأنّه كان مجالا خطيرا.

*** فتحولت إلى الطب النفسي ؟**

ـ تحولّت إلى الطب النفسي لأني شعرت أني أريد أن أشرّح النفس البشريّة كما شرحت الجسم وأحسست بعلاقة بين الكتابة وفهم النفس البشريّة فأصبح الطبّ النفسي يخدم الأدب والأدب يخدم الطب النفسي... هناك علاقة بين فهم الانسان وفهم ما يُسمّى النفس والكتابة الأدبيّة.

*** أعرف دكتورة نوال أنك ضدّ الطبيب الذي يأخذ مقابلا ماديا من الناس.. كيف تفسّرين هذا ؟**

ـ وأنا أيضا ضدّ أن يكون هناك مال في الزواج... أنا

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

ضد المهر لأنّي أعتبر أن الزواج الذي يقوم على المال مثل البغاء رجل يدفع مالا لإمرأة هذا بغاء، أنا أرفض هذا!

*** ألا ترين أن هذا المقابل هو عربون محبّة للمرأة؟**

ـ وأنا أعتبر أنّ ما يعطيه الرجل للمومس هو محبّة.

*** ولكن في هذه الحالة.. الرجل يعطي المال ويذهب في حال سبيله بعد أن يقضي وطره.. أما المرأة فستبقى معه لبناء حياة زوجية مشتركة ويؤسّسان معا مؤسّسة اجتماعيّة؟**

ـ ولكن يمكن أن يطلقها ما دام في يده حكم الطلاق.. يمكن أن يطلقها في اليوم الثاني أو الثالث وبلا سبب ويمكن أن يتزوّج عليها.. لا، لا أنا لا أقبل مالا على الاطلاق.. المرأة يجب أن تكون مستقلّة ويجب أن لا يعولها أحد.. هذه إهانة. أنا دائما أقول المرأة التي يعُولها الرجل تفقد إرادتها لأنه يهدّدها أيضا فمن يملك الاقتصاد يملك الإرادة والسيطرة.. هذا قانون الحياة وهو معروف.. الخادمة التي أعطيها أجرا أملك سيطرتي عليها.. أنا ضدّ المال في العلاقة الزوجيّة وضدّ المال في علاقة الطبيب بالمريض وأنا أرفض أخذ المال من المريض وقد حاربت أنا وزوجي الدكتور شريف حتاتة في نقابة الأطباء من أجل أن نغيّر قانون الطبّ في مصر.

*** سبب كل هذا أنك أنثى... وأنت ضدّ هذه الكلمة؟**

ـ لا لا، ليس لهذا علاقة بالأنثى.. كلمة أنثى في بلادنا مُهينة.. ليس فيها احترام مثل كلمة ذكر.. هل أنت تقول للرّجل.. أنت ذكر أم تقول له أنت رجل.. إذن ما معنى أن تقول للمرأة أنت أنثى.. ما معنى هذا.. هذا هو الكيل بمكيالين وأنا أرفض الكيل بمكيالين.

*** ما هو السبب في هذا التفكير وفي هذه الممارسات؟**

ـ العصر العبودي.. منذ نشوء العبُودية في التّاريخ ما نسميّه النظام الطبقي الأبوي وتقسيم المجتمع الى أسياد وعبيد أو إلى طبقات وإلى نساء ورجال وحكاّم ومحكومين منذ ذلك الوقت أصبح كلّ شيء مزدوجا، انفصلت السّماء عن الأرض وانفصل الجسد عن الرّوح وانفصل الرجال عن النساء وأصبح كلّ شيء مزدوجا.. حتى الأخلاق.. هناك أخلاق للأسياد وأخلاق للعبيد، أخلاق للرّجال وأخلاق للنساء.. يعني القانون الأخلاقي متغيّر.. مفهوم الشرف مثلا يتعلق بسلُوك المرأة.. أليس كذلك ولا يتعلّق بسلوك الرّجل.. إنّها ازدواجيّة خطيرة.

*** هذا ينسحب أيضا على المرأة في الدّول المتقدّمة؟**

ـ هي ليست متقدّمة.. أنا أقول إن البلاد في الغرب، في أوروبا وأمريكا محكومة بنظام طبقي أبويّ مثل مجتمعاتنا وللمرأة هناك غير محرّرة وبالتّالي هناك حركات تحرير المرأة قويّة جداً لأن المرأة غير محرّرة هناك.. فكلّنا نناضل ضدّ النظام الطبقي الأبوي وهو النظام الرأسمالي الحديث الذي نعيش فيه.

*** وهل بإمكانك أن تناضلي دكتورة نوال وتغيّري هذه العقليات في مجتمعات تحكمها سلطات قويّة بالمال والسلاح والعسكر؟**

ـ أنا أقول إنّني نجحتُ خلال نصف قرن في تغيير عقليات كثيرة وفي تغيير مفهوم الشرف وفي القضاء على ظاهرة ختان الأنثى.. يعني أنا حاربت ضدّ ختان المرأة لمدّة نصف قرن ثمّ أصدر وزير الصحّة قرارا يمنع ختان الإناث.. أنا حاربت ضدّ مفهوم الشرف المرتبط بالعذريّة فقط.

*** وهل أنت وحدك.. ليست هناك نساء آخريات في الوطن العربي تناضلن مثلك؟**

ـ أنا حينما ارتفع صوتي ضدّ مفهوم الشرف وضدّ ختان الإناث والآن أحارب ضد ختان الذكور.. الآن أنا ضدّ ختان الولد الذكر وما إلى ذلك.. لم تكن هناك أصوات أخرى ولذلك عوُقبت.. ولو كانت معي الآلاف من النساء، لكان العقاب لي أقل ولكنّي عوقبت وأطردت من عملي وسجنتُ ونفيت وشوُهت سمعتي والآن وَضع إسمي على قوائم الموتى وأهدرَ دمي والآن أحاكم بعنف.. أنا لا أعرف، طبعا هناك نساء عربيات قلن ما قلته أنا.. لكنهنّ لم يقلن في العلن. ربّما قلن في البيوت.. وربما هناك إمرأة في تونس كتبت هذا.. لا أعرف... وأنا لا أتابع كلّ شيء.. لكن إلى حدّ علمي حتى الآن أنا لم أقرأ كتابا تناول المحرّمات.

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

*** دكتورة نوال.. أكيد حققت من وراء هذه الأتعاب أشياء ولكن اليوم ماذا بقي لك ؟**

ـ ماذا بقي ممّاذا ؟

*** ماذا بقي لمواصلة الطريق ؟**

ـ بقيت أنا.. ثم أني قدمت للمكتبة العربية 35 كتابا باللغة العربيّة ترجم أغلبها إلى أكثر من 30 لغة من لغات العالم.. أنا حققت الكثير. بنيت أسرة عربيّة جديدة، ابنتي الدكتورة منى حلمي مبدعة وأديبة وابني عاطف حتاته مخرج سينمائي مبدع.. يعني خلقت أسرة عربيّة جديدة نموذجيّة.. ماذا بقي ؟ بقي أنني أعيش ما أكتب وأكتب ما أعيش.. أنا متفائلة وسعيدة برغم المحاكمة.. رغم المطاردة وتشويه السمعة.. أنا أشعر بتفاؤل وأمل وهذا الذي يعطيني قوّة.. أنا لا أشعر بالضعف.

*** دورك إذن النضال والكتابة في الوقت الحاضر والدفاع عن حقك في الوجود.. فما هو دور المرأة العربيّة وهل تعتقدين أن المرأة تكتفي بالبقاء في البيت ؟**

ـ المرأة إنسان كالرّجل تعمل في البيت والمصنع وفي المستشفى.. هل نحن نقول إن الرجل يبقى في البيت.. هل ممكن أن نقسّم ونقول هذا الرجل في البيت وهذا الرجل خارج البيت.. هذا شيء غريب جداً ! هل الأبوّة وظيفة ؟ هل الرجل وظيفته أب ؟ لكن نحن نقول إن المرأة أمّ كأنما الأمومة تختلف عن الأبوّة.. لماذا !

*** وإذا لم يكن بإمكان المرأة أن توفّر أشياء. فالرّجل هو الذي يوفّرها ؟**

ـ هذا غلط.. لا بدّ أن نغيّر.. يعني أن المرأة تساعد في الإنفاق والرجل لا بدّ أن يُساعد في البيت.. يجب أن يتعاونا مثل ما فعلت مع زوجي وبالتّالي المرأة تنجح..

*** أنت امرأة محظوظة لأنّك وجدت رجلا متفهّما ؟**

ـ نحن لا بد أن نغيّر عقلية الرجال حتى نصنع أسرة جديدة لأن النساء حزينات ومكبوتات في البيوت.. والمرأة عندما تكون مكبوتة وحزينة لا تستطيع أن تربّي.. لماذا أنا ربيتُ ابنا وبنتا مبدعة.. لأني كنت سعيدة.. حياتي كانت سعيدة..

*** كيف قمت بتربية ابنك.. هل أنت تعطيهما الحليب والأكل ؟**

ـ أنا وشريف.. كنّا نتناوب.. فإذا كان منشغلا بالكتابة أو مسافرا.. كنت أنا أعطيهما الأكل.. لقد تناوبنا تناوبا جميلا.

*** هل كان يقوم بتغيير «الحفّاظة» ؟**

لمَ لا ؟ مثلما أنا أشتغل في المستشفى وأنفق في البيت. لمَ لا.. ؟ المرأة مسكينة تشتغل وتنفق ثم تغيّر «الحفاظة».. الرجل يتكبر ويقول لا أعمل هذا ! ولكنها هي تعمل خارج البيت وتنفق في البيت.. هناك تغييب لمفهوم الرجولة ومفهوم الأنوثة.. لا بدّ أن نغيّر!

*** ولكنك تتصرّفين معه كامرأة.. بعواطف امرة وأحاسيس امرأة ودموع امرأة.. أنت تبكين له أيضا ؟**

ـ هو يبكي لي.. دموع الرجل جميلة جداً.. إنسانية الرجل.. هل تعرف ما الشيء الذي أفسد الرجل ؟ ـ إنّه لا يبكي.. يكبت دموعه.. المرأة تبكي والرجل أيضا يبكي.. شريف حتاته أقول عنه دائما : رجل رقيق وحنون إلى حدّ القوّة وقويّ جدا إلى حدّ الرقّة...

*** هل أحبّك زوجك بقوّة وبعنف.. وهل انتابته الغيرة باعتبار زواجك قبله وأنجبت ابنتك منى من رجل آخر.. هل كان يحبّ منى ؟**

ـ يحبّها أكثر من والدها.. ثم إن شريف إنسان مختلف لأنّه بلغ درجة من الانسانية إنّه يحب كل الأطفال وهذه درجة عليا من الانسانية.. فحتى الحيوانات تحبّ أطفالها التي ولدتها.. لا فضل لحيوان أو إنسان يحب طفله الذي أنجبهُ لكن الفضل لمن يحبّ طفلا لم ينجبه.. هذه هي الإنسانية.

*** دكتورة نوال.. أكيد تعترضك مشاكل مع الأستاذ شريف وتتأزّم العلاقة بينكما وربما تصل إلى السّقف.. من يتنازل ؟**

ـ لا أحد يتنازل.. نحن نختلف في أشياء.. ولكن نحن متفقان جوهريا.. أفكارنا متشابهة.

*** يعني هناك ثوابت ؟**

ـ ليست ثوابت، لأن الثوابت والمتغيّرات تتغيّر ولكن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المبادئ الأساسيّة كالعدل والحرية وتحرير الوطن والانسان.. تحرير المرأة.. هذه مبادئ جوهرية.. حريّة الرأي والتعبير كذلك.

*** ماذا تفعلين عندما يقرّر هو الخروج في المساء لحضور عرض مسرحي أو حفل موسيقي وأنت لا ترغبين في ذلك؟**

ـ «خلاص» يذهب وحده أو مع أصدقائه وقد يكون هو متعب وأنا أريد مشاهدة فيلم سينمائي فيقول لي: أنا أحب القراءة فاذهبي أنت.. نحن نثق في بعضنا البعض.. ولكن نحن في البلاد العربيّة يتهيأ لنا أن الرجل عندما تخرج زوجته بدونه أنها ستلتقط رجلا في الطريق.

*** ولكن هذا شيء يحصل حقا أحيانا؟**

ـ يحصل لأنّه ليست هنُاك تربية وأخلاق.

*** فإذا كانت زوجة الرجل امرأة جميلة ومثيرة.. أكيد أنها ستخلق مشاكل؟**

ـ لا أبدا... هذا خطأ، مثيرة أو غير مثيرة.. أنا امرأة جميلة جدا.. أنا امرأة جميلة جداً. أنا أعتبر من الجميلات بمقاييس الجمال العالمي وليس العربي واجذب إليّ رجال العالم... ولكن علاقتي بشريف علاقة خاصة.. أنا أحدّ الاخلاص.. وإخلاصنا لا علاقة له بالرّقابة.. هذا هو الاخلاص الصحيح.. وأضيف القول.. كيف: أنا تعلمت الأخلاق من أبي.. كنت مرّة أسرح شعري وكان عمري 11 عاما وأستعدُّ للذّهاب إلى صديقتي فجاء أخي الأكبر وقال لي: أنا سأخرج معك حتى أُراقبك؟

*** حتّى يكون حارسا؟**

فصفعه أبي صفعة وقال له: إيّاك أن تعيد لها هذه الكلمة وإياك أن تراقبها.. هي التي تراقب نفسها بنفسها...

*** ولكن الوالد كان متحرّرا.. قرأت مرّة فقرة تتحدثّين فيها عنه: «في التاسعة سمعتُ أبي يقول لاخته رقيّة الطلاق أفضل لك من الزّواج التعيس.. اخلعيه يا رقية، من حق المرأة أن تخلع زوجها إذا ردّت له المهر وتنازلت عن النفقة» يعني أنّه ليس دائما نعثر على زوج بمثل هذا التفكير وهذا السلوك؟**

ـ طبعا.. أبي في الحقيقة علّمني الأخلاق الحقيقيّة وعلّمني الإسلام الحقيقي وعلّمني كيف تكون الرّقابة من عندي.. يعني أنا أرفض أن يراقبني أخي أو زوجي أو أيّ أحد آخر.. أنا أخرج وحدي ليلا.. أنا كنت طبيبة وكنت أزور المرضى في الليل.. هل كان أحد يُراقبني.. هذا شيء غريب جداً.. ما هذا؟

*** هل كانت لك علاقات جانبيّة قبل الزّواج؟ في عمر 17 و18 و19.. هل كانت لك علاقات مع الشباب.. هل كنت تنزوين تحت شجرة مثلا؟**

ـ هذا شيء طبيعي... وما الغريب في هذا.. وهل كنت فتاة شاذة؟

*** لا.. لم أقل هذا؟**

ـ كنت فتاة طبيعية.. كان قلبي يخفق للحب كل دقيقة حتى اليوم ربّما أقع في الحب لا أعرف.. المبدع قلبه يخفق للحب والجمال والعدل في كلّ وقت.

*** في السّابعة من عمرك ضربك المدرّس على أصابعك بالمسطرة بسبب نقطة حبر سقطت من سنّ القلم.. فتحولتّ كلمة «بعل» إلى «بغل».. كنت لا تعرفين أن كلمة بعل تعني «زوج»؟!**

ـ نعم حدث هذا (وتنخرط في ضحكة طويلة).

*** هل عشت مشاكل مع بنات جنسك ومع صديقاتك في الفصل.. وهل أنت مع المرأة التي تحرص على وضع المساحيق ومتابعة آخر تقليعات الموضة.. هل أنت ضدّ هذا؟**

طبعا أحيانا أختلف مع النساء.. وهناك نساء يخفن منّي.

*** وهنّ يهربن منك؟**

ـ يهربن من الحريّة.

*** من المواجهة أيضا؟**

ـ هذا خوف من الحريّة أيضـا.

*** والمرأة عندما تتصرّف كما يحلو لها.. تشعر بحريّتها؟**

ـ لا.. لا المرأة التي تضع "ماكياج وتلبس كعب عالي" وتصبغ شعرها وتضع الأحمر ليست حرّة لأنّها تريد أن تبْدو أصغر من عمرها.. أنا عمري اليوم 70 سنة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* **الآن .. ما شاء الله ؟**

- وأفخر بهذا . أنا لم أسمع امرأة عربيّة قالت إن عمرها 70 سنة . .

* **المرأة دائما تخجل من عمرها ؟**

- تخجل وتحسّ أنّها تريد أن تكون صغيرة . . أنا دائما أسأل النساء : أنتنّ لماذا تخفين التجاعيد وتجرين العمليات الجراحيّة وتضعن الماكياج . . وتصبغن شعركنّ الأبيض إلى أسود .

* **أنت شعرك هذا مصبوغ ؟**

لا . . طبيعي . . طول عمري شعري أبيض . . هذا وراثة في الأسرة . . . فيُجبنّني . حتى نبدو أصغر وحتى يحبّنا الرجل . . ما هذا ؟ . . الرجل يحب فتاةً صغيرة مدلّلة وغبيّة . . الرجل يحب المرأة البلهاء ولا يستطيع أن يحب المرأة قوية العقل وقويّة الشخصيّة . . ونادرا ما تجد رجلا يحب امرأة لها شخصيّة ولها ذكاء لأنّه ليست له ثقة بنفسه . . إنّه مهدّد . . آه والله مهدّد . . هو يريد فتاة غريرة حتى يضحك عليها بسهولة .

* **ويخدعها ؟**

- يخدعها ويصورّ لها نفسه كأنّه بطل عظيم وهو لا شيء ولكنّي أقول إن كل مرحلة من العمر فيها جمال والمرأة دائما لها جمالها .

* **دكتورة .. منْ من الرجال الأدباء والمفكرين والمنظّرين صوّروا المرأة كما ترين أنت ؟**

- لا أحد ولا في الغرب .

* **إذن أنت تطلبين شيئا مستحيلاً ؟**

- لا . . ليس مستحيلا . . كتابات المرأة في العالم هي الكتابات الرائدة الآن مثل العبيد والأسياد . . عندما تحرّر العبيد كان أدبهُم لا يفهمه الأسياد . . أدب النساء لا يفهمه الرّجال ولا يستطيع الرّجال أن يكتبُوا أدب النساء . . نحن اليوم بصدد أدب جديد للمرأة لذلك لا يفهم النقاد العرب رواياتي ويتجاهلونها أو يهاجمونها وأحيانا يقولون عنها بأنّها ليست روايات أدبية . . فهم لا يفهمونها . . لأنها مكتوبة بلغة جديدة وبأسلوب جديد وبمعان جديدة وهي إذن تحتاج إلى مدرسة نقديّة جديدة في الأدب .

* **إذا لم يفهمها الأديب والمفكر والمثقف والناقد فكيف سيفهمها رجل الشارع والعامل والفلاح والمرأة التي تشتغل في المصنع والمرأة التي تربّي أطفالها في البيت؟**

- كتُبي ورواياتي تُقْرأُ وتُفْهَم . . كلّ رواياتي تقرأ في قريتي بشدّة من المشرق إلي المغرب وفي جميع البيوت وقرأها تلاميذ 13 و14 عاما . . وأنا كلما مشيت في الشوارع أجد التلاميذ يقولون لي : نحن قرأنا كتبك ونحن في المدرسة وغيرّت حياتنا . . أنا يفهمني الانسان الطبيعي وليس المثقف لأن المثقف في بلادنا فقد البديهيات ، لأنّهُ أصبح مثقفا وأكاديمياً وأصبح ناقداً يؤمن بمدارس ولكنه ليْس تلقائياً والانسان العادي هو الانسان التلقائي وأنا تلقائية وقمّة الابداع : التلقائية .

* **دكتورة باختصار كيف صوّر الابداع العربي المرأة . في الأدب .. في الشعر .. في المسرح .. في السينما .. في الإذاعة في التلفزيون .. في الأغنية .. في الرسم ... في كلّ مجالات الابداع والفنون ؟**

- صورّت المرأة . . عارية ، غانية داعرة . . أداة الجنس والاغراء أو صورّت محجبّة مذعورة خائفة . . هي إماّ المرأة الملاك الغريّرة الساّذجة . . وإماّ الشيطان الخطير . . المرأة لم تصوّر على حقيقتها أبدا . . أبدا كإنسانة تخطئ وتصيب كإنسانة لها دور في الحياة مثل الرجل . . وإنّما صورّت بهذا التناقض . . الملاك الغرير والحبيبة العذراء التي لا تفهم شيئا في الجنس أو المرأة البغي السيّئة المثيرة أو الأم العذراء مثل مريم العذراء الطاهرة المحترمة والمقدّسة أو المرأة التي لم تتزوّج ولم تنجب وليس لها أطفال . . أو الشريرة الشيطان . . هناك أشياء غريبة جداّ تصورّ في الفنّ !

* **إذن أنت لم تقرئي أو لم تشاهدي فيلما أو مسلسلا تلفزيونيا يصوّر المرأة وهي تناضل من أجل مبادئ كالدّفاع عن الأرض والوطن والأبناء ؟**

- نعم . . نعم إنّي أشاهد المرأة الأم التي تناضل من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أجل أطفالها وتضحّي بنفسها من أجل الوطن أو من أجل الأسرة أو من أجل الزوج أو الأطفال.. هذا هو نصف المرأة فأين النصف الثاني؟ هل في الفن الرجل يصوّر كأب يضحّي من أجل الأطفال.. هل شاهدتِ رواية يظهر فيها الأب يضحّي من أجل أطفاله.. إنك تجده يقوم بأشياء أخرى غير وظيفة الأب، يعني أن الأبوة ليست وظيفة الرجل فقط لكن المرأة فرضت عليها الأمومة فقط كأنّ وظيفتها الأمومة وليس لها دور في الفلسفة والعلم وأشياء أخرى!

*** في السينما دكتورة نوال ... هل هناك ممثلة تعجبك في أدائها ومواقفها.. هل هناك أغنية حلوة تشدّك وتمسّك في الأعماق؟**

ـ كلهن مثل الدمّى.. جميلات مثل الدمّى.

*** فاتن حمامة مثلا .. ما رأيك فيها؟**

ـ لا. لا هذه تبكي دائما على عُذريتها.. وهي تظهر في روايات تقليدية.. الفتاة الضعيفة التي تبكي لأنّها فقدت عذريتها.. ما هذا.. ما هذا.. لا.. لا أنا لم أر على الشاشة أو على المسرح العربي امرأة شجاعة قويّة تجمع بين قوّة الجسد وقوّة الروّح وقوّة العقل...

*** وفي الأغنية هل تستمعين إلى الغناء؟**

ـ أسمع.. أسمع أغنيات مريضة.. كل الأغاني نواح على الحبيب.. أم كلثوم تغنّي للرّجال فقط.

*** ولكنها غنّت: أصبح عندي الآن بندقيّة؟**

ـ نعم.. كأنّما المرأة حينما تحمل البندقيّة لا علاقة لها بالحب ولا تستمتع بالحياة وهذا تناقض في حدّ ذاته.. أنا أريد الجمع بين الحرب والكفاح عن الوطن والحب والجنس والاستمتاع.. الرجل يحارب ويستمتع «مش كدة» الرجل يحارب ويفعل أشياء كثيرة لكن المرأة نفرض عليها دورا واحدا.

*** يعني كل ما كتبه أحمد رامي كلام فارغ؟**

ـ هذه رومنطيقيّة مريضة...

*** وما لحنه الموسيقار محمد عبد الوهاب؟**

ـ رومنطيقيّة مريضة..

*** ما هو رأيك في عبد الوهاب؟**

ـ عبد الوهاب صوته جميل وألحانه جميلة.. أنا أحبّ له أغنية «عندما يأتي المساء ونجوم الليل تظهر».. يا سلام هذه أغنية جميلة، ولكن لا أحب له «مين زيك عندي يا خضراء.. فيها ميوعة.

*** وسيد درويش؟**

ـ آه، سيد درويش ممتاز وخصُوصا في أغنية: يا بنت مصر.

*** ورياض السنباطي؟**

ـ كلّهم في منتهى الجمال...

*** وكمال الطويل ونجاة الصغيرة وبليغ حمدي ومحمّد الموجي وعبد الحليم حافظ؟**

ـ كلّهم في منتهى الجمال.. ولكن ماذا قالوا ؟!

*** عبد الحليم كان ناطقا باسم الثورة؟**

ـ كان يفصل بين الفلاحين والعمّال والثورة وبين الحب.. المفروض أنّه لا يفصل في أغانيه بين كل هؤلاء وبين الحب.

*** عندما يغني مثلا بلاش عتاب .. هذه الأغنية لا تعجبك؟**

ـ «كويسة».. لكن هذا نصف الأشياء.. يجب أن نربط بين الثورة من أجل تحرير الوطن والثورة من أجل تحرير أنفسنا.. وأن نربط بين الحب والجنس وبين العقل والجسم والروّح ونغيّر القيم الأخلاقيّة من قيم ازدواجية إلى قيم واحدة وأن يكون الصدق هو الأساس وأن لا تكون لنا حياتيْن.. حياة في العلن وحياة في الخفاء.. أنا أريد أن نغيّر كلمات الأغنيات أنا ابنتي تؤلّف أغنيات جديدة وألحانا جديدة ومعها مجموعة من الموسيقيين ويكتبون كلمات جديدة.. هذا هو المستقبل.

*** دكتورة.. أنت تقولين: « الكتابة كانت تأخذني إلى بئر عميقة في بطن الأرض إلى مكان يخلو من البشر إلى مساحة لا يشاركني فيها أحد.. لا أسمع صوتا لا شيء يتحرّك» بمعنى أن الكتابة عندك تأخذك إلى مدى آخر، تأخذك من واقعك؟**

ـ لا ليس معناها هكذا وإنّما أقول حينما أجلس لاكتب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لا بدّ أن أكون في مكان مُغلق حتى أستعيد الذكرى.. ما هو الابداع ؟ إنّه يعتمد على الذاكرة وعلى تحويل اللاوعي إلى وعْي ويعتمد على التذكر وعلى ربط الأشياء بعضها ببعض وربط الماضي بالحاضر وبالمستقبل وهذا لا يمكن أن يتأتّى للإنسان وسط الضجة لا بدّ أن يكون هناك هدوء حتى تستعيد ذكريات الطفولة.

*** ولكن لماذا تقولين : صور من الماضي ماتت وراحت في العدم أحاول استعادتها دون جدوى ؟**

ـ بسبب الضجيج.. بسبب الخوف والكبت لأننا نخاف من الذكريات فأنا أعبّر عن مرحلة ولكن أيضا في مراحل أخرى. تذكرت، فكتبت يعني في أوراقي حياتي الجزء الأول والثاني والثالث .. حتى إخوتي اندهشوا كيف أمكن لي أن أتذكر كل هذه التفاصيل.. لأنّي أغلق على نفسي... أنا لا أستطيع أن أكتب ومعي شخص في الغرفة حتى ولو كان زوجي.. لا بد أن أكون وحدي في الغرفة.

*** هو أيضا يريد أن يكون وحده لمّا يكتب ؟**

ـ هو أيضا يغلق بابه ويكتب.. وأظن أن معظم الأدباء والفنانين يقفلون الباب ويكتبون.

*** أنتما .. كل واحد في غرفته ؟**

ـ نحن نعيش في شقة صغيرة في «شبرا» في القاهرة.

*** في حي شبرا. نعم ؟**

ـ في الدّور 26 المطل على النيل.. وشريف له غرفته يكتب فيها ويعيش فيها وأنا لي غرفتي أكتب فيها وأعيش فيها نلتقي وقت الأكل...

*** وعندكما مكتبة مشتركة ؟**

ـ كل واحد له مكتبتُه

*** إذن كل واحد « عايش على روحــو » ؟**

ـ .... لا عندنا مكتبة مشتركة في الصالة.. هو له كتبُه ورواياته وأنا لي كتبي ورواياتي.

*** يزوركما عاطف ومنى ؟**

ـ عاطف يعيش في بيته المستقل.. هو كبر الآن عمره 34 سنة.

*** وله رفيقة أو صديقة ؟**

ـ نحن لا نتدخّل في حياتهما.. نحن لا نعرف ولا نريد أن نعرف.

*** وبوصفك أمّه.. هو لا يصارحك بأسراره الخاصّة كأن يقول لك بأنّه تعرف إلى بنت حلوة ؟**

ـ نحن ليس لدينا وقت لهذا.. وحياته الخاصة ملكٌ له.. أنا لا أتدخل في الحياة الخاصة لإبني أو ابنتي.

*** ومنى لا تسألينها عن علاقاتها الخاصّة.. لا تطلبين منها الزّواج ؟**

ـ لا أقول أبدا لإبني تزوجّ.. أو لابنتي تزوّجي.. لا أنصحهم بالزّواج أبدا بالعكس... دائما أقول الفن والإبداع أولا مثل ما قالت لي أمّي وأبي : عملك وفكرك وإبداعك أهمّ.

*** أنت تزوّجت ثلاث مرّات ... فلماذا تحرمين ابنك أو ابنتك من الزّواج مرّة واحدة ؟**

ـ أتمنّى هذا.. لكن القرار لهما.. أنا قرّرت الزواج وحدي.. الأول بإرادتي حتى أن والدي كان ضدّي وكذلك في المرّة الثانية والثالثة ولم يتدخّل أحد في إرادتي وكذلك أنا لا أتدخّل في إرادة ابني أو ابنتي.. هذه هي حريتهما الشخصيّة.

*** لو تعودين صغيرة الآن .. تتزوّجين مرّة أولى وثانية وثالثة ؟**

ـ أتزوّج شريف فقط لكن الأول والثاني لا...

*** من يريد التحاور مع الدكتورة نوال السعداوي لا بدّ أن يفتح معها النقاش عبر مفاتيح خاصّة.. ما هو أول مفتاح؟**

ـ أيّ مفتاح أنا حينما أشعر أنّه صادق وغرضه الصدق والوصول إلي الحقيقة وليس الإثارة الصحفيّة لأنني أتعرض دوما لإثارات صحفيّة ولصحفيين يريدون الحصول على الشهرة على حسابي مثل ما حصل في المحاكمة جاء شاب صحفي في جريدة مغمورة..

*** في مصر ؟**

ـ نعم في مصر.. الجريدة أرادت أن تبيع على حسابي

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

فأخذتَ تشوّه آرائي ـ وأنا أفتح دائما قلبي للنّاس ـ أنا أتعرض لمشاكل كثيرة بسبب تلقائيّتي وصدقي. . أنا صادقة وتلقائيّة وشجاعة في إبداء آرائي. . فعادة أتكلّم بحريّة وبصراحة مع النّاس لأني أثق في النّاس. . والانسان عندي بريء حتى يُخطئ وليس العكس. . . هناك من يقول أن الانسان مخطئ حتى تثبت براءته أن الانسان عندي بريء حتّى يثبت خطؤه. .

*** أنت دخلت في ثنايا المجتمع العربي واشتغلت في المؤسّسات وخرجت واختلطت بالنّاس.. هل نافقت ولو قليلا حتى تصلي إلى تحقيق بعض الأشياء.. لأنّه لو كنت صادقة مائة بالمائة لا أعتقد أنّه كان بمقدورك الوصول إلى مبتغاك ؟**

ـ ليس هناك صدق مطلق وليس هناك كذب مطلق، وأنا عندي ذكاء طبعا ويجب أن أحافظ على سمعتي وعلى حياتي وأن لا أقول كل شيء. . . فهل تعتقد أنت أنني أقول لك كل شيء، لا هناك أشياء لا أقولها. . إنني أكذب عليك إذا قلت لك أنني أقول كلّ شيء.

***يعني أنت تخبّئين أشيـاء ؟**

ـ طبعا. . طبعا هناك أشياء لا أقولها وأشياء أقولها بطريقة معيّنة لأنني صاحبة ذوق وأنا أحترم الذّوق العام.

*** أنت ضد أن تبوح المرأة بكل ما عندها ؟**

ـ يمكن أن تبوح المرأة بكل شيء ولكن بأسلوب مهذّب ويقبله الذوق العام. . يعني أنا أكره الشتائم والكلمات القبيحة والنميمة. . حتى في كتاباتي كسرت محظورات كثيرة بكلمات رقيقة جداً.

*** أيهما أقدر الرجل أم المرأة على حياكة المؤامرات والشتائم والانقضاض على الآخر؟**

ـ هما متساويان . . فإذا نشأت المرأة في جوّ تآمري تصبح متآمرة لأن الطفولة تؤثّر في الإنسان. . لماذا أنا صادقة ؟ لأنني عشت مع أم وأب صادقين.

*** يقولون المرأة أفعى .. هذا صحيح ؟**

ـ هذه القولة جاءت من الموروث الديني. . وأنت تعرف أن التوراة ربطت بين حوّاء والأفعى. . هذا موجود في التراث اليهودي. . لكن المرأة ليست أفعى. . قد يكون الرّجل أفعى أكثر من المرأة. .

*** يقولون ربّما الرجل أسد ؟**

ـ هذا وهم الرجولة . .المرأة قد تكون أسداً. .

*** وقد تكون ملاكا. حسب الشخصيّة ؟**

ـ نعم حسب الشخصيّة. . ولكن المرأة المبدعة والرجل المبدع هما اللّذان يجمعان بين الملاك والشيطان.

*** ما هو مدى إيمانك بالعقول العربية.. ألا ترين أن الفكر العربي قائم ولكنه في حاجة إلى من يرعاه ويفتح له النوافذ ؟**

ـ طبعا العقل العربي مثل عقل الانسان في أي بلد. . العقول لا تختلف ولكن العربي تخلّف بسبب التزمّت والاستعمار الخارجي والداخلي بسبب الاستبداد من الحكومات العربيّة المحليّة بسبب الخوف وأنا دائما أقول نحن نولد في الخوف ونعيش في الخوف ونموت في الخوف وهذا يؤثّر على العقل فلا توجد عقليّة نقديّة لأن الابداع يعتمد أساسا على النقد ونحن نخاف من النقد ونخاف من الجديد. . . فيقولون : هذه بدعة والبدعة من الشيطان.

*** أنت هل تخافين من أشياء محدّدة ؟**

ـ طبعا أخاف. . وكل إنسان يخاف. . يخاف من الموت. . من المرض. .

*** تخافين أنت من الموت ؟**

ـ لا . . . كنت أخاف من الموت. . أنا الآن تغلّبت على الخوف.

*** تخافين من ركوب الطائرة ؟**

ـ كنت. . الآن «خلاص» كنت في الأول أخاف من ركوب الطائرة. . ولكن الآن ركبت آلاف الطائرات فتبدّد الخوف والخوف يتبدّد مع الحياة ومع التجربة.

*** دكتورة نوال ما هو تاريخ ميلادك بالكامل ؟**

ـ 27 أكتوبر 1931.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

*** ما شاء الله .. هل أنت راضية عن هذا العمر؟ وهل حققت فيه ما يعتبر مهماً للمرأة العربيّة؟ وهل أنت سعيدة بهذا؟**

ـ أنا سعيدة بحياتي وبكلّ ما حققت وما كتبتُ ولكنّي أشعر أن الكتاب الذي أريد أن أكتبه لم يكتب بعد وهي الرواية القادمة.

*** هل استطعت أن توفّري أموالا تعيشين بها في راحة؟**

ـ من الناحية الاقتصادية كان ممكنا أن أكون مليونيرة عن طريق الطب ولكني كنت أرفض أخذ المال.. فلم أكسب مليما واحداً من الطب.. ثم إن الفكر والأدب في بلادي لا يدرّ أموالا.

طوال عمري.. كنت موظفة حتى أطردوني من الوزارة سنة 1972 ولكني اشتغلت في الأمم المتحدة ثم استقلت منها وكنت أسميها «الأمم المتّحدة الأمريكيّة».. أنا أعيش الآن من كتبي المترجمة.. لأن كتُبي المطبوعة في البلاد العربية لا أحصل منها إلاّ القليل.. أنا أعيش من الايرادات ولكنّي لا أعتبر من الأغنياء.

*** عندك رصيد في البنك؟**

ـ طبيعي.. ثم أني فقدت في سنة 91 أو 92 مدّخراتي من الكتب بسبب إغلاق البنك وهي مدّخرات 20 سنة.. وهذه خسارة.. أنا خسرت لأنني وضعت فلوسي في بنك عربي.. ولكن ما عندي اليوم يسمح أن أعيش دون حاجة لأحد.. هذا فضلا عن السرقات التي أتعرّض لها.. فليس لي محاسب وأنا نفسي لا أحاسب.

*** لماذا لا توكّلين محاميا؟**

ـ هذا يتطلب تفرغا..

*** هل عندك سيارة؟**

ـ طبيعي... السيارة هي أبسط شيء.

*** أعز ما تملكين في البيت.. بالإضافة إلى المكتبة؟**

ـ أعزّ ما أملك إبني وأبنتي وزوجي وبناتي وأولادي في العالم العربي الذين قرأوا كتبي.. ويوميا تصلني رسائل عديدة من النساء والرّجال يقولون بأن حياتهم تغيّرت.. هذا أعزّ ما أملك.

*** ما هي أحلى ذكرياتك؟**

ـ كل ذكرياتي حلـوة.

*** ما هي أجمل صورة عندك في البيت؟**

ـ إنها صور كثيرة.. حياتي عريضة.

*** هل ندمت على شيء قمت به؟**

ـ أنا لم أندم.. حتى زواجي الثاني هذا كان خطأ ولم أندم عليه فمن كل تجربة تعلّمت شيئا بل أشياء.. فأنا لا أعرف الندم والندم يضعف الشخصيّة.. لذلك أنا أستفيد من التجربة.

*** أين تحبين العيش أكثر؟**

ـ في قريتي في مصر.

*** متى تكتمل السعادة عندك؟**

ـ عندما أكتب شيئا ما يهزنّي... فأحسّ أنّ القارئ سيهتزّ أيضا، هذه هي أهمّ لحظة في حياتي.

*** هل أنت متسامحة أمام أخطاء الآخرين؟**

ـ ياما شتموني وهاجموني.. أنا أنسى.

*** ما هي المرحلة من التاريخ التي تمنيت أن تكوني قد عشت فيها؟**

ـ هذه الفترة بالذات التي أعيشها.. ثمّ أنا لا أؤمن بالعصر الذّهبي.. فالعصر الذهبي هو العصر الذي أعيشه وفيه أثبت بصمتي وأقول فيه رأيي وأكتبه وأدفع فيه الثمن.

*** من هو البطل الرمز عندك أنت؟**

ـ ليس في حياتي أبطال.

*** زوجك ليس ببطل؟**

ـ طبعا زوجي وأولادي والنّاس ...

*** ليس سهلا كسب قلب وعاطفة نوال السعداوي؟**

ـ نعم هو بطل في هذا (تضحك) ... أنا أنقد مفهوم البطولة ولا أوافق على تقسيم الناس إلى أبطال وغير أبطال.. كل إنسان في داخله بطل إذا استطاع أن يدافع عن رأيه وعن إرادته.

*** ما هي الخصال التي يحبّها زوجك فيك؟**

ـ الشجاعة والصمت.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

*** وأنت ما هي الخصال التي تحبينها فيه ؟**

ـ الصدق والشجاعة والقوّة والرقّة.

*** أكيد أنت أحببت أن تكوني كما أنت الآن كاتبة متفرّغة تدافع عن المرأة والرجل.. هل هناك في خيالك وأحلامك ولاوعيك أشغال أخرى تودّين القيام بها ؟**

ـ أريد أن أقول إن الابداع هو التحام الوعي باللاّوعي وتحول اللاّوعي إلى وعي يعني مسألة اللاوعي هذه فيها نقاش وأنا ناقدة للطب النفسي ولفرويد الذي فرّق بين الوعي واللاوعي مثلما فرّقوا بين الجسد والروح. . أنا لا أقسّم. . هناك تلاحم بين الاثنين. . هذا شيء مهمّ جداً لأنّ الابداع لا يحدث إلا بتلاحم الوعي مع اللاوعي فأنا وعيي هو لا وعيي ولا وعيي هو وعيي.

*** يقولون دكتورة نوّال إن الغرب يحب طريقة تقديمك لصورة المرأة العربيّة للغرب.. هذا الغرب يحب كثيرا هذه الطريقة وكتبك مترجمة بالآلاف ؟**

ـ هذه إشاعة النّاس الذين يُريدون تشويه صورتي ويقولون هذه نوال السعداوي تكتب للغرب. . هذا غير صحيح. . أنا كتبي مترجمة إلى اللغات الشرقيّة في اليابان وأندونيسيا وتركيا وإيران وأريتريا وافريقيا كتبي مترجمة إلي اللغات الآسيويّة والافريقيّة أكثر من اللغات الغربيّة وهناك دوائر غربيّة إسرائيليّة أمريكيّة تكرهني. . الإعلام الغربي شوّه صورتي وهم يعلمون أنني ضدّ السياسة الاسرائيليّة والأمريكيّة في المنطقة وليس كلّ العرب معي. .

طبعا هناك من هم معي ومع القضيّة العربية ومع القضيّة الفلسطينيّة ومع قضيّة الانسان. . كذلك في الشرق هناك ناس معي وناس ضدّي.

*** من من الكتاب العرب الذين ترتبطين معهم في علاقة..؟**

ـ نعم لي علاقات مع كتاب من مختلف الأجيال والأعمار ومن ذوي الفكر المتقدّم الذي يسعى إلى تحرير المرأة ويسعى إلى القضاء على الفروق بين الفقراء والأغنياء وإلى حريّة الرأي.

*** هل لديك الآن ثقة في الشباب العربي وكم نسبتها ؟**

ـ ثقتي في الشباب كبيرة جداً وهو المستقبل. . . أنا أخيرا ذهبت إلى الجزائر بدعوة من الشباب في جمعيّة الاختلاف. . كلهّم في سنّ الثلاثين قرأوا كتُبي وتأثروا بها وكذلك في تونس وأيضا في الغرب وفي أمريكا وأوروبا وفي افريقيا. . أنا دائما أُدْعى من طرف الشباب في هذه القارات. . الشباب هم قرائي.

*** كيف تستقبلين شعارات الغرب.. العولمة مثلا ؟**

ـ العولمة هي كلمة مخادعة للاستعمار الجديد. . الاستعمار الجديد هو العولمة ببساطة ولكن دائما الاستعمار الرأسمالي الطبقي الأبوي يغيّر كلماته ليخدع النّاس، فكلمة العولمة هي الاستعمار الجديد واستغلاله لنا كلنّا.

إذن لا بدّ أن نعلم ذلك ولا نخضع له لأن هناك رجال أعمال في بلادنا يقولون بضرورة العولمة ولا يمكن مقاومتها كما قاومْنا الاستعمار في أي مرحلة لأنّ الاستعمار قاتل لنا وهو يستغلنا ويستغل مواردنا الاقتصادية والثقافيّة ويقتلنا ويذبحنا بالحروب النفسيّة والاقتصادية ولا بدّ لنا أن نقف في وجهه بشدّة.

*** وما هو سلاحنا في ذلك ؟**

ـ الوحدة العربية والتضامن على صعيد الثقافة والاقتصاد والعسكر. . نحن أكثر من 200 مليون لو اتّحدنا لا يمكن لإسرائيل أن تقف أمامنا ولكن الحكومات العربيّة هي مأساة العرب بتمزقّها وفُرقتها. . أنا هنا في تونس أوفي الجزائر أشعر أنّي في مصر أوفي العراق أو في السودان أو في سوريا ولُبنان وليبيا. . أنا أشعر أني في وطني حيثما كنت نحن وطن واحد. . . سلاحنا الوحيد : الوحدة العربيّة.

*** بحدس المرأة .. متى سيتحقق هذا ؟**

ـ يتحقّ هذا عندما يزول الخوف من الشعوب العربيّة. . كلنّا نخاف. . انظر. . أنا أقدّم للمحاكمة من أجل رأيي. . تخويف المفكرين تخويف النساء من الرجال. . . من حرية الرأي. . شعوبنا جبانة. . أنا سُجنت بُسبب مقالات وكتابات. .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أنا لا أرد على الشتائم التي يُطلقها كثيرون عليّ. . . أنا دائما أرد بعمل جديد. . بإبداع جديد. . لا يجب أن ننشغل بالشتّائم أو نقتل من قتلنا أو نسجن من سجننا بل يجب أن ننشغل بالبناء والوحدة من أجل المستقبل.

*** أعرف أن زوجك يكتب الروايات وقلت أنت بأنه يكتب أفضل من نجيب محفوظ المتحصل على جائزة نوبل؟**

ـ دكتور شريف حتاته عنده رواية إسمها ـ الشبكة ـ علامة في الأدب العربي وأنا أطلب من النقاد العرب دراستها وتقييمها ومقارنتها بالنسبة لأدب نجيب محفوظ.

*** هل يعرف نجيب محفوظ أدب شريف حتاتة؟**

ـ لا أعرف. . أنا لم أسأله لكن الشهرة في بلادنا لا تأتي للأدباء الثوريين المتمرّدين وإنّما تأتي للأدباء الذين يكونون مع الحكومات.

*** وها أنت مشهــورة؟**

ـ أنا مشهورة بالتمرّد والمشاغبة. . أنا مشهورة بالخروج عن القيم وبسبب الشتائم. . أنت لو قارنت بين شهرتي وشهرة نجيب محفوظ تجدها مختلفة جداً. . نجيب محفوظ مشهور بأنّه أديب كبير وأنا لا أحد يقول عنّي أديبة كبيرة. . لا أحد. . أنا لا أحمل إسم أديبة كبيرة بل يقولون مشاغبة وخارجة عن الدين وعن القيم. . أنا مشهورة عكس شهرة نجيب محفوظ.

*** في القاهرة المدينة العملاقة المليئة بالتناقضات وبالناس.. عندك فيها حراسة.. أنت لا تخافين على نفسك؟**

ـ أخاف مماذا؟

*** من النـــاس؟**

ـ الناس معايا

*** ولكن فيه ناس ليسوا معك، ناس ضدّك.**

ـ كلّ الشعب المصري معي.. أنا أخاف من الحكومات.

*** أنت لا تخافين من بعض «الظلاميـــين»؟**

ـ من هو الذي خلق الظلاميين في مصر. أنور السادات. . إنهما واحد. . أنا لا أفرق بين هذا وذاك! لكن من جانب الشعب أنا محترمة جداً ومحبوبة من طرف الشعوب العربيّة كلّها. . أنا تكرهني الحكومات ولذلك أنا أمشي في الشارع مطمئنة وليست عندي حراسة. . أنا أذهب إلى قريتي وكلّهم هناك يحبّونني لأنّي أحبّهم وأكتب لهم الصدق وهم يحسّون أنّي صادقة.

*** ما أفضل ما كُتب عنك؟**

ـ كُتِبَ عنّي الكثير.

*** يعني أخذت حقّك؟**

ـ لا لم آخذ حقّي في مصر. . كتبي تدرّس في جميع جامعات العالم عدا الجامعة المصريّة. . إنّهم يشتغلون على كتبي ويقومون بالدّراسات عنها ما عدا مصر. . النقاد يتناولون أعمالي بالنقد. . ما عدا مصر. . لأنّني أنتمي إلى المعارضة ولأنني كنت على مدى نصف قرن ناقدة للحكومات المصريّة.

*** دكتورة نوال.. نحن من هذه الشرفة (من نزل في ضاحية قمرت) نطل على البحر.. هل تحبين البحر؟**

ـ أحب جدا البحر والماء والهواء والوجه الحسن.

*** وبماذا يوحي لك البـحر؟**

أنا الآن أتذكّر بحر الاسكندريّة. . كل بحر عندي هو بحر الاسكندرية لأنني قضيت فترة من طفولتي في الاسكندريّة. . البحر والأمواج. . .

*** أخيرا ماذا تقولين للمرأة العربيّة؟**

ـ أقول لها كوني نفسك ولا يهمك شيء. . . كوني نفسك وعبّري عنها بصدق وشجاعة. . عيشي حياتك كما تريدين وحققي ذاتك ولا تخافي. . .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

مواجيد الإعصار...

عروسيّة النّالوتي (*)

كانت «سيكلمانة» في غابات جبل «أبي القرنين» تستحمّ بالضوء وتتنشف بغيمة عابرة، تائهة، فيومض ألق على ضفاف بشرتها، ناصع كالتوق. ويحضن الجيد منها عقد من خجل العرب. ويسكن قامتها المديدة سر البر. وتخبّ في أنساغها سير البربر.

كانت في خلوتها تجلو نفسها وتكشف سرّها عندما باغتها مارد من مردة الإنس فحجب عنها الشمس، فالتحفت بالغيمة تجلب الافصاح وراء أسيجة الخوف، ترقب الحتف.

اقترب منها المارد الإنسي، وجلس حذوها واتكأ على مرفقه، يمعن النظر إليها. وفجأة... نفخ وجهتها نفخا حارا كاللوعة فبدّد الغيمة وجرّدها إلا من عرائها والكبرياء. ثم انصرف يلاطفها وهي لا تلين، فصرف أصابعه عنها وأخذ يحدثّها قال : ما جئتك غازيا يا زهرة البربر، ولكنّها هواجس النفس وتحللُ الفكر والوحشة دفعتني إليك أبحث فيك عن أنيس قابل للأنس فلعطرك الخفي سرّ يجذبني، وفي انتصاب عرقك تاريخ جدودك البربر.

اندهشت «السيكلمانة» ثم احتارت ولم تصدّق، قالت : أتهزأ بي يا أيها الإنسي وأنت من أنت وأنا من أنا ؟

قال : لا.

ثمّ أطرق وظل يبحث بأصابعه في التراب عن شيء أودعه الإنسان في الهنُا قديما ولم يعد إليه. وبعد زمن دام عمرا، رفعَ بصره وأجاله في أوساع الجبل وأحسّ الشمس تغرس أهدابها في عتو أحمر كغريزة البقاء في أوصال الجبل وتتعلق به.

الوصل ـ الوصل يا نداء الحجارة تلتئم بالأرض، والجبل يريد السماء والإنسان، يفتش في جيوب معطفه عن باقي إنسانية نَسِي أن يستهلكها في سباق المضغ الدائم لأوصاله حتى استحالة الفهم. ثم وفي لحظة من تلك اللحظات المشدوهة كالقبور تفتح أقبيتها، ارتعش وقال : شيء ما يا «سيكلمانة» البرّ يقرّبني منك ويجعلني أفكر أننا خرجنا من رحم واحد.

لعلني كنت أحملك حينها في تصوري. أو ربما كنت تحمليني مشروعا في رأسك سرعان ما نطّ خارجك مع أوّل فكرة طائشة لم تكتمل بعد.

قالت السيكلمانة وقد أشاحت بوجهها عنه خجلا، وما هذا الشيء الذي يربط بيننا أيها الغريب عنّي ؟

قال : ارتفاعك عن قشرة الأرض رغم انشداد جذورك إليها. واشرئبابك للشمس دون وصولك إليها وخجل الطموح فيك، يطأطئ رأسك ويثنيك فإذا أنت رغم ارتفاع القامة وشموخ الرأس والجيد، لا يفارق بصرك منابت عرقك.

* كاتبة تونسية.

قالت : أما ارتفاع قامتي فإرثي عن الجد الأول وأما التقاطي الدائم لشعاع الشمس فضمان بقاء الحياة في التربة داخل الأرض وبقائي. وأما خجلي فقلادة حمراء كالعهد وضعتها أمي في عنقي حين العشق ولدتني حتى ما أطول الشمس فينقطع عرقي، وفي العرق سر حياتي وفي تيه النشوة داخل الارتفاع موتي.

قال : لكن العمر يا «سيكلمانة» البر حصة مبتورة. ونشوة توقك مطلق العمر ! ألا تريدين التمطط فيَّ، أغرسك امتدادا. فتعلمينني السير في الجبل.

نظرت إليه السيكلمانة وطأطأت رأسها فاكتشفت عراءها وقد تبددت الغيمة من حولها تماما. فارتبكت وأرادت أن تقول : لا. لكنه لم يتفطن لحالها فواصل، قال : لو تعلمين كم أنا حزين ! حزين حد فقدان إدراك الذوق واللون، فانغرسي في ضلعي» المصدور يا زهرة البرّ وقفي على جرحي المفتوح يكفّ نزيف التنائي الهاطل من رأسي.

نظرت، «السيكلمانة» مرة ثانية إلى الأرض وحركت قوامها الممشوق، فتشققت التربة حول منبتها وانكشفت عروقها. ثم رفعت الحمرة عن جيدها ونطّت إلى صدر الإنسي المفتوح على مصاريعه الستّ وغابت فيه.

فقام. وانتشى. واستنشق الدنيا ومضى وخلع جلده على الأرض وتبخر في الفضاء.

فرفعت كل «سيكلمانات» الجبل رؤوسهنّ نحو السّماء يُلاحقْنَ الحدث. ولحظتها أعياهنّ النظر المديد بلا رجاء، حرّكن أعناقهنّ فإذا هي ثابتة إلى أعلى لا تروم حراكا ولا تقوى على انحناء.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أنا وفرنسوا...

وجسدي المبعثر على العتبة

حياة الرايس (*)

مرمر البيت العتيق يغفو مطمئنا تحت برودة وسكون القبو المعتّم بالاسرار، غير مكترث لظهيرة أوّسو التي تستعر في صحن الدار... فجهنم على العتبات تنتظر وراء الابواب تتلصص.....تتلهف.... تنتظر من سيرتكب تلك المعصية .....

وأنا مثلها أنتظر.... أتلهف.... ولكن أمتنع عن ارتكاب أجمل المعاصي إلا معك......

أتقلب بجسدي من سرير إلى سرير ثم ّأرتمي على أرض المرمر البارد... طامعة في إغفاءة مثل إغفاءته... يساورني شك يفسد عليّ نومتي : هل لمحك أحد البارحة وأنت تدخل عندي؟.....

فـ"الآخر" جحيم مترصد بالأبواب المواربة... يطوف بالأسوار العالية... ويتنصت أحاديث السقائف المغلقة... وأرحم منه جهنم لأنها مشروع مؤجل إلى الأبد....

قضيت سنين أهرّب ألمك وفرحك كما أهرّب رسائلك وصورك من درج إلى درج وأُطبق على الألق الساكن في العيون... وأضغط على النبض الخافق في القلب...

فالقبيلة لم تعبق قط برائحة الأمان منذ ساح بها سرّ ليلى الأخيلية وليلى العامرية وبثينة....ممّن لم يمسّهن ترف الجنون ولا تمتعن برحمة التيه هائمات طليقات في الصحراء... بل اكتفين بابتلاع جمرات عشقهن غصصا... فالشاعرات اللواتي تطاولن وعتّبن رقعة البوح تخضبن بدماء الكلمات فسكتت قلوبهن وأنفاسهن ولم تصلنا أشعارهن أبدا.

ما أصعب أوجاع الصمت... ما أصعب أن نحب في صمت... أن نجن ّفي صمت... أن نموت في صمت...

وحدها جهنم تعرف حرقة الصمت... وتعرف عذابات إخفاء رائحة رجل نُحبّه... لأنها وحدها العابقة بأخبار المحبين وأسرار المولّهين وقصص العاشقين...

لقد حوى جسدي الحرائق كلّها والتهبت كفي الماسكة على سرّه... وأسدلت الجفون على الوهج الهاتك للأسرار...

أتقلب على أرض المرمر البارد...

أتحسس بأطراف أصابعي خطوط شقوقه المتعرجة،

أُسر ّلهذه الشقوق التي تُكسر صلابته، .ألصق خدّي ببلاطه فيتسلق إلى أذني أنين الماضي ينزّ من بين شقوقه على أيّام ولّت ورحلت دون التفاتة حنين...

يحتضن المرمر الموشوم بنزيف الماضي دقات القلب المكلوم، نتوسد جراحنا وننام كصديقين ينتميان

---

* كاتبة تونسية.

إلى نفس الطعنة، خيط سري يجمع بيننا يسري صمتا مأهولا بنزيف الزمن... أغمضت عينيّ : "فغرق المرمر الأبيض في دماء ساخنة... ساح دم لا يكترث له أحد كدم شهيد في بلاد غريبة، تضمّخت الشقوق بالدماء دون أن ترتوي... فالثأر قديم بين الجرح والزمن... والوجع ثقيل ثقل الدهر على ظهر مقصوم بالكتمان"

تلك العتبة كانت قد احتضنت لقاءنا الأول بتونس:

عندما فتحت له الباب رمى حقائبه في السقيفة وسحبني إلى صدره... كان ممتلئا وهادرا كأمواج قطعت البحار السبعة لتتلاشى رذاذا رطبا على صدري. .

ظمّني " فرنسوا " حتّى ذاب المرمر الصلب تحت أقدامنا... تراجعت الدنيا عن قسوتها.

تقلّصت المسافات وانحنت السماء وانبسط الدهر وغفر الإله...

عندما ألقيت رأسي على كتفه أدركت كم أنا متعبة ومكابرة ....

ألقيت رأسي وتركت شفتيه تتحسّسان الطريق إلى قلبي... كان نبضه خافقا كجناح طائر مقرور وجد عشّة بعد طول ضياع... مع نبضه سمعت وقع خطوات وراء الباب... غائبة عن العيون رأيت عين الرقيب تتسلل مع أنفاس الهواء، تخرج من شقوق الأبواب ومن الجدران... لتفسد إيقاع قلبي " : ...من المستحيل أن يكون قد مرّ بالزقاق وبحقائبه دون أن تضبطه عيونهنّ من وراء ثقب الأبواب ".

اخترقتني فجأة نسائم خريفيّة باردة وموحشة... بينما كان الربيع يزهر في داخله....

حاولت أن أرمي العالم وراء ظهري كما كنّا نلتقي في باريس وأكون له وحده فوجدت العالم ثقيلا كالدهر... كالذنب...

حاولت أن أنساب تحت جلده ...أن أستبدل دمي المرعوب بدمائه "البيضاء" التى لم يحاسبه عليها أحد... أن أصفّي دمي من روائح الرعب القديمة العابقة من ألسنة لهب القبيلة.... بصعوبة غمدت رأسي في صدره ...

كان "فرنسوا "غارقا في صلاة لوجه قلبه ومشاعره وأحاسيسه... وكنت أنا مبعثرة على العتبة بعضي في الداخل وبعضي في الخارج...

يبدو أنّنا لا ننتمي إلى نفس الطقس ولا إلى نفس التاريخ ...

لكنّ "فرنسوا" سيحاسبني فيما بعد عن ذلك التبعثر، عن ذلك الانقطاع عن" الصلاة " كما يحاسب إله عبدا أشرك به. لقد أدرك بحدس العاشق الصوفي الخالص أنني لم أكن كلياً معه، وأنني لم أسر صافية في دمائه الحارة...

كيف أقنعه أن دمي الملوث بموروث فيروسات القبيلة هو نفسه المحترق شوقا للقائه ؟

من الصعب أن يفهم !...

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

صمتا !... إنّه التّاسع !

حفيظة قاره بيبان (*)
(بنت البحر)

جاءني صوتك عبر الهاتف.

لوهلة، التمعت تلك العبارات الشرقية الجميلة :

ـ أهلين حبيبتي !

. . . . . تكرم عيني !

انتظرت لوهلة خاطفة ألفة الكلمات الحبيبة وعطر الشرق الأبدي.

ولكن، أتى صوتك البعيد، عاريا، ثلجياً، قاطعا كل الصلات الدفيئة، مجمّدا حميمية كانت مزهرة.

«أهلين حبيبتي!» مضت.

«تكرم عيني!» ذوت. . وتهاوت صخور سوداء في صوتك. وارتفعت رائحة دخان خانق تسلل إلي من سلك الهاتف مع الكلمات.

اكتشفت فجأة أنّه ما عاد صوتك، وذاكرتك تمزق كل الذي مضى، وتنتحر على مهاوي النسيان.

بسرعة، انقطع الخط بعد السلام المثلج، تاركا السؤال :

ـ ما الذي حدث ؟ ليسقط الصوت عاريا إلا من رياح الغربة، ودخان المدائن المنهارة ؟

ـ ما الذي تغيّر ؟ ليطفئ أضواء أيامنا الماضية ؟ ويتركها تنهار مع انهيارات البنايات والمدن والأوطان؟!.

ـ أهي دنيا السقوط ؟. . تُسقط من سلالنا الخاوية حتى أوراق ودنّا الباقية؟ ولا ترضى بغير الشقاق يمتدّ، يمزّق أرضنا الباقية ونفوسنا الكليمة ؟!

* * *

حين وضعت السماعة، بدا عصفور ينوح على حافة النافذة، والأرض تفتح عيونها الخضر وتبكي.

قيل : هو الربيع ! . . . ولكن السماء لم تكف عن النشيج.

ظلّ صوتك يصفع أذني، وخيالك يحجب غمامات السماء البيض.

وظلت الصفحة الأخيرة التي كنت أقرأ في كتابي التاريخي «أشهر حضارات المدن» ـ هديتك ـ تختم صمت الهاتف بإمضاء النهايات : « . . . فقد عثر المغول في أحد شوارع بغداد على أربعين رضيعا حديثي الولادة، فأجهزوا عليهم، إذ لم يجدوا لهم مرضعات» !

* * *

ومع ذلك، والليل يعود، نسيتُ خصومة الهاتف. قطعتُ المسافات الطويلة. تسللت بين الفجاج وأتيتني.

---

* كاتبة تونسية.

دفعتَ بعيدا كتابي المفتوح على صفحات المغول.

وصامتا، لُذتَ بفراشي العالي القديم الذي ظللت أحب، رغم القدم. فراش عتيق على دكّة عريضة مبنية في بيت جدّي الكبير، تغطيه حشية الصوف، جمعته جدتي من قطيع أغنامها الغالية.

كطفلة وحيدة اقتربت منك. استكان رأسي على كتفك، وخوف مبهم يشدنّي إليك.

لم أكن في تمام الوعي. ولم أدر لمَ أتيتَ بعد الذي كان، ولا كيف أتيتَ. كيف قطعتَ المدن المحصنة، وتسللتَ بين الإنفجارات، وتجاوزتَ الحواجز والأسوار، وفتحت أبواب البيت الموصدة بغليظ المراتيج.. لتلجأ أخيرا إلى سرير حفيدة عليسة العتيق الرفيع، تقضي فيه بقية الليل.

لم أكن أدري، في عتمة الليل، بأي أوشام دامية، أتيتني، وأنت تحمل تحت قميصك مدينة تنام وتصحو على سريري وتتناثر أوجاعا على ورقي، وتفجرك غضبا على شواطئي، وتمطرك ثلوجا في دمي.

ولكن، ارتعاشة فرح سرت في، وأنا ألقاك سليما تخرج من انهيارات المدينة. وشبه أمان لفنّي، وأنا أذكر أن بيت جدي العتيق المبني من حجر جبال الأطلس المنيع، يجمعنا في سكينة الليل الغامض، يغيّب عنّا العالم الموبوء.

* * *

بدا صبح مغبش، من عمق الغياب، كالوهم يأتي.

وإذا بك تنهض، يمتد جسك الفارغ، دون كلام. تخرج تترك الأسئلة المعلقة خلفك عن معنى حضورك، ومعنى الغياب، أنت الغاضب الساخط على الدنيا، القاطع الصلات...

فلمَ إليّ تعود، في الظلمات ؟!

.. بدا لي أني أنسحب بهدوء من الفراش.. أبحث عن وجهي في المرآة.. عن السنين الماضية والحاضرة في جبيني.. عنك، فيّ...

كان الجدار عاريا، والمرايا انطفاء.

لامست أصابعي وجهي متفقدة.. غاصت أصابعي في الفراغ..

بحثت، مرعوبة، عن وجهي في الفراش.. بين الملاءات.. على الأرض.. في عينيك حين عدت تنشف وجهك المبتل...

وجدت فيهما الليل ما زال شاسعا وحزينا وصامتا.

ولم أعثر على وجهي، ولا على الدهشة في عينيك... ولا على الكلمات..

فقط ضاعت على لساننا لغة الضاد.

* * *

رغم الرعب الغامض، وغرابة الليل معك،

بقيت أستلذ دفء حانيا على كتفي وذراعي، تركته أصابعك النابضة بحزن عربي شجي عتيق. وظللت أتنفس روائح عطرك الكوفي، وأنا أشهد خطك على طاولة سريري، في كتاب أهديتنيه، ذات أمل في الدنيا.

* * *

وكما أتيت، غامضا، صامتا، اختفيت سريعا من الغرفة، بعد ليل غريب. وظل سرير جدي خاويا. وشجن غامض، غير مفهوم يلفني. وشبه توجس يؤكّد لي أني في البيت الصامد، الوحيد، أعلى الهضبة، محفوفة بغابة هائلة، لا نهائية، ترتع فيها الوحوش الضارية الجائعـة.

خروجك المفاجئ، ظل لوقت يرعبني.. ثم، شيئا، فشيئا، غاب العالم، واختفى.. وأخذني وسن رهيف.

* * *

فجأة، من عمق الغياب، دعتني شفتان طريتان تلامسان وجنتي. قبلة حانية ووهج من نـار...

فتحت عيني.. شاهدت شموعا تشتعل...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

خلفها، أطل وجه ابنتي باسما :

ـ هيّاً ! انهضي ! إنّ التاسع من أفريل !

.... عيد ميلاد سعيد !

....

فتحت عينيّ.. واجهتني مرآة الدولاب المقابلة بأضواء الشموع... تلفتّ حولي... كان سرير جدّي قد اختفى... كما اختفيت. لمعت في الذاكرة كلماتك الماضية الحارقة، والهاتف المنقطع، والصوت المصقّع المنهار..

اقترب مني وهج النار.. تلوّت ذؤابات الشمع...

لمحت كتابي «أشهر حضارات المدن» ما زال قربي على الفراش، مفتوحا على بعض مذابح المغول...

عاد صوتها يؤكد :

ـ عيد ميلاد سعيد !

.... إنّ التاسع من أفريل !

..... عيد سعيد ! أمـــاه !

....

ساحت دموع الشمع تكفّن حلوى العمر.

لم أقل : صمتا! .... إنّ التآســع !(**)

فقط، نهضت، نافضة عني بقايا الأحلام.

وقتها، شاهدت ظلك يعود.. يعلو، ويختفي في دخان الشموع...

يترك الغرفة...، ويترك بغداد،

على شموع ميـــلادي..

معـــي ...

تحترق.

** 9 أفريل 2003 : يوم سقوط بغداد.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ليل المدينة والخلاّن

سلوى الراشدي (*)

كنّا أترابا نلتقي في الحرّ كما في القرّ في أواخر العشيّ حول ما تيسّر من قوارير ودخان وحكايا . . . وحين يتعب النّادل وينتهي من عدّ نقوده وحين تُقلب الكراسي على الطاولات ويسكب الماء على أرضيّة المقاهي المقفرة جارفا بقايا السّجائر المداسة وآثار الأقدام المعفّرة وما سقط من الزفّرات المحبوسة والحكايات المبتورة، نلجأ إلى ضوء الشارع ونكتفي بالرّصيف مقعدا أو بعتبات الدكاكين المغلقة لنكمل سمرنا ونستوفي ما تبقى من الليل، فيستحثّ الصامدون منّا عزائم المتعبين ونطرد النعاس بالهرج ولعب الأشبال الذي لا تدري عنفه من لطفه. . .

في لقاءاتنا تلك كنّا نحطّ همومنا على الطاولة نتقاسمها مع قطع أمعاء الظأن المشويّة ونحتسيها مع جرعات الجعة ونتندّر عليها بما طاب ثمّ ننثرها مع الأوراق التي تعبث بها الريح في شوارع المدينة، في قلبها، في ساحة النصب التذكاري الذي لا يذكر غير الساعة التي توقفت فيها ساعته لتظلّ عاطلة إلى أجل غير معلوم، ويذكر حرارة ظهر الحارس الليلي للسّوق البلديّة الذي يتكئ عليه، وحبلا معلقا بقمّته، عقده أحد الصبّية النزقين في شكل مشنقة لا يزيحها أحد، لا المستنكر ولا الساخر ولا اللامبالي. . .

كنّا نتنقّل من عتبة إلى أخرى بأريحيّة من يتنقّل داخل بيته وكأن جصّ الجدران واسفلت العتبات طنافس ونمارق. . .

كان بإمكاننا الجلوس على قاعدة النصب المدرجة لكننا كنّا نتركها للحارس حرما ونتجاهل وجوده، كذلك كان هو يفعل معنا. . . كان في جلسته يبدو للناظر كمُصيخ يتصنّع النعاس لولا قفزاته التي تخونه من حين لآخر عندما يستفيق منزعجا على صيحاتنا فيبحلق فينا ثمّ سرعان ما يعيد قبّعته على عينيه ويعود إلى النعاس وكأنّ شيئا لم يكن ونعود نحن إلى تندّرنا فنضحك ونضحك. . . نضحك على الفاشل في الدّراسة منّا والناجح، وعلى العامل والعاطل، والأبله والفطين، والعاشق والخالي على حدّ سواء وقد التقينا جميعنا على حفنة ذكريات وغصنا في بئر انتظار بهيم لا نعرف لها قرارا في لحظة من السمّر لا يعلمها غير الشادي، قد يعطي إشارتها وميض نجمة في سماء المدينة أو نسمة متمرّدة أو كلمة سحريّة في سياق الحديث، يضغط صديقنا الحالم بسبّابته على أذنه ويغمض عينيه ويطلق حنجرته بالغناء فنطرب جميعا لطربه ويأنس الليل ونجماته وتردّد أطراف المدينة الصدّى. . .

ما أفسح مدينة ينامُ حرّاسها والكلاب ! . . . ترى. . . هل يصل الصوّت الصادي إلى مضجعها؟. . . هل يرمش جفناها؟. . . هل يتسارع نبضها؟. . . لو تحدثّها نفسها بلقياه يسقط القمر في فناء الدّار ويستيقظ أخوتها السباع ويُرعدُ والدها الضرغام وتُصفقّ الأبواب وتُسدّ كلّ المنافذ!. . .

بعد ساعة أوبضع ساعة، وقبل أن يهتك الفجر ستر الليل، وقبل صياح الديكة فوق السطوح، وقبل قيام الآذان لصلاة الفجر سيكون صاحبنا هذا قد تسلق سور الحديقة، وذاك قد قفز من الجدار وسط "الحوش" ويكون ذاك قد فتح الباب الخلفي الذي تركته أخته عمدا موصدا دون إحكام المزلاج، ويكون هذان قد ترافقا لمرآت إلى باب بيت كلّ واحد منهما . . . فتغمض أخيرا أمٌّ جفنيها

* كاتبة تونسية.

على وقع خطوات العائد، ويقوم جدّ للتوضؤ والتبتّل، وجدّة للتيمّم والدعاء، وتنهض امرأة إلى الجفنة والطّحين ورجل إلى عدّة العمل، ويئزّ الماء في المواسير وتضوع رائحة الخبز الأولى من فرن الحيّ الجنوبي...

بدأنا ننهض وننفض غبار العتبات عن مؤخراتنا ونستحثّ بعضنا لأخذ طريق العودة حين استوقفنا أزيز المحرّكات وصوت منبّهات سيارات الأمن القادمة في اتجاهنا... ما الذي ساق هؤلاء إلى هنا وقد تعوّدوا التواجد حذو الشّواء في المفترق الشمالي حيث تلتقي الطرق المؤدية إلى المدن المجاورة مع الطريق النازلة إلى هنا، أو عند مدخل نزل العين الصغيرة المشرف على المدينة الأثريّة، أو أمام مدخل نزل الامبراطور الروماني، يمنعون المخمورين من العربدة والشجار الذي قد يقلق راحة "جرجير" أو "فلافيوس" أو يعكّر مزاج "سفيطلة". أمّا العبادلة السبعة فقد كرّوا وأفسدوا نكهة النصر على أصحاب "قوس النصر" ثمّ فرّوا واستقرّوا بحانتهم قرب الوادي... ونحن هنا لا نزعج تجّارا ولا فجّارا ولا أعيانا ولا كبارا ولا صغارا... وسنعود مع الصّراصير إلى مضاجعنا آمنين... فماذا ترى يحدث هناك؟ وما الذي يأتي بهؤلاء إلى هنا؟... لم يطل تساؤلنا فسرعان ما داهمتنا سيارات الأمن بأضوائها الكاشفة وتوقفت حذونا العربة الطويلة ذات النوافذ المشبكة بالحديد وفتحت أبوابها الخلفيّة لتستقبل القطيع، فتسمّر البعض في مكانه وركضت بعض الأقدام نحو الأنهج الأقل إنارة واختلط الصياح بالأوامر والشتائم والدّفع والركّل وماهي إلاّ دقائق حتّى خلت ساحة النجمة من كلّ روادها بما فيهم الحارس الليّلي للسوق البلديّة...

ـ كلكّم تعرفون الهالكة لكن من منكم كان صديقها؟

ـ هل كان معكم ساعة احتراق الهالكة؟

ـ إذا كان بريئا من حرقها فلماذا اختفى؟

ـ خارج معهد العبادلة في أي مكان آخر كان يلقاها؟...

ـ هل تعرفون عقوبة التستّر على مجرم؟

ـ أين كنتم ساعة الواقعة؟ من قال إنكم لم تشتركوا في ما حدث؟

ـ كان وابل الأسئلة ووقع الفاجعة يلجم ألسنة بعضنا ويصيب بعضنا الآخر باللكنة... عدنا صغارا صغارا نتمنّى لو نرى وجوه أمّهاتنا تطلّ وسط تلك الوجوه القاسية!..

دخل محقّق من المكتب المجاور وأشار إلى العون الواقف وزميله الجالس إلى الآلة الراقنة بأن يوقفا التحقيق:

ـ دعوهم ينصرفون مؤقتا فقد أوصلنا التحقيق مع أهل الهالكة إلى أنها قد قامت بحرق نفسها...

لكن يبقون على ذمّة التحقيق بالمدينة!...

غادرنا مثقلين بحزن كالجبال وبالخارج شهدت حمرة الفجر أولى العبرات الخالدة في مآقينا وفضحت الوجع الغامر... هل نبكي الزهرة الراحلة في عزّ الربيع أم يتُم صاحبنا العاشق المجنون؟

لماذا فعلت هذا يا زهرة؟ هل لظى النار أرحم من لظى العيش؟... ياليتّكما ظللتما بدهاليز المدينة الأثريّة!... كنا مددناكما بالطّعام كلّ يوم!.. كنتما التقيتما مع كهنة المعبد الكبير وأطياف المدينة الغابرة... ربّما كانوا يحنون على حبكّما أكثر من أهاليكما... ربّما اقطعتوكما بيتا وبستانا يكون لكما فيه بنات وبنون!...

أو كنتما هربتما إلى أيّ مكان نلقاكما فيه!

لو كنّا في زمن البطولات لراح صاحبنا إلى بلاد "الغول" بلا تأشيرة وعلى ظهر فيل ولتشرّف والدك بمصاهرته... لو كنّا زمن الإمبراطوريّات لقاتل الأعداء وحفر اسمه على الصّخر... لو كنّا في زمن الفتوحات لقاتل الكفّار وغنم الكنوز والسبايا ولهلّل اخوتك بقدومه... لكنّه في زمن الانتظار لا يقتل شيئا آخر غير الوقت!...

ما زلنا نجرّ أحزاننا والخطى غير بعيد عن المخفر لمّا اعترضنا رجل يهرول بخبر عاجل تقيأه قبل أن يصل إلى الباب وأجهز علينا. قال: "لقد وجدنا شاباً معلقّا بالقنطرة!".

نظرنا إلى بعضنا البعض وقد نطّت في رؤوسنا نفس الفكرة الرهيبة: عسى أن لا يكون صديقنا الشادي!؟...

طفقنا نركض نحو الوادي ونركض والطريق تطول تحت أقدامنا والمدينة لا تنتهي، والدّور تشقّ صدورنا، والأنهج تتوالد، والسوق تتعثّر وتلتحق بالمهج الطّائرة والكلاب تنبح والنساء تولول...

ما أقبح مدينة يستيقظ حرّاسها والكلاب!...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نُبُوءَةُ أروى القيروانيّة

جميلة الماجــري *

وفاءً لامرأة رمزٍ من بين نساء رموز كثيرات في هذه الأرض التونسيّة العريقة التي طالت بها قامات نسائيّة امتدّت ظلالها إلى مغرب البلاد العربيّة ومشرقها ومنهنّ موضوع هذه القصيدة: «أروى بنت منصور الحميْري» المعروفة بأروى القيروانيّة وأمّ الخلائف زوجة الخليفة العبّاسي أبي جعفر المنصور، الذي أحبّها وتزوّجها بالقيروان على الصّداق القيرواني الذي يقضي بأن تكون العصمة بيد الزوجة، ويمنع الزوج من أن يتزوّج عليها بدون موافقتها وغير ذلك من الشروط التي تضمن حقوق الزوجة وكرامتها.

وإلى سلالة هذه المرأة التونسيّة ينتمي خلفاء بني العبّاس الذين بلغوا بالحضارة العربيّة الإسلاميّة عصرها الذهبي.

كما أنّ أبا جعفر المنصور أمّة تونسيّة بربريّة تُدعى «سلامّة». وعندما تولّى أبو جعفر المنصور الخلافة وأسّس بغداد، كان أول ما ابتَنَى بها قَصْراً سمّاه «قصر الخُلد» أهداه إلى أروى القيروانيّة.

وكان المنصور قد لجأ إلى القيروان إبّان الدّعوة العبّاسيّة هرباً من ملاحقة الأمويين له، حيث تعرّفَ على أروى وتزوّجها.

والقصيدة استحضارٌ لهذه القصّة في الرّاهن العربي اليوم :

أفاقتْ
مُجلّلَةً بالبهاء الخُرافيّ
مِن قيروان السّلالات
لألأ في ليل بغداد نجمٍ عصيّ على الرّاصدين
وضاءَ فناء ببيتٍ عتيقٍ
يُجاورُ جامعَ عقبةَ بالقيروان
وكان جَوادُ أبي جعفرٍ
لم يزلْ قائماً عند باب المدينة في حُلْمِهَا
والفتى الهاشميّ الذي طَوّحَتْهُ الفُتوّةُ
حتى تخــومِ البلاد القَصيّة.
مُستَوْحداً جاءَ يسعى إلى حُلمه المستحيل
فكيفَ يَجْمَعُ
ما بين أقصى البلاد وأقصى المُــــراد
وفي البدء
ما كان في الحُلمِ مُتّسَعٌ للهوى والنّساءْ
فقد كان حُلمُ الفتى أن تَلين له الأرضُ
أو أنْ يؤلّف ما بين لونيْن في دمه
لم يكُنْ جرّبَ العشق حتى رآهَـــا
مُجلّلَةً بالبهاءِ الخُرافيّ من قيْروان السّلالاتِ

* شاعرة تونسية.

لمّا تجلّتْ
رأى الأرضَ تجمعُ ما بين أعطافها
تنطوي في يديه على مائهـــا
ثمّ تَبْسُطُ أطرافهـــا
شاهَدَ النّجْمَ حطّ على راحتيْهِ
هي الأرضُ
معقودةٌ في نَوَاصِي النّساءْ
فمنْ أيّ باب يجيء إلى حلْمِــهِ
قد تجلّى أخيرا
وهذي مفاتيحه في يديه
أجابتـــــه :
ما زلتَ لمْ تبلغ الباب بعدُ
فللقيروان مداخلُ لمْ تَخْتَبِرْهَـــا
فقال : العــــراقْ
أجابتْ : وذي قيرواني
فقال :
أُعلّقُ ما بين ماءَيْن أُرجوحةً للجميلة :
ماء زَرود وماء الفُرَاتْ
فقولي : نَعَمْ :
كي أمُدَّ لهودجكِ الظّـــلَّ
ما بيْن شطّ الجريدِ وشطّ العربْ

II

أفاقتْ
وفي غُربةِ الرّوح عن كونهَا
أجهشَتْ بالســـؤال :
تُراني أراوحُ ما بينَ حُلمي وصحوي ؟!
فمـــا للزّمـــانِ غريبٌ ؟
أهذا زمــــاني ؟
فلا الليل ليلي
ولا الوقت في ساعة الماءِ وقتي !
وما للمكانِ غريبٌ
فقد كان بيتي قريباً من الله في القيروان
وقصْري ببغداد كان منيعا
فمنْ قد تجرّأ يقذف بالحجر الخُلدَ
أيُقظني منْ لذيذ المنام ؟!
وما للنخيل تقصَّف منه الجريدُ ؟!
ومَنْ قد تجرّأ طَاوَلَ نخلُ العراق ؟!
وبغدادُ
أين وقد عتّمَ الليل منصورها ؟

III

تراني تورّطتُ في الحُلم حتى التباســـي ؟
وهذي الكوابيسُ قد عاودَتْنـــي
فقد كنت أبصرُ في الحُلمِ
منْ ألف عامٍ مضتْ
أنّ بيتي ببغـــــــــداد
يغدو بعيداً عن القيروان
وأغدُو الغريبـــةَ
أدعو وإنّي لَسَاخرةٌ
والغزاةُ على باب بيتي
فلا مَنْ يهبُّ إلى نجدَتي
فأهربُ من زمنٍ لمْ يعُدْ زمنَـــي
وأغرق في الحُلْمِ حـــتّى الغيابْ

مرثيــة سدّ مــأرب

فوزية العلــوي *

لا شيء في التنور إلا رماد الليل
ومدينة الصلصال غافية على أسوارها..
نامت غزالات الضّحى،
لم يبق في الوديان من كما وما ..
عادت مياه النبع صافية كما.
هذي جذوع الطلح أخوتها الريّاح
ومواقد الرّهبان شاهدة على أخبارها...
لم ترتعب تلك العجوز
لحفيف أطيار نحاف
ستهشّها إن أقدمت ببنانها.
لا برُّ في الغربال كي تهوي عليهْ
أو حنطة حتى ترابط عندها.
ستقول للرّعيان إن حلوا هنا
فلتأخذوا أصوافكم ولترحلوا
وقرون ماعزكم،
ولتجعلوا من صوتها حطبا
يدفئ قركم هذا الشتاءْ
ولتذكروا عند التحام النار بالأخبارْ
ما كان من أمر البسوسْ

بادت خيوط الشمس في الأشفاقْ
وتحطّمت في قاع صنصفها التيوسْ
وتساقطت كتل الحمام على الحمامْ
والرنّة الزرقاء تعطو للغمام
وصغرها عند انتهاء النبع ثاغية !
لا ظلّ بالطّرفاء كي تأوي إليه
لا ماء بالحصباءْ!
والشمس جاثية ترتّق بردها،
والخيل تكتم غيظها في نحرها
سكنت دواحسها،
لكنّما الغبراء أعدمها المجوسْ !
والهدهد الحيران
متكوّم في الغيب يقتله العبوسْ ...
هذي بلاد الحسن تنشئها النّساء
فتطيعها زمر من الأشياع
وتجيئها من كلّ بادية عروسْ
أن باركينا بلقيس يا بلقيسْ...
وهبي لنا من زيت جمتك فتيل الليلْ
وضعي لنا نجما يؤانسنا.

* شاعرة تونسية.

لم تبق من سبإ لنـــا
حتى نسافر مرتين
ونعيد للآكام سنبلها الثمين
لم يبق من سعف لنا
حتى نطرّز ليلنا
ونعدّ للأسحار لغو الطيرّ !
كم هدهد نسي الـــكلام
من قبل أن يدع الوصيّة ؟
كم نخلة نفضت غدائر عمرها
من قبل أن تصل الثريا ؟
كم قصة نقشت معالمها النساء
لكنّما الجرذان
قرضت سواري البيت
وأريق خمر بالدّنان
وتبدّدت من قبل موسمها جرار الزيت ؟
الصّخر أعتى في النّزال
أم لمسة الأيّـــام ؟

* * *

ستجيئكم تلك العجوز
والطّمي يكسو وجهها،
ستمدّ إصبعها لقرن الشمس
وتقول في صوت شحيح :
كانت غصون الدّوح وارفة هنا،
عود الأراك والقات والصّفصاف
كانت جداء تعتلي هام الصّخور
وتدق بالأظلاف...

مالي أرى الأجداث فارغة
والأثل والصبّار ترجفه السّموم
والطّير هامدة
نسيت إناثها أن تزقّ الفخت
ومرائع الغزلان
مالي أراها أقفرت عند الضّفاف ؟
الماء أعتى في النّزال
أم لمسة الأيّام ؟
سيجيئها جرذ حكيم
ويقول يا أمتاه،
أنا لم أكن أنوي خرابا للدّيار...
هي عادة أدمنتها
من قبل أن يلج النهار حصن اللّيل،
هي عدّتي كي أستعيد شهامتي
وأخوض في أصل التراب...
لتراب مأرب نكهة الجوز العجوز
والموز والعليق،
لحصاها يا أمتاه
روح البساتين الظليله
لنسانها إن أدبرت أو أقبلت
طرق على قلبي الصغير،
لصدى الأعراس في جنّاتها
ما يرجف الأموات !
وأنا لعقت الطّين بالفجوات
وأكلت من درّ الحصـــى
وبنيت أسواري على حجر السّما،
وأنا بمأرب لا بما حمّلت من جبروت هذا الماء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولصوت مأرب في عروقي رنّةٌ
ولحسنها خبب اللّيالي المقمراتْ
ولروحها من أصل روحي
لكنّه صلف المياهْ
ورغاء ذاك السّيل في الفلواتْ...
من أين جاء السيل
من أين جاء السّيل يا أمتاه ؟
فلتسألوا الرّعيان والكهّان
عن أصل هذا الماء ؟
فأنا رأيت الشمس فاتنة
والأزرق الدرّيّ مبثوثا على فلق المدى
والأحمر الرمّان وتبرّج التفاح
وحسان مأرب يقطفن شفاهه
ويضعن في سعف على الأكتافْ
وشهدت أسرار النساء وقد سرتْ
ومرانع الغزلان باللّيل المباحْ
وأنا رأيت السدّ يا أمتاه

* * *

متبرّجا كاللّيث
ولمحت تاج صخوره
وسمعت أصوات الرّجال وقد علتْ :
ها قد هزمنا الماءْ
واللّج صيّرناه ملك يميننا
والغيم طوّعناهْ !
وأنار أيت أقداح النبيذ وقد ربتْ
والفاتنات وقد وجأن دنانه

ورأيت أقوام الشمال تجيئنا
بالسكّر الدرّي والعنبر المسحورْ
وفراء أيل الـــغالْ
ومباخر الرّهبانْ من دير العبورْ...
ولكم عشقت السدّ يا أمتي
وسكنت في أحجاره
ورجوت أبنائي بأن لا يسرفوا
لكنّما الطّوفان فاجأنــا
ومياه ذاك السيلْ...
من أين جاء الماء يا أمتي
من أين جاء الماءْ ؟
أتكون أظفاري أنا قد شجّت الأحجار
ورمت بذورا للخراب ولم أع ؟
الفرط ما عشقت عروقي ترابه
نزف التّراب ولم أع ؟
لا تسرفي في اللّوم يا أمتي
لا تسرفي في اللّوم !
أنا لم أكن أنوي خرابا للدّيارْ
هي عادة أدمنتها
من قبل أن يلج النّهار حصن اللّيلْ
هي عدّتي كي أستعيد شهامتي
وأخوض في أصل التّراب
فلتسألي الأيّــام يا أمتي إذن
فلتسألي الأيام عن أصل الخرابْ !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لا وقت حتّى لأكتب

فاطمة بن فضيلة (*)

أحبّكَ... لا وقت لــي
كي أقُدَّ لعينيك من هُدُبِ الشّمس
بيتا على الأرض أو في القصيدْ
قد تغيّر جرّافة وِجهة الخارطـة
أحبّك...
ليس لديّ اتّساع من العمــــر
حتّى أنمّق هذا الكلام الغزير على شفتيّ
وليس لديّ اتّساع من الصّبْـــر
حتّى أؤجّل موتيَ أكثـــــر
أحبّك...
كيف أقلّم ورد السّيّـــاج
وكيف أهيئ للقلب مجلسه المشتهى
وأدعــو الحساسين والقبّراتْ
قد تغيّر دبّابة وِجهه الأغنيــاتْ
أحبّك...
لا تنتظرني طــويلا
فهذي الطّريق خــراب
وهذي الذّراع تنادي الذراع التي ضيّعتهـا
"تلك الأصابع لي "
ـ قال طفل ـ
"تلك الأصابع لـــــي
إنّها ترسم الأمنيــــاتْ
عن يمين البــــــلاد
إلــى قلبها
تلك الأصابع لي"
ـ قالها ثم ّمـــاتْ ـ
قد تجيء البوارج في غفلـــة
من يدينــــا...
فدعني أشمّ يديك كما أشتهي
ودعني أنادي عليك
بكلّ الكلام الذي لا يؤدّي لمعنــى
فليس لديّ اتّساع من العمل

* شاعرة تونسية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حتّى أنمّق هذا الكلام الغزير على شفتي
وليس لديّ اتّساع من الصّبر
حتّى أطوّع هذا الغبار العنيد
وحتّى أعيد الحمام القديـــــم
إلى سوربيتك
"فبيروت لن تغفـــر ذنبنـــا مرّتين
بيروت لن تغفر ذنبنا مــــرّتيـــن"
ألـم يخبرونـــا بأنّ المقابـــر
يحرسهـــا الله والأسرة المالكـة
فلم يقتلون الشّهيد إذن مرّتين
ولم يا أنين الرّياح على جرح "قانـا"
يعيدون للجثث الـرّوح كي يشنقوها ؟؟؟
أحبّك...
لا وقت لي كي أقـــولْ
ولا وقت لي كي أعـــدّ
قصيدا يطـــولْ
ولا وقت لي كي أفيــق
على وقــع هذا الذّهــول ...

* أوت 2006

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مكتبة الحياة الثقافية

عبد الرحمان مجيد الربيعي

المقال الأدبي في النثر التونسي الحديث - الجزء الأول لعبد الرحمان بوعبيد

صدر للباحث د. عبد الرحمان بوعبيد كتاب بعنوان «المقال الأدبي في النثر التونسي الحديث» من 1936-1939 الجزء الأول. والكتاب كما عرّف به مؤلفه (في نشأة المقال وظهور المقال الاصلاحي بتونس) وجدير بالذكر أن للمؤلف عددا من الأعمال المنشورة في السرد والبحث منها : عواصف الخريف (رواية) 1975، الصبية والعجوز (رواية) 2002، الصالحية أو دموع الأكمة (رواية) 2003.

يقع الكتاب في خمسة فصول : الأول (نشأة المقال في الآداب العالمية والعربية) ونقرأ فيه : النزعة الذاتية في المقالة الغربية /المقال الأدبي في النثر العربي القديم /بين المقال في النثر العربي القديم ونظيره في الآداب الغربية (المازني نموذجي).

والثاني (نشأة المقال في تونس) ويقع في قسمين : العوامل الموضوعية في الاصلاح الهيكلي /في البيئة والمخاض.

والثالث (مضمون المقال وآفاقة الاصلاحية) ومن عناوينه : في التربية والتعليم والدعوة للسمو الفكري /في العلوم والمعارف والصنائع /في الوقاية والعلاج.

والرابع (في تصور البديل الحضاري الشامل) : في معنى التمدن /في نوعية الحكم /في الوسائل المادية والمعنوية /في الصحة والعلاج /في المثل العليا والقيم السامية.

والفصل الخامس والأخير (في أبعاد التطور للمقال الاصلاحي بين الشكل والمضمون) ونقرأ فيه : في التكون الفني /في المحتوى وعلاقته بفلسفة النهضة والتوجهات الوطنية والقومية.

هذا الكتاب مهم جدا لكونه يؤرشف ويؤرخ للمقال الأدبي منذ عام 1836 حتى عام 1939 كجزء أول ولكونه جهدا كبيرا وثّق فيه لكل البدايات الرائدة، وفي اطلاع الباحثين والمعنيين عليه فائدة كبيرة. ونأمل ان يستكمله في الأجزاء اللاحقة.

يقـع الكـتاب في 418 صفحة مـن القطـع الكبير.

هذا الكتاب مهدى (إلى روح علاّمة العصر في نوعه، قطب التحرير والتنوير في أرض المغرب الكبير. سماحة الشيخ الأخبر محمد الطاهر ابن عاشور إغناءة إجلال وابتهال بحرم المعمور تذكرا وتفكرا فيما أبلى في هذه الأوساع للاحياء والابقاء). طبع الكتاب وصدر عام 2005 على نفقة المؤلف الخاصة دون ذكر اسم المطبعة.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

«في مقلة الزمن» لمحمد علي القارصي

صدرت للشاعر محمد علي القارصي مجموعة شعرية جديدة بعنوان «في مقلة الزمن» وهي باكورته الشعرية -كما يبدو- إذ لم تدرج عناوين شعرية أخرى ضمن التعريف به على الغلاف الأخير من الكتاب.

واسم الشاعر القارصي عرف من خلال عمله مدرسا للغة والآداب العربية في كلية الآداب بمنوبة ومن خلال كتاباته التي تعنى بتحليل الخطاب الأدبي والنقدي.

تضم المجموعة إحدى وعشرين قصيدة توزعت أغراضها ولكن الذاتي المتسائل يستحوذ على مناخاتها. وبصياغات لا تغادر الشعر الكلاسيكي في لغته. ولكنها ما أن تقترب منه حتى تبتعد نحو زمننا وإيقاعه ومآسيه.

لنقرأ مطلع قصيدة (خجل) مثلا :

فتأتي الطوارق من الأبعاد / ملتحفة غضب الدهور
أرفع إلى السحاب يدا، / تخطّ الدهور
ثأر الثنايا / ويبادر التعب
حصاد الحروف متى تأتي / مواكبه ؛
وصولجان العشق / متى تعتق سباياه؟)

أو لنقرأ من قصيدة (إستنساخ) ذات الموضوع المختلف قوله :

(وديع / كخطوات حمْل
استنسخته المخابر / اسكنته المشارط
رحم المدينة / ثم انتظرت
لتكون الولادة / دون مخاض
وديع / واسمك حاضر
في دفاتر الحالة المدنيّة / أبوك صموت
وأمك سكينه)

أو من قصيدة (صوت يقاوم) قوله :

(إذا حل القصيدُ / أقام
وألحّ في السؤال / خطط القتال تغيّرت :
لا ميمنة تنجي / ولا ميسرة
ولا جناح)

يقع الديوان في 142 صفحة من القطع المتوسط. طبع على نفقة الشاعر في مطابع الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم. سنة الطبع 2005.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

«حكاية صوفي»
لنديم الوزة (سوريا)

اختار الشاعر السوري نديم الوزّة أن ينشر ديوانه الجديد «حكاية صوفي» بتونس وفي سلسلة (عطر اللغة) التي تصدرها دار صامد للنشر والتوزيع في صفاقس.

ونديم الوزّة هو من الشعراء الشباب في سوريا وله خمسة دواوين وكتاب نقدي صدرت كلها في سوريا.

صدر له من قبل : أشعار (1995)، خارج الجحيم(1998)، وجه لا يبقى كصورته (2000). فراغ (الشعرية العربية) وقد صدر عام 2001.

كتب تقديم الديوان الباحث والكاتب التونسي سليم دولة. وجاء تقديمه تحت عنوان طويل هو : (تهجّي أحوال وتحولات العاشق وشعرية القفز في الفراغ... العاطفي- بمثابة تقديم ديوان نديم الوزة «حكاية صوفي»).

ومقدمة سليم دولة غاصت بعيدا في عالم الشاعر بقراءة ثاقبة من معنى بالفلسفة وممارسة جانب من جوانبها في الشعر.

يقول دولة : (إن مجرد تأمل لمواقف من ينسبون وينتسبون إلى حقول الأداء الكتابي والجمالي يتبين للتوّ قلق الجميع من أبناء العصر التي تتّسم باحالة أرقى ما أنتجه العصر إلى مناطق غياهب النسيان العفوي أو المتقصّد، من ذلك اعتبار الشعر وكل ما يحيل على الحميمي كأنما فقد مبرر وجوده في زمن الاله - البضاعة، وهو ما يجعل مجرد الاصغاء إلى قصيدة ناهيك عن قراءتها أو كتابتها كما يقول أحد أحفاد رامبو «فعلا ثوريا»).

ثم يتحدث دولة عن تشكّل الرواية في كتابات الوزّة ويقول :(تتشكل «الرواية» في كتابات نديم الوزّة من مركّب منعطفات سردية تجعلنا وجها لوجه مع نص اختلافي، وقد يكون خلافيا عن قصد. أما من جهة كونه اختلافيا فهو ينبني على استدعاء حكاية، منتظم من الكلمات والاحالات والأحوال تستدعيها ذات وفق منطق سردي يعي كونه يكتب حدثا جديدا على الأذن المربّاة على شعر قوامه الموسيقا والموسيقا قبل كل شيء. بينما «حكاية صوفي» يحكمها إيقاع واضح لا يطلب من أذن القارئ رتابة في التلقي، اذ تتغير الايقاع من رواية إلى أخرى، وحتى بين مفردة سردية وماسبقها... إلخ).

إن ما جاء في (تقديم) دولة لهذا الديوان هو أكثر من تقديم إذ أنه كتب قراءة له جاءت في (19) صفحة من الكتاب.

تنتمي قصائد هذا الديوان إلى قصيدة النثر التي برع فيها الشعراء السوريون وأحد روادها الكبار هو محمد الماغوط الذي فجرّ هذه القصيدة ورسّخها أيضا من خلال ديوانه الفذ «حزن في ضوء القمر».

ونديم الوزّة هو ابن شعراء بارزين أمثال الماغوط أو أدونيس أو محمود عدوان أو نزيه أو عنش وآخرين.

وتطغى على قصيدة نديم الوزّة سادية غريبة تجاه

«صوفي» الذي أرّخ الديوان لحكاياتها كما ان لغته فظةّ وشجاريةّ جدا.

لنقرأ :

(لم أعد أفكر / أمشي في السوق

ولا أرى سوى صورتك الصفراء / ملطخة بالأحمر

أشمّ رائحة شواء / أو رائحة عفونة

فأشتهي أن أمزقك إربا / وبين الحين والآخر أتذكّر رفقتنا سوية

حين كنا نشحذ الخبز / ونسرق الخضار

وأبكي لأنني تعبدت وجهك / ولم أطبخ دمك بنيران دمي).

لكنّ هذه اللغة تذهب إلى نقيضها في قصائد أخرى مثل هذا المقطع من قصيدة «بداية من لا ينتهي» :

(أنا أعرف أنك تسمحين لي / وأنت تعرفين انني أسمح لك

وبعد ذلك / حقاً

ماذا نفعل بعد ذلك ؛ / سوف نغادر اللعبة ؛

ونذهب إلي السرير معا / في السرير هل نختصر المسافة؟

لا ، ليس لأن هذا يحدث مع الجميع / وإنما لأن شيئا آخر

شيئا نحن نعرفه / ونحاول كي يبقى حياً

أن نتجاهله).

يقع الديوان في 96 صفحة من القطع المتوسط - منشورات دار صامد - صفاقس 2005.

«آخر الأجراس.. بدء الخطر» لمصطفى الكيلاني

تتوزع نتاجات الدكتور مصطفى الكيلاني بين الابداع السردي والدراسات النقدية والفكرية ولا يمر عام إلا ونجد له الجديد وأحيانا أكثر من كتاب.

وفي مدونة اصداراته نقرأ العناوين التالية في مجال السرد : من أحاديث المقص (قصص) 1985، أعوام الجراد والمخاض (قصص) 1994، حلم السبيل (قصص) 1999، نزيف الظل (رواية) 2001، مرايا الساعات الميتة (2004).

أما مدونة اصداراته في الأبحاث والدراسات النقدية فهي الأكبر وفيها إثنا عشر عنوانا آخرها أيديولوجيا العنف، التواصل المستحيل، التواصل الممكن الذي صدر في الأردن عام 2005.

أما جديده السردي فيتمثل في رواية «آخر الأجراس، بدء الخطر».

هذه الرواية مهداة (إلى طفلين ماثلين هنا-هناك، أينما اتجهت طالعاني في السر والعلن، قولاً وعملاً : حسن الجد وعمر الأب).

يكون المدخل لهذه الرواية ما يشبه قصيدة نثر طويلة عنوانها (فاتحة المقامات : فرح معلّق في آخر السطر) وهو ما أخذ به من قبل بعض الساردين العرب كمدخل لأعمالهم ومما ورد في هذه القصيدة نقرأ :

(هذا أنت / لا أثر فيك للضحك المستباح

لا وجع يأتيك / كي تذعن لحنين فجر قديم

كان للزيتون فيه انطفاء نجمة / مرت من هناك

- هذا صوتك / دع اليقظة إلى حين

فالحاكي بجبته الخضراء / ينتظر ثلمة في جدار

زقزقة طائر حبيس / هسهسة مطر هادئ

وشوشة ذكرى / في زمن آخر الأجراس - بدء الخطر)

لغة الكيلاني لغة شعرية بامتياز وهو منحاز للشعر (دراسته للدكتوراه عن الشعر) وقد توزعت الرواية على عشرة مقامات وكل مقام له عنوان وتحته استشهاد من (كتاب الحكمة) لسليمان رجب الذي هو في الآن نفسه شخصية محورية في الرواية.

ومصطفى الكيلاني متأثر بل ومستوعب للتراث السردي العربي لذا يحاول إعادة توظيفه في كتاباته كما فعل ساردون عرب آخرون، ولكن على طريقته.

ومن عناوين المقامات نورد أمثلة فالمقام الأول عنوانه (الحكمة بياض آخر للمعنى) والاستشهاد المرفق به يقول : (حاول الاعتقاد أن الظل هو أنت تحديدا قبل أن تكون وهو أن تكون).

والمقام الثاني عنوانه (الحاكي بجبته الخضراء يجادل في التقوى) والاستشهاد المرفق به يقول : (أنتم يا من تنظرون إليّ، الآن، يا ثمارا لظلال هالكة، ما الذي به تتناسلون إن لم يسدكم قانون التقوى).

وبعد المقامات العشرة يورد فصلا بعنوان (خاتمة المقامات) الذي هو خاتمة الرواية والاستشهاد المرفق به ورد فيه : (أقوال أخرى مما بقي من كتاب المحكمة لسليمان رجب).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

و(خاتمة المقامات) هذه صيغت على شكل حكم عن الانسان والحياة والموت والأمل واليقين والزهد واليأس، وهي أيضا حكم ولدت من خبرة المؤلف وتراكم تجاربه وثقافته.

نقرأ : (ما أجمل أن يموت المرء قبل أن يموت، لأنّ الموت نهاية باردة لجميع الكائنات) أو (هل مطرا هذا الذي أسمع؟ إن تأكد سماعه حقا تحررت بعض الشيء من وساوس البلل) أو (هذه اليد إن قطعتها لي أصبحت أخرس) ويكون الختام لهذه الحكمة (الحكمة صمت وبالصمت يمكن أن تخفف من وقع الكارثة).

تقع الرواية في 168 صفحة من القطع المتوسط وهي من منشورات دار الميزان للنشر - حمام سوسة (تونس) 2005.

«حواريات الفكر الأدبي»
للدكتور صلاح فضل (مصر)

جديد الناقد المعروف د. صلاح فضل كتاب بعنوان «حواريات الفكر الأدبي» وله قبله ثلاثة وعشرون كتابا صدر أولها عام 1974 وعنوانه «من الرومانث الأسباني : دراسة ونماذج» ونشير هنا إلى أن د. فضل درس الأدب الأسباني وكتب عنه وترجمه إلى العربية كما أنه شغل وظيفة مدير المركز الثقافي المصري في مدريد لعدة سنوات.

وتوالت اصداراته بشكل منتظم رغم مشاغله الادارية والجامعية، ونذكر من مؤلفاته «منهج الواقعية في الابداع الأدبي» الصادر عام 1978 و«تأثير الثقافة الاسلامية في الكوميديا الالهية لدانتي» 1980 و«ظواهر المسرح الأسباني» 1992 و«مناهج النقد المعاصر» 1996 و«شعرية السرد» 2002 و«تحولات الشعرية العربية» 2002 و«الابداع شراكة حضارية» 2003 و«وردة البحر وحرية الخيال الأنثوي» 2003 ومؤلفات أخرى.

جاد كتابه الجديد الذي نقدم له هذا العرض في أربعة فصول : الأول (مداخل حوارية) والثاني (في الفكر الأدبي.. وهذا الفصل موزع على عدة أقسام مثل : عين النقد (1) وعين النقد (2)/ حرية الابداع في الخطاب الأدبي/ نظرية عربية في النقد - مصطلح مغلوط / الفكر الأدبي وثورة يوليو / مستويات اللغة والفكر القومي / مفهوم الأجيال وفلسفة تاريخ الأدب / والأدب المنظور.

والفصل الثالث (في الفكر الثقافي) ومن أقسامه : المثقف والسلطة / الخطاب الثقافي وجهاز المناعة / الثقافة حاضنة الديموقراطية / ثقافة المستبقل / التعدد الثقافي.

والفصل الرابع (حواريات مع التراث القريب) ومن أقسامه : كيف نقرأ رسالة الغفران؟ / الطهطاوي وخطاب النهضة / صورة القول في نقد طه حسين.

في الفصل الأول (مداخل حوارية) يضع المؤلف حوارا مفترضا بين فتى من مريدي الأدب وشيخه الناقد. يبدأ السؤال هكذا :(ما الذي جعلك تؤثر شكل الحوار في كتابتك الآن، وأنت لم يسبق لك أن نشرت عملا ابداعيا في القصة أو الرواية أو المسرح ولم تكتب بهذه الصيغة الآن؟).

وهذا سؤال افتراضي من الأديب الفتى، أو أنه سؤال الناقد د. صلاح فضل لنفسه، ويأتي جوابه : (لعل هذا أن يكون هو السبب الحقيقي، إذ لم يسبق لي أن جربت شكل الحوار الصريح في كتابتي النقدية مع أنها في صميمها حوار شيق مع الابداع والمبدعين. مع فن القراءة ومزاج القراءة. مع الفكر الأدبي بقوانينه ونظمه. والثقافة العريضة بامتداداتها في الوجود الحضاري كله. باختصار النقد حوار مع الأدب والحياة معا، ولكنه حوار مضمر، يتعمد تغييب أحد الأطراف وإبراز وجود الطرف الآخر، ويعتمد على الصوت المفرد في معظم الأحيان).

ربما نجد في هذا الجواب تلخيصا لدور الناقد وفق مفهوم د. فضل ولكن هذا الحوار الذي يتواصل بين الاثنين على امتداد تسعة أقسام لا يترك جانبا مستحدثا إلا وتطرّق إليه بإسهاب، مثل تأثير ثورة الاتصالات على الابداع الأدبي.

هذا الكتاب يعزز الرصيد النقدي المتميز للدكتور صلاح فضل وقد صدر عن دار آفاق للنشر والتوزيع- القاهرة 2006، ويقع في 174 صفحة من القطع الكبير.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com